روايات الهلال

وردة شاه

رجاء نعمة

وردة شاه

رجاءنعمة

دار الهلال

إشراف : محمود قاسم ● الخطوط : محمد العيسوى

رقم الإيداع :٢٠١٠ / ٣٩٣٦

الترقيم الدولى :I . S . B . N 977-07-1390 - 2

حكايا المسافرين

إلى عالم رضية المشرّع على الحكايات، تدخل "وردة شاه"، لتسافر مع مربيتها فى رحلات فريدة إلى بلدان بعيدة وتتوقف طويلاً فى اسطنبول حيث كانت البداية. ففى منزل أحد الوجهاء تم اللقاء التاريخى بين جدها تاجر الحبوب "سيدى مدنات"، الآتى من بلاد القوقاز، وأبيها عزمى إسماعيل القادم من بيروت. ثم وبعد ذلك توثقت الصلة بين الرجلين على نحو سمح للتاجر بأن يقول لصديقه السفير:

ـ طالت عزوبتك يا صاحب السعادة، هل ستمضى بقية عمرك فى حداد على صاحبة العصمة، زوجتك؟ رحمها الله، لابد أنها كانت امرأة فاضلة. إنما آن الأوان كى تجدد حياتك. ما رأيك أن أزوجك ابنتي؟ شابة جميلة وابنة مدارس؟

ابتسم عزمى إسماعيل وقال لصاحبه:

ـ ولم تزوج ابنتك الشابة لكهل مثلي؟

ـ لمَ؟! لأطمئن عليها، منذ متى كان الشيب يعيب الرجال؟ وأين سأعثر لها على زوج مثل سعادتك؟ أحسن الهوانم تتمنى أن تكون من نصيبها! ثم إنه ليس غريباً على أب مثلى أن يفكر بمستقبل ابنته. يأمل لها أن ترتبط بصاحب خلق كريم وتنعم بالرفاهية التى نشأت عليها. من الواضح أننا بدأنا نفقدها! منذ أن أخذ بعض الموتورين من الروس ينكلون بمسلمى القوقاز، وأرواحنا وأملاكنا باتت عرضة للهلاك. وأنا، حين عمت الفوضى هربت أسرتى إلى حلب. ابنتى وعمتها كانتا فى طريقهما إلينا، فلجأتا إلى منزل تاجر روسى نبيل الخلق لى به صلة عمل. ولما هدأت الأحوال أعادهما إلى اسطنبول.

وبتحبب سأل عزمى إسماعيل جليسه:

ـ لولا ظروف التنكيل والهجرة، هل كنت ستوافق على إعطائى ابنتك؟

ـ بالطبع أوافق! سيكون من حسن طالعها أن تصبح زوجة رجل مثل سعادتك. حين تقول له، سيدى وتاج رأسي، تخرج الكلمات من جوارح قلبها. ما أتعسها امرأة تتفوه بهذه العبارة من باب المراوغة!

ـ كلامك يا صديقى يثير الغرور، أدعو الله أن يجنبنى إياه. لكن قل لي، هل ابنتك تشبهك فى الخلقة والأخلاق؟

ـ تشبهنى وتشبه أمها. حظك أيضاً يا سعادة السفير سيكون طيباً معها. فتاة مطيعة ونشأت فى أفضل المدارس.

ثم، وبعد برهة صمت أضاف: "وأظن أنها جميلة".

وقال السفير:

ـ كما فهمت يا صديقى أن الخانم ابنتكم تعيش مع عمتها؟

ـ نعم. أختي، أنعم الله عليها بزوج ثري، لكنها لم تُرزق بأولاد. فاستأذنتنى أن تجعل ابنتى وريثة لها تعيش معها وأنا وافقت. أرسلتها إلى المدرسة الألمانية فى اسطنبول. لكنها، فى الإجازات، تأتى بها إلينا. إن وجدت نفسك مهتماً يمكنك مقابلتها. اسمها بوران.

كان بإمكان سيدى مدنات أن يزوّج ابنته من دون أن تقابل الرجل الذى اختاره لها، شأن آباء كثيرين غيره. إنما فى مثل هذه الظروف، كان من الصعب عليه أن يفعل. يكفى أنها ستنفصل عن وطن دبت فيه الفوضى وعائلة تشتتت ولا أحد يعلم متى سيلتئم ثانية شملها. كما أن للقاء ضرورة أخرى. إن كان هو كأب معجباً بما لديه، فلا بد أن يتأكد أن ما لديه يُعجب السفير عزمى إسماعيل.

فى شريط خيالها، الذى يزداد غواية بما ترويه المربية رضية، سترى وردة أمها بوران تتحضر لمقابلة عريسها، وعمتها تلبسها قميصاً أبيض هفهافاً وتنورة طويلة تبرز جمال قوامها. وعلى وجهها سترمى البرقع البنى

الشفاف الذى سيزيد عينيها النجلاوين فتنة. سترافقها العمة إلى صالة الاستقبال. ستدخل مضطربة وتجلس بجانب والدها، لا تجرؤ على النظر مباشرة إلى الزائر، وإن كانت بطريقتها الخجولة ستتمكن من رؤية وجهه. طالب اليد سيقع فى سحرها منذ اللقاء الأول! تلزمه سنين طويلة لينسى حركة كفها الصغيرة وهى ترفع عن وجهها البرقع فيما هى تخفض رأسها إلى الأرض. نعم، كشفت وجهها بناءً على طلب والدها، "فمن أحكام الإسلام، يا ابنتي، أن يرى الخاطب وجه عروسه". فى تلك اللحظة تمنى السفير أن تغدو هذه الشابة من نصيبه.

من ناحيتها، ستنبهر بوران بزوج المستقبل، فى بذلته الأميرية ذات الصدر المطرز والنياشين والبنطال الضيق. وسيدهشها سؤال لم تتحضر له، ألقاه عليها: رأيها فى الزواج من رجل يكبرها، له أبناء وبنات؟

ورغم حيائها ستجيبه بما يرضى غروره ، فيتخذ فى الحال قراره: لن يغادر هذا المنزل إلا بعد أن يطلب يد هذه الشابة التى فطنتها تضاهى جمالها. أياماً سيقرأ ووالدها "الفاتحة" وتغدو بوران رسمياً خطيبته. سيشهد منزل العمة بهجة الحركة التى كانت هذه تحلم بها منذ مجيء ابنة أخيها. التاجرات الجوالات بالبقجة، اليهوديات منهن واليونانيات، تسامعن بالخبر، وتسابقن لعرض البضائع: مطرزات، حرائر وكتان. سيطلب عزمى إسماعيل من أشهر الصاغة أن يأتوا بما لديهم لتنتقى العروس ما تريد. وحين سألها عن أمنية تريد تحقيقها لم تتردد بالقول: زيارة "البازار الكبير". لطالما سمعت بهذا البازار الذى يتحدث بتاريخ اسطنبول والذى يضم مئات الشوارع والحواري، آلاف المتاجر، ويعمل فيه عشرات الآلاف من الحرفيين والتجار. أخبرها والدها أن رحالة من صقلية جاء خصيصاً ليتعرف على كل زاوية فى هذه السوق ويتوقف عند كل دكان ويتحادث مع كل رجل. أمضى سنتين يطوف فى دروبه نهاراً وبدون ملاحظاته فى الليل. كما لزمه سنة أخرى لكتابة مؤلف يليق بهذا الممر العظيم والأكثر أهمية فى البلاد للتبادل

بين الشرق والغرب. ولم ينس الرحالة أن يذكر فى كتابه التاجر "سيدى مدنات" الذى جعله يكتشف خبايا وزوايا ما كان سيكتشفها هو بمفرده. فى شوارعه ذات القناطر البديعة، وتحت قبابه المزخرفة تسير بوران الآن مع أبيها وعمتها. كيف لن تهوى الرجل الذى أخرجها من جدران العزوبة إلى رحاب الدنيا.

★★★

بعد أسابيع، باشرت الأسرة وصهرها السفر إلى بيروت. وبين باخرة فى البحر وعربات فى البر، لم يعرف المسافرون الملل. رسمياً، وبعد عقد القران، غدت بوران زوجة عزمى إسماعيل، يستقلان العربة التى خُصصت لهما والتى تتيح نوافذها الزجاجية رؤية الخارج. والأب والعمة يرافقانهما فى عربة أخرى. وخلفهما تسير تلك المخصصة للأمتعة. سارت العربات طويلاً بين الأناضول وبلاد الشام. وخلال الرحلة كان السفير يشرح لعروسه أشياء، ويحدثها بذكريات وتجارب عاشها فى تلك البلاد. نزلوا فى محطات كثيرة وتوقفوا للمبيت فى عدد من الفنادق. بوران وعمتها تتقاسمان الغرفة والعمة تتولى مسئولية المصاغ الذى ستلبسه ابنة أخيها يوم العرس والذى سيغدو ملكها مدى الحياة، تورثه بعد ذلك لابنة لها أو كنة، إن أذن الله بذلك.

العربة تتابع السير باتجاه حلب. عند تخومها اقترح الباشا المبيت فى نُزل لتستريح العروس وتدخل على أمها وهى فى أحسن حال. سيهمز السائق جوانب الأحصنة لتسرع. جلبة الخيل وقعقعة الحوافر ستلفت الأنظار وتجعل الناس يتساءلون، وهو يزف إليهم النبأ الذى فى أول الأمر لم يفهموا منه شيئاً. ولولا تباشير وجهه، لأقلقهم أن يسمعوا بفتاة لا يعرفونها، هى ابنة المهاجر إليهم حديثاً سيدى مدنات. الجيران قبل أهل الدار علموا بالخبر. فى دخول العروس قبيل المساء، كان كثيرون قد وقفوا على جانبى الطريق. وأطل آخرون من وراء الشبابيك والمشربيات لرؤية موكب مكوّن من أربع عربات، يقلّ ابنة التاجر الشركسى وعريسها. اثنتان منها تنبئان برفعة

مستوى صاحبها، والأخريان بكرمه وقدرته على البذل.

الأم التي، فى تلك الآونة، اعتادت شتى ضروب المفاجآت، أحست بأن طارق الباب يحمل هذه المرّة ما يدخل البهجة إلى القلب. مثل أن يكون سيّد البيت قد عاد. لكن الخيال، لم يشطح بها إلى ذاك الحد الذى ترى فيه ابنتها قادمة مع عريس لها مميّز! المفاجأة ستنسى العائلة مرارة الاقتلاع وتمضى فترة تسودها بهجة ظنوها غدت من تراثهم المنصرم.

★★★

فى بيروت سيُقام العرس الكبير الذى ستنتقل بعده العروس إلى جناح الزوجية. دامت الاحتفالات ثلاثة أيام وثلاث ليال، بدّلت فيها العروس زيّاً بزي. فى اليوم الأول لبست الفستان الذى ترتديه بنات التركمان يوم زفافهنّ وعلى رأسها وضعت "الطرطور". الفستان، كما يبدو لوردة شاه فى الصورة، مطرّز بخيوط تقول رضية إنّها من الحرير ذى الألوان، ومن الذهب والفضّة. فى الصورة التى تقف فيها بوران، يبدو التطريز كاملاً ويُغطى الصدر حتى الخصر. "كردان" الذهب، الهنديّ الصنع، ينزل من رقبتها إلى منتصف صدرها، وعلى رأسها وحول الطرطور تضع التاج المرصّع باللؤلؤ والياقوت. عزمى إسماعيل فى هذه الصورة يجلس على المقعد. الزيّ التركمانى غريب وفاتن ورغم هذا تفضّل عليه وردة الفستان الأبيض الدانتيل الذى صُنع فى فرنسا، والذى لبسته بوران ثالث أيام الفرح، ومعه عقداً وأقراطاً من الفلمنك، تزيدها فتنة لا تقلّ عن فتنة مَن تقف أمام صورة أمها تتفرّج.

قبيل مغادرتهم اسطنبول، الشيء الوحيد الذى طلبته بوران من الرجل الذى سيغدو زوجها، هو أن تأخذ معها خادمة من بنى جنسها. كلام نقله أبوها إلى صهر المستقبل. وهذا أجاب:

ـ سنمر فى البازار الكبير فى زقاق الجواري، سنلقى منهن الكثيرات.

هكذا وقع الخيار على "جلنار".

وصلت هذه مع الوسيط، شاحبة، هزيلة الأطراف، ترتعش. ألقى السيدان عليها نظرة إشفاق وعلى الوسيط نظرة لوم. لم يُخفَ على هذا ما فكر فيه الرجلان، فابتسم وقال:

ـ المسكينات، كلهن يخرجن من السوق خائفات من المصير الغامض الذى هنّ ذاهبات إليه! بضعة أسابيع وتتغير. اشتريت منهن المئات، وحين أقابل الواحدة منهن بعد ذلك لا أكاد أتعرّف بها. وعبدتكم جلنار هذه، برعايتكم ستغدو أقوى من فرس. ها... تكلّمى يا جلنار.

ارتبكت الجارية واحتارت فى ما تقول: هل تُثني على كلام الوسيط فتدخل متاهات المجهول، أم تزعم ما يؤكد مخاوف الرجلين وترجع إلى السوق؟ وحين ركبت العربة، وسمعتهما يتحادثان بمسألة، فهمت من بعض كلماتها التركية، أنّها تتعلّق بزواج، اضطربت. وصارت عيناها تنتقلان بينهما مثل رقّاص الساعة: زوجة أيّ منهما ستكون؟

فَطِن سيدى مدنات إلى ما يدور فى رأس الجارية، فشرح لها القصد من مجيئها: سترافق عروساً من بنى جنسها، إلى مدينة فى بلاد الشام تُدعى بيروت، لتصبح خادمتها الخاصة. وطَمأنها إلى أنها ستكون بالحفظ والصون مع الخانم سيدّتها ومع عائلة زوجها الكرام. حين قابلت جلنار سيدّتها الشابة، ذات الوجه المرحّب الضحوك، شكرت ربّها وبدأت تصدّق شيئاً مما قاله الوسيط: حظّها مع هؤلاء الناس، الذين من الواضح أنهم من ذوى العز والكرم، سيكون طيباً. الكلام ذاته الذى قالته بوران لنفسها حين دخلت منازل آل إسماعيل. منازل من طراز عرفته، مكوّنة من طبقتين، تتقدّمها قناطر عالية مزخرفة. قمريات الزجاج الملّون التى تعلو الواجهات تمنحها الإلفة. إلفة تبحث عنها منذ أن غادرت اسطنبول. وازدادت إلفة حين شرح لها زوجها توزيع المنازل: لكلّ أسرة بيتها. وهذا لعزمى إسماعيل. يُسعده أن تُعيد بنفسها تنظيمه، ليغدو بيتها هي، بوران سيدى مدنات، زوجة عزمى إسماعيل.

الحكايات التى تسمعها وردة شاه من سيدات العائلة، تقابلها حكايات أخرى تتناهى إلى علمها من رجاله، ولا سيّما من أخويها نور الدين وشوكت. يروون تاريخ آل اسماعيل وتاريخ مجيئهم إلى بيروت. كان ذلك حين اقترح الصدر الأعظم اسم جدها "سليم باشا اسماعيل" لتولى مهمّة سيشهد العصر عليها: إنهاض بيروت. مدينة جار عليها الزمن وصار مجدها من مقتنيات الورّاقين، وغدت أشبه بقرية غارقة فى العفن والأمراض. التجار الأوروبيون يخشون المرور بها، والدول تحسب ألف حساب قبل أن ترسل الجند إليها. تخشى أن يلتهم الطاعون زهرات شبانها، كما حدث لعساكر نابليون فى حملته على عكا. وسليم باشا الذى سافر ورأى بلدان أوروبا والبلقان، أعجبه أن يُختار للمهمة الصعبة. سيُخرج هذه المدينة من واقعها البائس. سيُعيد إليها مجدها الرومانى بحلّة عثمانية أوروبية، ترفع رأس الخلافة أمام قريناتها على الضفة الشمالية من البحر المتوسط. والابن عزمى إسماعيل، سيتابع الإنجازات التى بدأها أبوه. إن كان ذاك قد شرع فيها وتعداد المدينة بضعة آلاف، فهو سيعمل ليرى بيروت وقد بلغ سكانها مئات الآلاف. سيمتد عمرانها من أطراف الحقول إلى المرفأ. ستتتابع نهضتها، وكما اسطنبول ستغدو مركز غواية. ستتحوّل عن واقعها العفن إلى مدينة شرقية غربية، تشرّع أبوابها البحرية والبرية وتستقبل ما يأتيها من وراء البحار. الرخام الفاخر من إيطاليا والقرميد الأحمر من فرنسا. بضائع كثيرة يراها الناس للمرّة الأولى سيتهافت عليها الوجهاء والميسورون. سيقيم فيها الفرنسيون الفبارك، ليبدأ منها طريق الحرير، وتمتلئ سهولها وهضابها بأشجار التوت ويرقات دود القز. ستتنافس الأمم الإقطاب عليها. كل أمة تريد أن تجد فيها موطئ قدم وتترك بصمة. سيتدفق عليها المهندسون والمبشرون من أطراف الدنيا: كاثوليك فرنسا وبروتستانت انكلترا وانجيليو أمريكا، ليصبح لكل من هذه الملل أبناء محليون وجاليات: إنجيليون، لوثريون وغيرهم. ملل يسمع بها الناس للمرّة

الأولى، ستدخل في منافسة مع موارنة الجبل وأُرثوذكس العاصمة ومسلمي الخلافة. ستنعم البلاد بهبات المتنافسين. مدرّسون وأطباء يفتحون المدارس والجامعات ويقيمون المراكز الصحيّة والمستشفيات. يأخذون طلاّب العلم واللاهوت من بلدان الأطراف إلى العواصم. ستنتقل القنصليات الأجنبية من الجبل وفلسطين والشام إليها، لتغدو هي المركز. سيرن اسمها في أرجاء آسيا وأوروبا! وفي غمرة نهضتها سيأتيها، زائراً، إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني، ليشهد في خطبة تاريخية، بأن بيروت غدت درة على تاج الخلافة العثمانية. درة على شرق البحر المتوسط. كيف لا يكون أبناء عزمي إسماعيل، نورالدين و شوكت مزهوين: انظروا إلى برج الساعة، يقول شوكت وإلى الأبراج التي انتشرت في مدن السلطنة، كلها تنطق بلسان العصر: نعم، ما عاد تحديد الوقت رهن الحدس فقط أو أذان المؤذنين. صار للزمن قيمة تُحسب بالثواني. السلطة العثمانية أعزّها الله، تمسك المجد من طرفيه: الدين والدنيا. و المصرف العثماني الذي شارك أبونا عزمي إسماعيل في تنظيمه دليل على ذلك، كان عليه أن يبذل جهداً كبيراً لإقناع الناس بإيداع أموالهم في مكان بعيد عن متناول أيديهم. وجهوداً أكبر، ووساطة مفتي الديار، ليقبل كثيرون بفكرة الفوائد، على أنها من حقهم وليست مالاً "حراماً" كما يزعم البعض.

★★★

انتظرت بوران طويلاً قدوم وردة شاه إلى الدنيا. سنوات مرت على زواجها حتى كادت تيأس، لولا أنها ذات صباح من أيام الخريف، أفاقت متعبة من صداع يمسك برأسها وغثيان ينهش معدتها ودوار لم يمكنها من بلوغ الحمّام. أنهضتها جلنار من على الأرض وأعادتها إلى سريرها فيما بدأت النسوة يتوافدن للاطمئنان عليها. ثريًّا حين علمت بما جرى قالت لها:

- "حامل يا زوجة أخي. حامل"!

مالت الشابة برأسها إلى هذه الناحية وتلك، فيما ابتسامة واهنة تعيد

االون إلى وجهها الشاحب:

- " لا تخبروا الباشا قبل أن نتأكد".

قالت، وإن كان الحدس يؤكد لها أنّ فى أحشائها أنثى. وحين زَفّت البشرى إلى زوجها طلبت منه أن يختار لابنته الاسم، فقد رأت واحداً من تلك المنامات التى لا تخطئ. ابتسامة واسعة ارتسمت على وجه الرجل الذى بدأ غير مصدّق أذنيه. وبعد برهة قال: علينا أن نفكر ملياً باسم يليق بابنة تأتى على عطش.

لهفة الأبوة التى أبداها عزمى إسماعيل، أكدت لأفراد العائلة المكانة المميزّة التى سيتخذها وجود الطفل الآتى إلى الدنيا، ذكراً كان أم أنثى. فى الصباح التالى لولادة وردة أمر بذبح الأضاحى وتوزيعها على الفقراء الذين أخذوا يتوافدون. وطلب إرسال المؤن إلى بيوت المحتاجين الذين تأبى عليهم كبرياؤهم المجيء. وأغدق على الأم الشابة هدايا تذكّر بالتى أغدقها عليها فى زواجها. وفتح الصالون الكبير فى الطابق الأرضى لتقبّل تهانى الرجال، كما فُتحت الصالونات فى الطابق العلوى للسيدات. وجاءت عائلة بوران من حلب لمشاركة آل إسماعيل الفرحة.

الأب الذى رُزق ابنة بديعة من امرأة بديعة وهو فى الخمسين، لحظة دخل ووقع بصره على الرّضيعة فى أحضان أمها، سعادة الدنيا كلها لاحت على وجهه. سارع إلى نسخة القرآن الكريم، التى خصصها لأسماء ذريته، وخط فى أسفلها: "وردة شاه"، أمها بوران، وُلدت عند الفجر، الساعة الرابعة من أول تموز، بيروت ١٨٩٧. دوّن هذا ثم رفع بصره إلى أعلى الصفحة ليطالعه اسم ابنه البكر "نور الدين". ومن جوارح قلبه هتف: "الحمد لك يا رب على ما أعطيت".

ظُهر اليوم التالى للولادة، لبس أفخر ما عنده، تعطّر ونزل. استأذن ودخل على بوران. كانت بعد "حمام الخلاص" والداية، قد خصّبت جسمها وشعرها بماء الأزهار التى جُمعت من الحقول خصيصاً لهذا اليوم، تبدو فى

أبهى حلّة يشتهيها زوج، والمولودة فى أحلى صورة يتمنّاها أب. فكيف لا ينحنى ويطبع قبلة على جبين هذه وتلك؟

فعل هذا ثم اعتدل. وجيء له بالمقعد فجلس وحوله وَقفت نساء العائلة. وبصوت منفعل قال:

ـ سيكون اسمها وردة شاه.

ابتسمت بوران، فيما بادرت الداية إلى القول :

ـ مبارك عليها هذا الاسم الجميل. أمدّ الله الباشا بالصحة والعمر الطويل لتحيا وردة فى العزّ والدلال.

وراحت الحاضرات يباركن، مستغربات أن يكون سيّد البيت على هذا المدى من الانفعال! عيناه تلقيان على المولودة إشفاقاً أدعى إلى البكاء؛ وابتسامته، إذ يلتفت إلى بوران، تقارب الضحك. فيض من الرّقة يتدفق من تقاسيم هذا الرجل العنفواني! وشَرعن فى إقامة الترتيبات. تهنئة أرادها الباشا استثنائية، ستدوم أربعين يوماً، تضاهي تلك التى تُقام عند ولادة ذَكَر طال انتظاره. نعم، ففى خلد الأب الكهل، أنّه بعد وفاة زوجته الأولى، انتظر طويلاً قدوم الشابة وابنتها لتؤنساه ما بقى له من سنين.

كلّ زائر جاء للتهنئة كان سيرى الكتاب الكريم مفتوحاً على طاولة صغيرة مصدّفة وتطالعه الآية الكريمة: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا". وعلى طاولة تماثلها فى الجهة المقابلة سيجد نسخة أخرى منه، مفتوحة على غلافها الداخلى وقد خُطت فيها أسماء ذريّة عزمى إسماعيل التى أضيف إليها اسم وردة شاه.

وصار عزمى إسماعيل بعد عودته من العمل يلازم البيت. ولا يخجل من أن يلازم غرفة زوجته ليتفرّج على المولودة وهى ترضع. أو يحملها بين ذراعيه لتتجشّأ. يفعل هذا سراً. وإن شعر بوطء قدم سارع إلى وضع الرضيعة فى حضن أمّها. لكن رقابته الذاتية على سلوكه ما لبثت أن أُصيبت بالوهن، فصار يندفع إلى طفلته غير آبه لاستغراب السيدات ولا

لارتباك جلنار التى تهبّ لتأخذها منه كى لا ترمى قيأها على سترته.

ـ اتركيها تفعل. ستُرات الدّنيا كلّها لا توازى ظفر قدمها الحمراء.

بوران تستسلم لدعابات زوجها، وتضحك حين يبدأ يكاغى للرضيعة زاعماً أنها، مغمضة العينين كجرو القط، تستجيب لمكاغاته! لا تعلم أنه يتمنّى أن يحملها إلى مجلسه ليشهد أصدقاؤه كم هى تشبهه وكم تشبه أخاها نور الدّين. بوران، تخشى استهجان الرجال والنساء، والقول إن الباشا المهيب، فقد سلطة الأمر والنهى على نفسه: فشقيقاته يمازحنه. ثريا تسأله عن لون عينى ابنته ملك، وعن صافيناز، متى لاحظ أنّها حميراء؟ ويجيبها هو بابتسامة واثقة أنه ما من حبّ أبوى يفوق حبّ عزمى إسماعيل لبناته. وتضيف الخالة آمنة: "إلاّ حب رسول الله صلى الله عليه وسلّم لابنته فاطمة الزهراء".

منذ أن تجدّدت أبوّته ما عاد عزمى إسماعيل يتحمّس للأسفار، كما فى السابق. بل يبتكر شتى الحجج ليعتذر. كلّف الآغا "عابدي" السفر مرّتين إلى الشام، وأرسل الأفندى عز الدين نائباً عنه إلى الآستانة. وخطر له أن يستقيل من السلك ويتفرّغ لأبوّته. كم عمل وسافر وواجه المشقات. كاد يستجيب لمزاج رغبته لولا أنّ ابنه شوكت جرؤ وقال:

ـ يا سعادة الباشا ما زالت العائلة بحاجة لوجودك فى الدولة. مَن لا سند له فيها لا مكانة له على أرضها.

انزعج الكهل من ملاحظة ابنه:

– البركة فيك يا شوكت، قال له. ضبّاط الجيش العثمانى فى أُمرتك! إلامَ تطمح؟ قائد جيش تريد أن تكون أم وزير حربية؟

ـ سامحنى يا أبي. لا أفكر بنفسى بل بأخى الصغير نظمي، وبأولاد أخى نور الدين، لا يزالون فى أوّل الطريق.

". كتم الأب غيظه: "ما أبعد شوكت هذا عن نور الدين. هذا، ولد من بطن أمّه متمرّداً"! ثمّ وبعد صمت أجاب:

ـ يا شوكت، أمدّ الله بعمرى لأربّى الصغيرة فى العزّ الذى نشأتم عليه. لكن... إذا ما حدث لى مكروه فالبركة فيك وبأخيك نور الدين.

متمرّد! إنما والحق يقال كان هذه المرّة على حق. فالفرص النادرة لا تأتى لمن هو خارج حساباتها. فى تلك الآونة وصلته برقية من الصدر الأعظم، تُعلمه بأن إمبراطور ألمانيا،غليوم الثاني، سيزور السلطان برفقة زوجته، ثم يتوجه إلى بلاد الشام ويمرّ ببيروت. والباب العالى يمنح عزمى إسماعيل، الذى يعرف الألمانية، شرف المرافقة وحضور مراسم الزيارة فى اسطنبول.

أدرك السفير المحنّك مغزى الزيارة. إزاء جشع الإنكليز فى الشرق وسطوة الروس فى البلقان، يحاول الألمان تعزيز مكانتهم فى بلاد المسلمين. والسلطان الداهية عبد الحميد يعجبه هذا التودّد. إلى أن يتحقق المشروع العظيم الذى بدأه سلفه عبد المجيد سيوهم الأطراف كلّها بصداقة مع "دولة بنى عثمان" لا تتزعزع! نعم، سلفه عبد المجيد كان على حق! لا بدّ لتركيا أن تستنفذ كلّ الوسائل لتماشى الغرب فى التقدّم.

امتلأ عزمى إسماعيل حماسةً لمرافقة الإمبراطور فى زيارة ستتحدث بها الأمم. الزيارة التى سيمضى بقيّة حياته يفتخر بتتويجها مهماته، وبثمرتها التى فاقت كل تصوّر. فى عودته وقبل أن يصل إلى بيروت، كان نور الدين قد عُين مستشاراً فوق العادة بين الآستانة وبلاد الشام. وشوكت رقى وصار رئيساً للجنة الارتباط المشتركة بين تركيا وألمانيا، وغدا "صاحب العزّة" "الميرلاي" شوكت عزمى إسماعيل. مَن يمكنه الوقوف بوجهه إن غدا يوماً "صاحب سعادة" مثل أبيه؟

الزيارة تلك، ستملأ جعبة السفير بما يفتن سامعيه. يحكى لهم كيف تدفقت الجماهير من كلّ صوب لتحيّى نصير الخلافة الألماني. وكيف وقف الإمبراطور أمام ضريح السلطان صلاح الدين هاتفاً بالوعد الذى سار على كل شفة ولسان: "إنّى صديق السلطان الخليفة وجميع مسلمى العالم إلى

الأبد". ويحكى عزمى إسماعيل أشياء ... عن قصر "ضولة بهجة"، الذى أراده السلطان عبد المجيد معلماً يضاهى ما بناه ملوك فرنسا والنمسا. الوفد المرافق استُقبل فى أجمل قاعاته، صالون "التشريفات". أكثرها اتساعاً وأبّهة. تحيّرك أعداد الأعمدة التى ترتفع عليها الجدران، حتى ينبئك المرافق بأنهّا ستة وخمسون! ولفرط ارتفاع السقف ، تبدو منمنمات جوانبه مثل دانتيل مشغول. أما "الثريا" التى تتدلى منه فهى تزن الأطنان. فى منتصف القاعة سلالم من مرمر وكريستال تزيغ البصر، حتى ليلتبس الأمر على الرائى فلا يميّز الصاعد عليها من النازل. التفاصيل التى سيحفظها سكان البيت، وخاصة رضيّة مربية وردة شاه، عن ظهر قلب. تفاصيل تتجاوز قدرات خيالها وتعفيها من مهمّة التخيّل و الابتكار.

★★★

فى صغرها، كانت وردة تطلب من مربيتها أن تفتح الصفحة العسلية التى دُوّنت فيها الأسماء، بخط قويّ جميل هو خط أبيها عزمي. وكانت تلك تتمثل رغبتها. إنما قبل ذلك، عليها أن تغسل يديها وتَبُسمل، كما يجدر بكل مسلم أن يفعل، ليكون "طاهراً" عندما يمسك الكتاب الكريم. ستساعدها رضية على القراءة، رغم أن هذه لا تعرف من اللغة المكتوبة شيئاً. وردة تشير بإصبعها إلى الكلمات فتردّد وإياها: وردة شاه، أمّها بوران. ولدت عند الفجر، تموز ١٨٩٧.

وتسأل وردة، لمَ اسم محمود غير مسجّل فى الصفحة. ورضية تشرح لها أنّ أبناء وبنات أبيها عزمى إسماعيل فقط سُجلت أسماؤهم فيها. أما محمود فهو أخوها بالرضاعة. رضعتْ وإياه الحليب.

ـ وأين سجّلتم اسمه؟

ـ سجّلناه على ورقة. كتبنا: محمود أمُّه رضيّة. أبوه رجب، راح إلى الحرب ثم انقطعت أخباره. لكن لابد أن نسجّله ذات يوم فى خانة رجب.

ـ لكن رجب مفقود. مات.

- وإن يكن... تبقى صفحته مفتوحة!

- مفتوحة، إلى متى؟

- إلى يوم القيامة. ثمّ إن العلم عند اللّه وحده ولا شيء يؤكّد أنّ رجب مات. كثيرون بعد غياب سنوات عادوا. من يدرى لعلّه سيطرق الباب ذات يوم ويدخل.

لسماعها ذلك، ترنو وردة إلى الباب الذي، ذات ليلة، سيطرقه المحارب المفقود.

رضيّة كعادتها تبدو لوردة غير متأكدة مما تقول. مرة تزعم أنها ستسجل اسم محمود فى مصر ومرّة تقول إن قيده سيكون فى حمص. حكاية معقدة لا يُعرف لها حرف من طرف!

- يا حبيبتي، أنا نفسى لا أعرف. قديماً، كانت الحياة سهلة. لا دفاتر ولا أوراق ولا وجع دماغ. ثم قرّرت الحكومات النظام الجديد.

★★★

عائلة رضيّة وزوجها جاءت من مصر. ولمجيئهم، كما تقول، علاقة بقائد يُدعى إبراهيم باشا، كلّفه أبوه محمد على الذهاب إلى بلاد الشام لينشر فيها العلم والثقافة. وجد هذا ترحيباً من أمير لبنان، بشير الشهابي، ومن ولاة كثر من بلاد الشام. لكن، وبعد حكم دام ثمانى سنوات، تغيّرت الموازين، والدول التى ناصرته انقلبت عليه فامتثل وانسحب. كثير من العائلات ذات الأصول المصرية، حين غادر قائدهم، فضّلوا البقاء. مصطفى والد رجب، سكن فى حمص فقُيّد فى سجلات سورية. لذا أخذوه إلى الحرب. أما أخوه عبد المولى فرجع إلى مصر. هكذا بات للعائلة فرعان هنا وهناك. المسألة التى حاول نور الدّين أن يشرحها لرضيّة، جعلت عقلها يشتغل مثل رقاص الساعة. خلاصة الأمر، كما قال الأفندي، أنّه من الأسهل تسجيل محمود فى حمص. هناك له معارف كثر فى دوائر الحكومة. إن

ذهبتْ إليها فسيعطيها رسالة لشخص اسمه "مملوك آغا"، يساعدها فى حلّ المشكلة.

★★★

رضيّة، تحمد الله الذى هداها إلى القرار الصواب وجعلها تلتحق بآل إسماعيل. لولا ذلك لكانت ستعيش وتموت دون أن تعرف، ولو بالسماع، أحداثاً ترقى إلى مصاف الخيال، أبطالها سلطان وزوجته، وامبراطور وزوجته، وباشا علّق له خليفة المسلمين بنفسه النياشين. لولا ذلك لما كانت ستمارس هوايتها فى سرد القصص بثقة وبتلك الطريقة التى تبهر بها عاملات المنازل. ولولا "جلنار" لزعمت أنّ كلّ ما يمت إلى أسرة الباشا قد حدث إبان وجودها لديهم. لولا خشيتها أن تتدخل تلك الجارية الملعونة لتكذيبها... لذا تكتفى بالمراوغة. تلخبط الأزمنة. تقدّم أشياء وتؤخّر أشياء. تضيف وتنقص. وينتقل انبهار المستمعات إلى وردة فتسأل عن معنى كلمة "شاهنشاه".

حيث جاءت رضية إلى منزل آل إسماعيل كان لوردة بضعة أشهر. فى بحثها عن مرضعة لابنة أخيها اهتدت "ثريا" إلى هذه المرأة ذات البنية الطويلة الممتلئة. كانت رضيّة على وشك أن ترفض العرض. فبدل الالتحاق بعائلة معينة، كانت تُفضل عملها الذى لا يلزمها بشيء. لكن كلام "ثريا" جعلها تقبل إرضاع الطفلة بصورة مؤقتة لحين أن يعثروا على مرضعة أخرى. لحسن حظّها أنّهم تأخروا فى العثور.

وتذكر رضية أنّها أوّل ما وضعت وردة على ثديها فاض الحليب. يا سبحان الله! فاض لبن يشبع أربعة أطفال من ثديها، هى التى كانت تخشى أن لا يكفى لبنها ابنها محمود.

لسنوات عاشت وردة وأخوها محمود مثل توأم. يتنشقان الهواء نفسه ويرضعان ذات الحليب. ينعمان بأنفاس رضية ويرتعان فى فيضها العاطفي. يلعبان فى سرير وردة الذى تغطيه ناموسية من التول، يحلو لهما أن يشدّا

أطرافها الدانتيل وينزعا شرائط الساتان ويعلكاها رغم تأنيب رضيّة. ويراهما عزمي إسماعيل فتدمع عيناه للأخوةّ الفريدة. اتُركيهما يلعبان، يقول لرضية.

حيث بلغ محمود السادسة من عمره، جاء عمّه عبد العزيز ليأخذه كما سبق أن أخذ أخاه سعيد. ثم وبعد مفاوضات، أقنعه نورالدين بأن يترك الصبي لأمّه. من حسن حظّها أنّ العمّ استجاب. سعيد يكبرها بسبع سنين وكان من المستحيل عليها أن تلعب وإياه، لكن كيف كانت ستستغني عن اللعب مع محمود؟ ما إن تلمحه تركض إليه. صحيح أنه يقوم بشقاوات تزعجها، يقذف العصافير بحجارة "النقيفة"، ويشدّ القطط من ذيلها أو يقرصها في ظهرها، لكنّه لطالما أشفق على تلك المخلوقات الضعيفة، وأحضر لها الطعام وسقى اليمامات ماء. ثمّ إنه هو من يقرّر إذا ما كان الجرو ذكراً أو أنثى. وصحيح أنّه ذات مرةّ لعب "مشنقة"، لكنّ فنونه في ابتكار المغامرات مدهشة ولا يضاهيه بها أحد. يتشقلب واقفاً على كفيه ويجتاز ممرات الحدائق متحدّياً أياً كان أن يحذو حذوه.

لم يخطر لوردة، أنه سيأتي يوم تكفّ فيه عن اللعب مع محمود. كان في ودّها أن تتزوّجه ليعيشا معاً طول العمر، برعاية رضيّة، بالثبات والنبات ويخلّفان الصبيان والبنات. لكن رضيّة، لسماعها هذا، تعتدل قامتها وتبتسم كأنّها ستوافق، لكنها لا توافق. بل تؤكد لها استحالة ذلك.

- يا حبيبتي، لا يجوز لأخ بالحليب أن يتزوج أخته.

- لكن يجوز أن تلعب معه بالقفز على الحبل؟

- طبعاً يجوز.

يجوز، لكن لعبة القفز على الحبل، تغيظ محمود إذ تشغلها عنه فلا تنظر إليه وهو يتشقلب، بل تبدأ تردّد الأناشيد التي يتلازم إيقاعها وإيقاع القفز. وفي المرّة الأخيرة، زادت من كيدها له بقولها إنها ستقاطعه تماماً وستدعو هَنيّة ابنة الخالة مرام للّعب معها. إزاء التهديد انتزع منها محمود الحبل

ليريها شيئاً أفضل من القفر الأبله: سيريها اللعبة الخطيرة، لعبة المشنقة، التى لم ترها فى حياتها من قبل والتى لم تسمح آثارها النفسية عليه وعلى أمه بأن ينال عقابه بشأنها فى الحال. كان عقاباً بأثر رجعي.

بعد مرور أسبوع على الحادثة التى كادت تؤدى إلى كارثة، نهضت رضيّة من الفراش بوجه متجهّم وشعر منكوش! التجهّم الذى جعلها تشبه الغولية التى تحكى عنها الحكايات، أو "المجنونة" التى يحذرون الناس منها، أفزع وردة. خاصة أن رضيّة كانت تحمل بيدها الحبل الذى منذ تلك الحادثة حرّموا عليهما اللعب به.

ماذا تنوى أن تفعل يا ترى؟

- أين محمود؟ سألتها رضيّة بصوت مبحوح.

- راح إلى غرفة العم سليمان.

وبالغضب الذى تنضح به هيئتها ركضت رضيّة. وخطر لوردة أن تلحق بها لتحمى أخاها من شرّ مستطير. لكنّ رضيّة كانت أسرع منها. اقتحمت غرفة العم سليمان وهجمت على ابنها، وبالحبل الذى جعلته فتلتين راحت تضربه. العم سليمان منع وردة من التدخل فهو نفسه حاول ولقى نصيبه من اللسعات الكاوية. رضيّة تضرب محمود، وتشتم الساعة التى جاء فيها إلى الدنيا، وتندم أيّ ندم على أنّها لم تتركه يرحل مع عمّه الذى كان سيعرف كيف يربيه. وردة تبكى وتستعطف مربيتها فيما تلك مستمرّة بالضرب وبالشتائم، ومحمود بالصراخ. يقسم بالله وبالنبيّ أنّه لن يفعل هذا ثانية. ويقسم ذاك القَسَم الذى يلجأ إليه حين تعييه الحيلة: "التوبة. وغربة أبويا رجب، التوبة". ورضيّة لا تستجيب لقسمه بل تتابع الضرب وتشتم لعبة المشنقة وتهدّد محمود إن عاد وفعل فستعلّق له هى بنفسها المشنقة وترتاح.

★★★

ذاك النهار، حين هدّدته وردة بأن تقاطعه وتلعب مع قريبتها، قفز هو قفزته البهلوانية التى تعرفها، وأقسم لها على أنه سيقوم بشيء لم تره فى

حياتها من قبل. لفّ الحبل حول رقبته وعقد طرفه وعلّقه بالشجرة وهوى بجسمه فى الفراغ. بعد لحظات، حين رأته وردة يصيح ويقوم بحركات هائجة محاولاً التقاط الغصن ثانية، طنّته يمزح. لكن، ووجهه صار بنفسجياً مثل حبّة الخوخ، وصراخه مثل ثغاء الماعز، ساورها شك بأن شيئاً ما رهيباً يحدث له، مثل الذى يحدث للمشنوقين. وبأعلى صوت ممكن لطفلة راحت تستغيث. العم سليمان، كان أوّل المغيثين. أسرع إلى حمل محمود ورفعه، فيما أقبل رضوان وفك الحبل عن رقبة الصبي. أنزلاه عن الشجرة أزرق الوجه، واهن النَّفس كأنّه سيفارق الحياة.

هرول سكان البيوت على نداءات الاستغاثة وفى طليعتهم رضيّة. وإذا رأت ابنها ممدّداً بين الحياة والموت فى حضن العم سليمان، ورضوان ينفخ فى أنفه وفمه، صارت تلطم وتصيح بحليمة. يا حليمة أحضرى الماء. ماء يا حليمة ماء. وفى الحال حضر سطل الماء وأفرغته رضيّة على رأس ابنها. وهذا، فتح عينين زائغتين وتنهد وأخذ نفساً عميقاً. النَفَس الذى لم يميّزه الحاضرون، إذا ما كان آخر أنفاس الحياة أم بداية جديدة لها.

كانت تلك المرّة الأولى التى تشرب فيها وردة، من "طاسة الرعب" التى يسقون منها المرعوبين كى لا تقف قلوبهم من هول الصدمة. والمرّة الأولى والأخيرة التى تشهد فيها لُعبة المشنقة. المشنقة التى ذاع صيتها قبيل ذلك حين تمّ إعدام "ثلاثة جياع ومثقف" فى ساحة الحريّة وسط بيروت.

★★★

ظلت وردة رافضة سفر مربيتها، إلى أن وعدتها هذه باصطحابها. طبعاً إذا ما وافق نور الدين. وصارت تتخيّل نفسها ممسكة بيد رضيّة من ناحية وبيد محمود من ناحية أخرى، متجهةً معهما إلى المرفأ. سيصعدون إلى الباخرة العملاقة التى تسمع بها، والتى يتجاوز حجمها منازل آل إسماعيل الثلاثة. سيمضون فى البحر يومين قبل أن تتوقف بهم فى واحدة من أجمل مدن العالم: الإسكندرية. سينزلون ليتفرّجوا على إحدى عجائب الدنيا

السبع. سيلفّون في شوارع رائعة ويلتقون أناساً من كلّ الأجناس. سُمر مثل الأرض وبيضاً مثل الثلج، عيونهم زرق مثل البحر أو خضر مثل ورق الشجر. يونانيين، فرنسيين، طليان وإنجليز، كلّهم هجروا بلادهم وفضلوا العيش في الإسكندرية. "يا حبيبتي سنمشي على شاطئ أطول عشر مرّات من شاطئ بيروت، قبل أن نصل إلى المنارة التي يبحث عنها كلّ سائح. وبعد ذلك سنواصل السفر. الباخرة ستنزل في ممر مائي ضيّق لتدخل بعد ذلك في "بحر النيل". يلزمنا ساعات طويلة لنصل إلى القاهرة، "أم الدنيا".

رضيّة حين تتحدّث عن بلدها، ترفع رأسها وتعتدل كتفاها. تنفخ صدرها وتأخذ نفساً عميقاً ثم تتنحنح لتبدأ تقول ما تريد قوله، وتفتخر بأشخاص. محمد علي باشا، الذي أرسل ابنه إلى بلاد الشام هو صديق الملك نابليون بعينه! أسماء وألقاب كثيرة تلهج بذكرها رضيّة أغربها حاكم عظيم اسمه "الخديو"، أضاف بحراً إلى بحر. "كانت تلك يا حبيبتي أرضاً خلاء، أمر العمال والفلاحين من الريف والأطيان أن يحفر كل منهم حفرة يبلغ طولها طول جسمه. ولمّا أنهى آخر عامل عمله تدفقت المياه. وفي غمضة عين اختفت اليابسة إلى الأبد! يا سبحان الله، واتصل البحر بالنهر!".

"منذ أن بدأوا العمل والخديو يحضّر لافتتاح القنال. بنى القصور لينزل فيها الضيوف، وأجملها قصر خاص بالملكة الفرنسية أوجيني لتستحلى البقاء عنده. لكنّ القدر يا حبيبتي لم يمهل. الخديو هذا مات قبل أن يدشّن البحر الجديد بسبعة أسابيع وسبع ساعات وسبع دقائق بالضبط! لكن الحياة لا تتوقف. جاء خديو آخر وأقام احتفالاً ما بعده احتفال، حضره الملوك والأباطرة والسلاطين وكلّ العظماء. لم يبق عظيم في العالم إلاّ حضر. من فرنسا وإنكلترا. من بلاد السند والهند والصين، كلهم جاءوا ليشهدوا الحدث الذي لا سابقة له سوى ما قام به سيّدنا موسى عليه السلام. سيدنا موسى يا حبيبتي..."

- يا رضية، ماذا جرى للملكة التي أحبّها الخديو؟

- يا حبيبتي، الملكة المسكينة عرض عليها الخديو الجديد أن تكون محظيته فرفضت. ولشدّة حزنها على حبيبها أصابها مرض، وعادت إلى بلادها خائبة يائسة وظلت هكذا حتى ماتت.

★★★

لا تذكر وردة متى بدأت رضيّة تحكى لها ولمحمود القصص الخارقة التى تبرع فى سردها. ما تعرفه أنّ تلك كانت مخصصة للسهرة. بعضها ممتع مثل حكاية على بابا والسندباد وبساط الرّيح والشاطر حسن... وبعضها مخيف، يجعل أوصالها ترتعش، مثل حكاية الغولية، التى تطرح ثدياً هائلاً على هذه الكتف وآخر على تلك، تنتظر من يمرّ بها ليقع فى حبائلها، إن هو أخطأ الإجابة أو عجز عن فك اللغز.

وحكاية الأفعى العملاقة "الحنش" التى تسكن فى تجويفات المغاور ومستودعات البيوت، والتى لا تؤذى إلاّ من يفكر فى أذية أولادها.

وحكاية العفريت الذى يخطف العجائز.

وديك الجنّ الذى يصطاد الصبيان.

والساحرة الشمطاء التى تحتال على الفتيات لتأخذهنّ إلى أعماق الغابة المظلمة حيث تأمرهنّ بالنوم مائة عام.

وحكاية "النداهة"، التى تفوق فظاعتها أيّ شيء آخر. "النداهة" أو الجنّية التى تنده على قرينة لها من بنات البشر، تغرر بها ولا تتركها إلاّ بشق النفس. أو تساكنها إلى الأبد فلا يعود لأحد قدرة على أن يخرجها من روحها. لذا لابدّ من اتقاء شرّ المخلوقات تلك، وشرّ الأفكار التى توسوس بها فى صدور النّاس. لا شيء يطردها مثل الطريقة التى درّبتها عليها رضيّة: إذا ما هجستْ لها فكرة "شؤم"، من تلك الأفكار... أن تهتف بسم الله الرحمن الرحيم ثلاث مرات، وتمسك بآية الكرسى المعلقّة فى رقبتها. لسماعها ذكر الله تفرّ هذه المخلوقات العابثة وتختفى تحت سابع أرض.

كان من شأن هذه القصص أن تصيب محمود بالرّعب اللذيذ، ووردة

بالخوف الفظيع الذى يخطف النوم من الجفون، فتتكوّم على نفسها خاصة أنّ محمود يزعم لها، فى سواد اللّيل، أنّه هو الجنْ الأحمر الذى سيخطف روح أخته وردة شاه. فتندفع هى وتتمسك برضيّة، عاجزة عن صدّ المشاهد من خيالها، عجزها عن مقاومة الاستماع فى اليوم التالى إلى الحكايات ذاتها، وإلى إضافات يجود بها خيال مربيتها ذات القامة الشاهقة والصدر العالي. عجباً! كيف تتحوّل هذه، من أمّ تقدّم لوليدها النصائح العاقلة فى النهار، إلى مخلوقة أخرى تلبس أدواراً فى الليل أو تَلبسها أدوار، فتغيّر من إيقاع صوتها وتعابير عينيها وحركات كفيها، ويتداخل فى حكيها كلام مفهوم بآخر غير مفهوم. ألفاظ غريبة على ألسنة مخلوقات عجيبة تغدو رضيّة واحدة منها. على الرغم من أنّ هذه لم ترَ مسرحاً فى حياتها، بل سمعت به، من نور الدّين أفندي، فيما كان يتسامر مع زائريه، ومرّات من زوجها رجب. كان هذا يحكى لها عن عروض جوّالة شاهدها فى حلب: ممثلون ومهرّجون يقومون بأدوار لا علاقة لها بشخصيّاتهم الحقيقية. حتى يُمكن للطّيب أن يغدو شريراً والفقير أميراً والرجل امرأة. سبحان الذى يغيّر ولا يتغيّر. يصعدون إلى مرتبة من خشب أكبر من التى تجلس عليها العروس يوم عرسها، ويبدأون بالتمثيل. يشخّصون حكايات وكأنها من الواقع. واحد يصعد وآخر ينزل كما أمرهم أن يفعلوا شخص ابتكر المشاهد من عقله الشيطاني. من المؤكد أنّه تعلّم حرفته من الأجانب. روايات تجعل المشاهدين يشهقون بالبكاء أو يقهقهون بالضحك.

يا سبحان الله!

★★★

بين الحكايات ومرادفها فى الواقع، ظلّت مكانة جلنار مدّة طويلة مبهمة فى خاطر وردة. تسمع من هنا وهناك أشياء تفهم بعضها، لكن معناها الكلى يبقى عصياً على الفهم. مثل الحديث عن طالع السعد الذى رافق هذه الجارية منذ أول يوم وقعت عليها عين الوسيط فى سوق الجواري. أخرجها

منه ليفتح لها باب الجنّة فى منزل آل إسماعيل. من يعلم ما ينتظرها بعد ذلك؟ فالتغيّرات التى بشّر بها هذا فاقت كلّ تصوّر! جلنار، وقبل مضيّ سنة على ملازمتها بوران، تبدّلت هيئتها حتى لما عادت هى. طالت قامتها وعلا نهداها وغدت مليحة الوجه شامخة الرأس ومن تحت منديلها تتدلّى ضفيرتان لوّحت طرفيهما أشعة الشمس ببريق أشقر. وحدث أن لمحها رضوان، أحد المشرفين على أملاك العائلة، فبهرته جارية يضاهى بياضها بياض الحليب، وحمرة خدّيها الورد الجورى وعيناها لون الشهد! استعطف الباشا أو يزوّجه بها، وأبدى استعداداً لأن يبقيها فى منزل سيّده، مكتفياً هو ببعض الأيام. يأخذها ليلة الخميس ويعيدها إليهم صباح السبت.

فى خُلد رضوان أنّه، فى زواجه بالتركمانية التى تشبه سيدّتها، كأنّما يتزوج أختها. أختها، لولا أن عوادى الزمن التى تفرّق بين البشر، قد تدخّلت لتجعل من هذه سيّدة ومن تلك المسكينة جارية تُباع فى سوق العبيد. وليس غريباً إنْ هو تزوجها أن ينجح فى تحريرها، وتشعر هى بقيمة ذاتها، وتَنْسى ويَنْسى الآخرون السوق الذى خرجت منه.

لم يكن حلم رضوان فى غير مكانه.

فعزمى إسماعيل، الذى هو أكثر كرماً وتقوى من أن يترك الجارية بلا زواج، أو أن يفرقها عن زوجها، وجد الحلّ الملائم، فأسكن الزوجين فى أحد ملاحق البيت فى الحوش. كان ذلك قبل أن ينجبا ويغدو رضوان مسئولاً كبيراً فى أعمال آل إسماعيل، وينتقل مع عائلته إلى مسكن خاص بهم غير بعيد. حين ولدت وردة كانت جلنار لا تزال فى منزل سيّدها. كان ابنها الأكبر خالد قد بلغ السابعة. ورغم مسئولياتها بادرت إلى مساعدة بوران وصارت فى ما بعد تعاون رضيّة فى رعاية الطفلة. كانت ستفعل أيّ شيء امتناناً للفتاة التى كان مجيؤها إلى العالم سبباً فى خلاصها من العبودية. بعد ولادة وردة استدعاها الباشا هى وزوجها، وبحضور أفراد العائلة، قال: وفاءً للنذر الذى أخذته على نفسى فى تلك الليلة... أنت منذ اليوم حرّة.

وأولادك أحرار أيضاً وسائر نسلك. كلّهم أحرار إن شاء الله إلى يوم الدين.

ثم أمر لها بمبلغ من المال تعويضاً عن سنوات العبودية التى أمضتها عنده. وخيّرها بين أن تستمر فى عملها معهم بأجر يُتفق عليه، وبَين أن تتفرّغ لعائلتها أو لعمل آخر.

الحكاية التى تُدهش الخادمة حليمة من تلك الدهشة الباعثة على السرور، تسبب لرضيّة الضيق. إنْ كانت تكذب على الآخرين حين تتظاهر بعكس ذلك، فهى لا تكذب على نفسها. نعم، فهى تلوم السيد على فعلته والجارية على خطيئة الارتقاء الاجتماعى الذى فازت به. وتتوجّس من السطوة السحرية التى تتمتع بها هذه التركمانية البيضاء فى نفس وردة . فالطفلة لا تتخيّل عزمى وبوران يرتعان فى النعيم بدون عون الشابة التى أحضراها معهما من اسطنبول. الكلام الذى يصعب على الطفلة ترجمتها، تلتقط رضيّة جوهره. نعم تؤرقها السطوة التى قد تمكّن الجارية من القفز ثانية فى سلّم التراتب. كما فى حكايات ألف ليلة وليلة! كم يحدث لابنة حطّاب أن تغدو أميرة ولجارية سيّدة ولعبد خصيّ أن يستولى على الحكم. سمعت من الشيخة حمدية أن عبداً من العبيد يُدعى "كافور"، عمل انقلاباً على سيّده. كان هذا رؤوفاً معه، حتى أنّه رفض أن يخصيه كما سائر خلق الله من العبيد. لكن الرأفة لم تجلب لصاحبها سوى الويل. صدق الشاعر الذى قال: "لا تشترِ العبد إلاّ والعصا معه إنّ العبيد لأنجاس مناكيدُ". فكافور هذا انقلب على سيده. قتله وتزوّج زوجته وجلس على كرسى الحكم مكانه. يقال إنه كان أسود اللون مثل الفحم أخضر العينين مثل الحشيش وكانت له نظرات تلقى الفزع فى قلوب السباع! عشرون عاماً ظلّ يفتك بالناس، يقتل ويعذّب ولا أحد يجرؤ على الاعتراض. وجلنار هذه، صحيح أنها بيضاء، إلاّ أنّها من صنف العبيد واشتُريَت من السوق. و رضيّة لا تغشها الوداعة التى تُظهرها تلك للعائلة ولا الوفاء المزعوم. وتجد فى الهدايا التى تحضرها للصغيرين مباهاة فى غير مكانها. وتقف لها بالمرصاد. عمداً أم سهواً

تقرصها بالكلام، بسؤالها أشياء عن حياة الشقاء التى عاشتها فى سوق الجواري.

شيء أقوى منها يدفعها إلى هذا. فالحدس الذى يقفز على مراحل الزمن ويكشف النيّات الغامضة للتاريخ يلوّح لها بالمستقبل الرّائع لصديقتها اللدود. حاسة الشم الحيوانية التى تهدى القطة إلى رضيعها تقودها هى إلى ذاك الاحتمال: أن يأتى يوم تحقق فيه جلنار قفزة أخرى فى منزل آل إسماعيل تتوّجها سيّدة من سيداتهم. ويخرج من صلبها أبناء وأحفاد يقيمون صلة الرحم بينها وبين عائلة تعود بالتوارث إلى أشرف الأنبياء. ماذا لو كانت تلك الملعونة تعمل فى السرّ لتوقع الطفلة البريئة فى حبائل ابنها حتى يأتى يوم تجد العائلة نفسها فيه، مرغمة على تزويجها له؟ كانت رضيّة تتمنّى لو أنّ وردة رضعت ولو مرّة واحدة مع خالد ابن جلنار لتحرّم عليه كما حرّمت على محمود.

وذات مرّة همست فى أذنها: نازلى تريدك لحفيدها.

ـ حفيدها؟ ـ نعم، رشاد.

لسماعها ذلك، تبلور فى ذهن الطفلة كرهها لعمّتها نازلي. كيف تتزوّج رشاد وهى بالكاد تعرفه؟ وعليه تفضّل أن تبقى فى البيت وتلعب مع محمود وتنام قرب رضيّة وتدرس مع نور الدين وتعزف البيانو مع كاميليا. بل تُفضل أن تتزوّج محمود لولا أن رضيّة مستمرة فى عنادها! تلوح بإبهامها ورأسها. تزم شفتيها وترفع حاجبيها لتقول: مُحرّم. إخوة بالرّضاعة، لا يجوز!

فى مهبّ العصر

حين أهلّ القرن العشرون، كان سكان البيت الكبير هؤلاء، جميعاً قد بلغوا سنّ الرشّد. مَن حالفه الحظ منهم وَأخذت له صورة، أو مَن لم يحالفه بعد. جميعهم، ما عدا وردة ومحمود. تزوّج منهم من تزوّج وسافر من سافر للعلم أو العمل. فى تلك الفترة كانوا، فى ديوان نور الدين، يلهجون بما يُدخل البهجة إلى النفس: عصر جديد له اسم غريب هو "القرن العشرون"، سيفتح صفحة جديدة فى التاريخ، يضع حداً لبؤس الحروب التى سادت طويلاً.

كان على وردة أن تنتظر سنوات ليبدأ مغزى الكلام عن الزمن المخملى يتناهى إلى إدراكها. تعرف أنّ الحياة منحتها ذاك الحظّ، أن تشهد انتقال العصر إلى آخر سيكون بلا شك من أعظم العصور. من أكثرها إسعاداً للبشر، وإلاّ لما كان سيُعرف باسم "الزمن الجميل"! وإلا لما انتظروه فى بلدان أوروبا بتلك اللهفة واستقبلوه بالاحتفالات. يقال، ذُبحت النعاج والخراف وسألت الخمور أنهاراً، ودار الرجال سكارى فى الشوارع. ومن كانوا من ذوى العلم حملوا المناظير وصعدوا إلى سطوح البنايات. حدّقوا بالسماء يراقبون التحولاّت التى قد تطرأ على الكواكب والأبراج. سهروا حتى الفجر. وزعم الكثيرون رؤية تغيرات ستظهر آثارها عما قريب. الشهب ستتدفق على الأرض وتحرقها، عندئذ ستكون الساعة.

ولعلّ أباها،عزمى اسماعيل، هو أيضاً حمل المنظار الذى يحتفظ به نور الدين، ولعلّه أمسك بيدها وصعد إلى السطح ليريها اشياء. لا بل من المؤكد أنه قد فعل لكن لا صورة تدل على ذلك.

يقال إن شبان بيروت ساروا ليلاً وفى أيديهم المشاعل. المسلمون منهم يكبّرون والمسيحيون يتلون الصلوات ليسوع ومريم. والشيخ فى اليوم التالى، من على منبره فى الجامع ألقى الخطبة مكذباً الأقاويل. القيامة لا تقوم إلا حين يأذن بها الخالق. وفى مجلسه الخاص ذكر أن الأيام القادمة ستكون بلا شك أسوأ مما مضى. نعم، فهو كما العارفين بالأمور، ولا سيّما المسنّين، وبالنظر إلى ذاكرة أثقلتها الأحداث وحكمة أكسبتهم إياها التجارب، كانوا أقل تفاؤلاً: "كم ذاق الناس اللوعات من سفر "برلك" وفقدان الأبناء وترمّل النساء ويتم الأطفال وتفشّى الأمراض وغموض المستقبل. ما العصور منذ فجر التاريخ، منذ قابيل وهابيل، إلاّ سلسلة اقتتال. وما هذه المنطقة من العالم التى قسم الله لهم أن يولدوا فيها ويموتون، سوى من المناطق الضعيفة التى كانت ولا تزال مطمعاً لكل طامع. ما من غازٍ فى التاريخ إلاّ حاول غزوها. منذ ارتحششتا الفارسي، الذي، على استباحته مدينتهم، فضّل أهل "صيدا" إشعال النار فيها وتَحوّلوا معها إلى رماد... إلى رمسيس المصرى ونبو خذ نصّ البابلى ويوليوس قيصر الرومانى وغيرهم كثيرين احتلوا هذه البلاد. حكموها وتحكّموا بأهلها وأرزاقها قبل أن يأتيهم الفتح العثماني. لهؤلاء جميعاً كانت الغايات ذاتها: جمع الضرائب من الأطراف لإنفاقها فى العواصم! الكلّ يصبو إلى التفوّق والمجد. لكل يتنافس على الحروب والبذخ. وبعضهم إذا شطح فاق كلّ تصوّر! مثلما فعل "عبد المجيد" حين قرّر بناء قصوره. أوقع خزينة الدولة فى الإفلاس تحت وطأة الفوائد، كما فعل الخديوى توفيق فى مصر. يا لهؤلاء! يقترضون من جيران اليوم لينافسوهم أعداءً للغد! والعثماني اقترض من أوروبا كى يضاهى قصره ابنتيها. بأطنان الطلاء من الذهب، ومئات من الحجرات وآلاف من الحريم والموظفين والخدم. صَنع من كلّ شيء اثنين اثنين. وإن سُئل عن السبب أجاب: "خوفاً من المسّ بوحدانية الله"! وحده البيانو الذى أرسله نابليون هدية له، شذّ عن القاعدة. ما الذى غَيْر الغطرسة يدعو الحكام إلى ذلك؟!

وممَّ يشكو قصر "توبكاي" ليقرّر المتغطرس استبداله؟ توبكاى الذى يضم سيف الإمام على وآثار لدعسة الرسول عليه السلام، فضلاً عن جمجمة يوحنا المعمدان، والذى بناه أعظم الفاتحين. منْ سقطت بين يديه أعظم الحضارات. إنّما لا ملك يدوم إلى الأبد! الإمبراطورية العثمانية هذه التى عاشت أكثر من ستمائة عام، قد شاخت ونخر السوس عظامها، وهى الآن فى طورها الأخير تحتضر. ستندثر، كما أندثر آل فرعون ومملكة الإسكندر ذى القرنين.

كان على الكثيرين أن يبذلوا جهداً ليتخيّلوا يوماً لا تكون الخلافة العثمانية هذه، الممتدة فى أطراف الأرض والمتوغّلة فى جذور الذاكرة، موجودة! يوم لا ينشد فيه التلامذة للسلطان عبد الحميد أو محمد رشاد أو من سيأتى بعدهما، ولا يدفعون فيه الضرائب للجباة، ولا يعانون اضطهاد الولادة ولا يُساق شبابهم عنوة إلى الحروب. لا تُلقى فيه الخطب العصماء على المنابر مناديةً بحياة الخليفة وباستمرار الخلافة إلى يوم الدّين. ويقول بعضهم فى سرّه: فَلتولَّ. لقد آن لنا نحن العرب، بعد أربعمائة سنة، أن نتطلّع إلى مستقبل آخر غير الخضوع لبنى الأتراك. وهؤلاء أيضاً آن لهم أن يستريحوا من بطش من يزعم أنّه ظلّ الله على الأرض. مَن يرمى بالشبّان أحياء فى الدردنيل والبوسفور. يُقال، يربطونهم بسلاسل الحديد ويتركونهم يغرقون، وتتكفّل تلك بألاّ تطفو جثثهم على الضفاف. يقال، إنّ زوجة سفير النمسا، كانت وإياه مدعوة إلى مائدة السلطان عبد الحميد. وإذ قُدّم لهم السمك امتنعت. ألا يعجبك السمك؟ سألها السلطان مجاملة، فأجابت: يعجنبى كثيراً السمك إنما أخشى أن يكون هذا قد تغذى بجثث شبانكم فى المضايق.

★★★

نورالدين، ورغم إدراكه سلبيات الحكام، كان هو أيضاً يغبط نفسه: أن يكون شاهداً على بزوغ القرن الجديد. إذا ما كان الثامن عشر على ذات

المدى من التنوير، والتاسع عشر على هذا المستوى من التقدم، فما بالك بالعشرين؟ يغبط نفسه على أن الزمن جاد بنهضويين كبار، أمثال الأفغانى والشدياق واليازجي. مفكرون يحتكمون إلى العقل. يعون الفروق ولا يتوقفون عندها. هى لهم، منابع ثراء لا حجة تمييز. يلزم الكثير من أمثالهم لإنهاض الأمم. وهو يطمح لأن يحذو حذو هؤلاء. حين أنهى تعليمه فى مدرسة الحكمة، اقترح عليه والده دخول "الشاهانية" للعلوم الإدارية، أو الكلية الحربية فى اسطنبول، فوقع اختياره على معهد الحقوق. إذ لا يرى نفسه ضابطاً يخوض الحروب مهما علت رتبته، ولا موظفاً وراء مكتب مهما ارتقى فى السلم. فى نفسه توق عظيم لإحداث التغير الذى يبدأ بالوعى والإطلاع. ها هى سكك الحديد تمتد فى بلدان أوروبا وآسيا امتداد الشرايين فى جسم الإنسان. خطوطها تغرى بالسفر، كما تغرى به البواخر. كلها وسائل تختصر المسافات بين البحار واليابسة. تسهل رؤية بلدان ينطق ناسها وعمرانها بلسان التاريخ وأحلام المستقبل. فلينطلق. فليحيا عصره ثم يقرر أين يُرسى المركب.

هكذا، وبعد تخرجه من مدرسة الحقوق، اتجه إلى النمسا ليتابع دراسته. وبين العاصمتين وخارجهما دأب على السفر. يحلو له أن يركب القطار ويتوقف فى المحطة التى تغريه بالنزول. وإذ خشى الأب على ابنه أن يمضى شبابه فى حافلات القطارات، مكتفياً بكتابة مقالات ينفق عليها أكثر مما تنفق عليه، توسط لدى صديق له فى الباب العالي، وعُين نور الدين مستشاراً فوق العادة. مهمة، على صعوبتها، تتفق وهواه. يعجبه أن يغدو وسيط تفاهم بين شعوب الإمبراطورية. بين عرب وأتراك وبلقان: يعجبه أن يسعى لنزع فتيل الحروب التى تدمر ما بذلت السلطنة فى بنائه. السلطنة التى يقلقه تراجعها أمام بلدان أوروبا الصاعدة ويرى فى توثيق الصلات بالأطراف من ضرورات الخلاص. الأطراف هذه، غدت مطمعاً للطامعين. يقال إن السلطان الداهية عبدالحميد، لانشغاله بالحفاظ على الحدود، نأى عن شؤون الداخل.

عيونه تراقب جموح روسيا نحو البلقان، وسطوة انكلترا على مصر والجزيرة العربية وفلسطين، واحتلال فرنسا شمال أفريقيا، وإيطاليا ليبيا. يقال إنّ كل ذلك اضطره إلى تعطيل الدستور وتسليم أمن البلاد إلى الصدر الأعظم. وغضّ النظر عن الولاة. لكن هؤلاء تمادوا في التسلّط والفساد والتنكيل، وأطلقوا اليد الطولى لرجال "العين الخفية". لابدّ لجيل آخر من تسلّم الحكم وكسر الطوق الذي ضربه هؤلاء حول الخليفة.

وحين وقع الانقلاب على السلطان عبد الحميد بعد حكم دام أكثر من ثلاثين عاماً، استعاد نور الدين ثقته بالخلافة. صحيح أنه لا يرى في السلطان الجديد "محمد رشاد" رجلاً فذاً، ويقال إنه أبله، لكن العودة ثانية إلى الدستور، والتعديلات التي حدثت تُؤذن كلّها بعصر جديد. بوركت نهضة هذه الإمبراطورية التي أصابتها كبوة! انتهى العصر الظلامي ليبدأ عصر النور. عصر الأحزاب والجمعيات وانتشار المدارس. مبادئ الدستور لا تختلف بشيء عن مبادئ الثورة الفرنسية. مواطنو السلطنة باتوا جميعاً على قدم المساواة، مهما اختلفت أديانهم وألسنتهم وطبقاتهم. الناس في كل البلاد سيفوزون بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها سكان العاصمة الأم. لن تُعزّز لأنك تركي أو تُقصى لأنك عربي. ابن لهذه السلطنة أنت وستُفتح لك الأبواب. فالآستانة بدأت تستعيد بحق معناها الأصلي: "دار السعادة".

★★★

وردة، أيضاً تغبط نفسها، إذ لا تتخيّل لحياتها زمناً آخر لم تكن المدارس فيه موجودة، لا للبنات ولا للصبيان. تسمع بمعلّمين يجمعون الأولاد تحت الشجر في البريّة، أو شيوخ وشيخات يدرّسون القرآن واللغة العربية في أماكن تُسمّى الكتاتيب. نساء عائلتها اللواتي سبقنها إلى هذه الدنيا، درسن في الكتّاب أو في البيت، لدى مدرّسات عربيات أو تركيّات. القارئات منهن يزهون بأنفسهنّ، أما من تعرف الكتابة فلها شأن مميزّ. وكم تأسف لأن أختها ملك لم تلتحق بالمدرسة. يا للعجب! ملك لا تكبر ليلى كثيراً فلمَ

الفرصة أتيحت لهذه دون تلك؟! لا تقنعها الحجج...فهذه جعلت من ملك أسيرة البيت كالمسنات! أسيرة النمط الذى تمقت. نمط يبدو فيه المنزل أشبه بسجن والحياة دائرة مغلقة، مملّة وبلا أفق. تختلس فيه النسوة النظر إلى العالم من وراء المشربيات ذات القواطع الهندسيّة الجامدة التى تُصمّم خصيصاً للحريم! وهى تمقت كلمة حريم، التى تلخبط رأسها: حريم حرم، محرّم محروم! تمقت هذه العبارات التى تتردد كثيراً على ألسنة الناس. ولعلّها تمقت "الحريم" أيضاً: تمقت ارتباكهنّ حين يتناهى إلى الواحدة منهن صوت رجل، وإسراعها إلى الاختباء أو تسوية غطاء الرأس. وكانت تكره زيّ النساء. البرقع الذى ترميه المرأة على وجهها والملاءة السوداء التى تغطى جسمها من الرأس حتى القدمين. تستغرب كيف ترى النسوة دربهنّ! كيف لا يتعثرن فى المشى والبرقع قاتم وسميك إلى هذا الحد! وتشفق على أختها ملك التى تلبس مثيله. ملك، شابة فى البيت وعجوز فى الطريق! حين تسير مع الأخريات ويملأ الهواء تنانيرهنّ الطويلة الواسعة، يبدون لها مثل صفّ من الأشجار تتلوّى فى أماكنها.

رضيّة شرحت لها ذات مرّة أنّ المنديل هذا صُنع خصيصاً لكى ترى المرأة من خلاله دون أن تُرى. وبرهاناً على ما تقول، أحضرت لها برقعاً ربطته على جبينها وأسدلته. ضحكت وردة كثيراً للتجربة. قهقهت. كانت تلك تجربتها الأولى مع البرقع. الأولى قبل أن ترميه ثانية على وجهها حين ستلبس تنكّراً الزيّ "الحريمي" الكامل الذى تمقته. ستفعل ذلك، فى السادسة عشرة من عمرها، وهى تقوم بما سيشغل المدينة ردحاً طويلاً من الزمن.

★★★

كاميليا، وحدها من نساء العائلة، لا تلبس هذا الزيّ. حين تخرج تكتفى بغلالة خفيفة على رأسها من الدانتيل أو الحرير الشفاف، و"كاب" واسع على كتفيها يصل إلى الوسط. زيّ كاميليا يضع الحدّ فى خيال وردة بين الأزمنة،

وكذلك الشمسيّة ذات الأطراف الدانتيل التى تحملها لتردّ عنها أشعة الشمس. وردة شاه تشكر القرن العشرين الذى سهّل السفر وأتاهم بهذه الشابة الأجنبية، وإلاّ كانت مشيئة العمّة نازلى ستنتصر. حين أتمّت الثانية عشرة، تحدثّت نازلى بضرورة تحجيبها، فبنات جيلها المسلمات سبقنها إلى ذلك. والسيدة عائشة أم المؤمنين كانت فى مثل سنها، متزوجة وتلتزم فروض الإسلام. وكادت نازلى تستدعى الخياطة وتطلب إليها شراء الأقمشة واللوازم للوافدة الجديدة إلى رعيل الملتزمات بأصول الدين. لحسن حظها أن نور الدين تدخل وأوضح لعمته وجهة نظره: الحجاب هذا ليس من فروض الإسلام الخمسة، مثل الصلاة والصوم. ما هو سوى تقليد ساد طويلاً فى معظم أنحاء العالم. تلبسه النساء بصورة أو بأخرى، مسلمات كن أم غير مسلمات. وهذا الزى الأسود بالذات مستحدث، ولا أحد يدرى كيف نشأ فى المدن بين طبقاتها العليا، قبل أن يعم وتعتمده نساء جميع الطبقات. أنظروا إلى الأرياف اليوم، على مسافة ساعة من ركوب الخيل، لن تروا امرأة تلبسه، إلا إذا كانت تستعد للنزول إلى المدينة. ثم إن نساء المدن من شتى الملل، مسيحيات ويهوديات يغطين رؤوسهن أو يلبسن "الإزار" الأبيض. ما الذى جعل المسلمات يتحولن عنه إلى الأسود ؟ لا أحد يدري.

بعد انقضاء سنة على ذلك، ووردة تزداد طولاً وأنوثتها بروزاً، استبقت كاميليا الأمور وأحضرت لها من خزانتها غطاء للرأس من الموسلين الأزرق وآخر أبيض تنسجم ألوانه وزى المدرسة. ولما اتخذ حجابها طابعة النهائي، دأبت على النزول مع كاميليا إلى السوق لتتنقى بنفسها ما تريد. من يلمحها، فى عبورها طريق المدرسة، فى زيها المبتكر وشمسيتها المطرزة التى أعطتها إياها تلك، كان يظنها شابة مسيحية من طائفة الروم الأرثوذكس المتأصلة الجذور فى رأس بيروت. وإذ يسألون يُحكى لهم عن تأثر الفتاة بآراء أخيها الذى جاب العالم، وبتقاليد زوجته ذات الأصل الأسباني.

يُحكى أن اسمها فى الأصل "كلاوديا". وبالنظر إلى صعوبة اللفظ، أطلق

عليها زوجها أسم "كاميليا". قدوم هذه إليهم يتراءى لوردة كأنما حدث اليوم. العم سليمان يفتح الباب الخارجي على سعته والعربة تدخل الحوش وتتوقف. ينزل منها نور الدين ويعطى يده لتتكئ عليها الشابة، وتبين ذراعها وقدمها ذات الحذاء الصيفي الرشيق. وحين نزلت بدت الشابة القادمة من وراء البحار، في أبهى حلة عروس تدخل على عائلة زوجها لأول مرّة.. ستتلكأ الشابة أمام الباب قبل أن يلح عليها نور الدين بالدخول. وعبرت الممرات بخطى متمهلة بين أحواض الزهر والشجيرات، والنساء داخل البيت ينتظرنها. وحين وطأت الدار فاح في الجو عطر خفيف دافئ ما لبث أن صار في خلد وردة "عطر كاميليا".

بعد تلك الزيارة، سافر العروسان في رحلة كانت وردة تسمع بها أول مرة: شهر العسل الذى دام شهرين. في عودتها حملت لها كاميليا الكثير من الهدايا: ملابس. قبعات من القش للصيف، وأخرى من الجوخ للشتاء. إضافة إلى اللعبة التي تجاوزت فتنتها تصورات الخيال! هذه غير التي صنعتها لها خياطة سنية. هذه، بفستانها الطويل الفضفاض المزيّن بالدانتيل، وشعرها البنى المجدول في ضفيرتين، وعينيها اللامعتين، تبدو كما لو كانت طفلة من لحم ودم! كانت تلك أول لعبة تختار لها اسماً. الاسم الذى ضحك له أخوها نور الدين، "كلاوديا". تلفظه هى بغنج وبنطق أسباني سليم.

أعطتها زوجة أخيها اللعبة وانحنت تقبلها، فأحست بكيانها كله يتنشق عطر الشابة البديع. ورنت إليها منبهرة و كاميليا أيضاً ترنو إليها بانبهار. وردة مفتونة برؤية عروس ساقتها حكاية عجيبة من بلاد بعيدة، وكاميليا مأخوذة بالشبه الغريب بين أخت وأخ يكبرها بأكثر من ربع قرن! ما عينا الطفلة سوى نسخة لما سُحرت به منذ لقائها الأول بنور الدّين!

يوم انتقلت كاميليا إلى المنزل، والعمّال يحضرون الأمتعة، والعمّ جورجي يعطى التعليمات، وقفت وردة تتفرّج. أشياء كثيرة كانت تسمع بها للمرّة الأولى. بيانو. فونوغراف. أسطوانات. كما ولأول مرة كانت ترى امرأة تملك

هذا الكم من الكتب والمجلات . ودفاتر مملوءة الصفحات، وأغراض أخرى: صناديق مرصعة بالأصداف وأخرى مطعمة بالنحاس والعاج. وصندوق كبير من الخشب المحفور.

الصناديق على اختلافها ملأى بثياب فُصلت لقوام الشابة الأهيف، ستعلقها هذه فى الخزانة الموبيليا التى صنعها النجار بطرس خصيصاً لها: فساتين وتنانير واسعة طويلة مزينة بالدانتيل وقمصان مطرزة وأخرى مشكوكة بالخرز والكريستال. وأحذية ذات كعوب عالية وإكسسوارات وحقائب يد، وملاقط شعر، فضلاً عن قمصان النوم وثياب داخلية من حرائر يخفق لها القلب. مطرزات، ومشغولات آنية من الصين والهند وبلدان أوروبا. وزجاجات عطور صغيرة مرصوصة فى علب خاصة بها. زجاجات متماثلة الأشكال متنوّعة الألوان ومختومة بالشمع، يقال إن مَن حضّرها هو العم جورجيو نفسه. فقد أراد لعطر ابنته الوحيدة أن يكون مميّزاً عن عطر أى امرأة أخرى.

قبالة هذا "الجهاز" وقفت وردة منبهرة! لا عجب، فسيدات العائلة اللواتى عُرفن فى بيروت بحسن الذوق والملبس، انبهرن به! جهاز استغرق إعداده سنوات، ليعبر عن حب أب ابنته. عن رغبته، فى أن تدخل مسقط رأسه "بجهاز"، يفتن عائلة العريس الذى سيختاره لها. وما دار فى خلده أنّ القدر سيضع فى دربها رجلاً مثقفاً من علية القوم، لن يرفع شأنها فى نظره كثيراً أو قليلاً، ما ستُحضره معها إلى بيت الزوجية.

يوم اكتملت الترتيبات، جلست كاميليا إلى آلتها تعزف ووقفت وردة إلى جانبها تتفرج وتصغي. أنامل كاميليا رقيقة ناعمة تّعبْر مفاتيح سوداء وعاجية تتصاعد من ملمسها موسيقى عذبة . وتمنت وردة لو كان فى مقدورها هى أيضاً أن تعزف. وإذ سألتها كاميليا بالإسبانية شيئاً، فهمته على الفور وأومأت بالإيجاب. أجلستها على الكرسى الصغير وتركتها تدوس بأناملها المفاتيح. ثم شرعت فى تدريبها. كان ذلك أول درس لها فى البيانو

وأول عبارة تفهم معناها بالإسبانية. اللغة التى ستخلق بينها وبين زوجة أخيها عالماً خاصاً، تتدفق منه الحكايات والأحلام والصور. صور تُظهر كاميليا فى "بوينس آيرس". فى إحداها تستند إلى درابزين الحديقة وعلى رأسها قبعة واسعة. تساءلت وردة كثيراً عن مغزى هذه القبعة التى تزيّنها باقة زهر صغيرة، والتى ما من امرأة تعرفها فى الواقع تضعها على رأسها ولا حتى كاميليا نفسها؟!

رضيّة تزعم أن القبعة يلبسها الأجانب لترد عن رؤوسهم حرّ الشمس. لكن فتنة القبعة التى تلبسها كاميليا والتى تلقى ظلاً على جانب من وجهها، تتجاوز فى خيال وردة مسألة الشمس والحر والبحر، وتذهب بها إلى أبعد من هذا كله. لقبعة كاميليا سحر يفوق الاحتمال. مثل شيء يصعب الإمساك به. بل ويستحيل! استحالة يتساوى فيها الشوق والألم. استحالة الإمساك بعزمى إسماعيل وبوروان فى الصور. أو الإمساك بعطر كاميليا الذى ينفذ إلى روحها والذى تتمنّى لو كان فى وسعها امتلاكه ولو مرّة واحدة فى العمر.

★★★

يحزّ فى نفس نور الدين أن القرن العشرين، على وعوده، قد أنزل به من تلك الضربات ما يصعب احتماله أو نسيانه. فالواقعة التى جرت فى العصر الحميدى البغيض والتى سترافق روحه مدى العمر، شقتّ العائلة فى محورها ودفعته هو أيضاً إلى الهرب من لبنان بعيداً عن جواسيس "العين الخفية".

وردة، من ناحيتها، لم تسمع بالواقعة دفعة واحدة. بل تناهت فصولها إلى علمها عبر جمل متقاطعة، شأن الفاجعات التى عبثاً يحاول الكبار إخفاءها عن الصغار، فيجدون أنفسهم مندفعين سهواً للتحدّث بها، وهؤلاء متلهفين إلى الإصغاء. ورغم هذا تتمنى وردة لو يُمحى من رأسها ذكر ما جرى وكان لها من العمر بضع سنين.

أشيع فى المدينة أن حكماً بالإعدام صدر بحق بعض الأشقياء المتهمين بأفعال نهب وقتل. وذكرت الصحف أن تنفيذ الحكم بات وشيكاً. ونشرت أسماء المتهمين فى بيان صادر عن الوالى حول "هؤلاء المجرمين الذين يعيثون فساداً فى الأرض، ويهدّدون أمن السكان. أعدادهم تتزايد يوماً عن يوم. هؤلاء سيلاقون بئس المصير ليكونوا عبرة لكل من تسوّل له نفسه الإخلال بأمن السلطنة". من بين المتهمين لم تعرف وردة سوى واحد فقط: قريبها شوقي.

★★★

فى ليلة من ليالى تلك الحقبة الظلاميّة، سمعت مرام والدة شوقى زوجها فى الغرفة المجاورة يشهق بالبكاء. هبت من فراشها تسأله عما به فرأته يستعد للخروج. ما الذى يدعوه لمغادرة البيت فى مثل هذه الساعة والفجر لم يطلع بعد؟

– أرجوك يا مرام دعيني. قلبى يكاد ينفجر فى صدري.

- يا سيد الرجال، أفعل ما تشاء. إن كان الخروج يفرج شيئاً من الهم، فلم لا؟ لكن أين ستمشى والدنيا ظلام؟

- إلى الشاطئ. لا تقلقى سآخذ القنديل.

المرأة التي، منذ شهور، باتت الأحزان غذاءها وغذاء زوجها اليومي، امتثلت الطلب. راحت تشعل له القنديل فيما الهواجس التى لا تبارح فكرها تشكك فى كلامه. ولما عادت تبين لها أنه خرج. أسرعت إلى النافذة لتجد أنه بدل النزول إلى البحر، يسير فى الاتجاه المعاكس المؤدى إلى الساحة! وضرب برأسها السؤال الرهيب: ماذا يحضرون لابنها شوقي؟

الاحتمال أفقد الأم صوابها، فاندفعت تلحق بزوجها كاشفة الرأس حافية تصرخ بأعلى صوتها، تنادى الجيران أن يلحقوا بها. نداء أيقظ النائمين، فأسرعوا إلى النوافذ ليروا زوجة الأفندى صالح أبو شوقى تركض كاشفة حافية. فى هذا أمر لا ريب أمر خطير، أقلّه الجنون.

- وأكثره؟

- أبنها شوقي!

يقولها الناس ويسارعون إلى الخروج. النسوة قبل الرجال لبين نداء الأم. هُرعن إلى الساحة قبل أن يعلقوا الشاب الحر على حبل المشنقة. فقط لأنه جرؤ وكتب. نعم، واجه الوالى بما لا يقوى الكبار عليه. كيف لهذا أن يستهين بالأمر، وهيبته من هيبة السلطنة والسلطان؟

وتذكر وردة أن رضية، فى ظلام الليل، صحت من النوم مع من صحا. وأن سائر السيدات بدأن فى العتمة يلبسن تأهباً للخروج. وأن رجال البيوت الثلاثة أيضاً خرجوا. لم يبق سوى هى ومحمود ورضيّة. وهذه تروح وتجيء بين النافذة والفراش باكية تضرب صدرها وتردد: استر يارب، يارب أستر. سألتها وردة عما يحدث فطلبت رضية منها، ومن محمود، أن يرفعا أذرعهما إلى السماء ويدعوا الله أن ينقذ أبن خالهما شوقي: "يارب أنقذ شوقى أبن خالى من حبل المشنقة. يارب أنقذ يارب...".

وردة تعرف جيداً كلمة "الحبل"، إنما تعجز عن فهم كلمة "المشنقة". وإن كان معناها الفظيع يتراءى لها ليصيبها بألم فى الأحشاء، خاصة وأن محمود، لم يتمكن من ترديد العبارة إلا مرة واحدة، ارتمى بعدها فى الفراش ودس رأسه تحت المخدة وطفق يشهق فيما أسنانه تصطك وجسمه يرتعش تحت اللحاف.

كان هذا قبل أن ينهض راكضاً خارج الغرف ليتقيأ فى الدار

قبل أن يصل إلى الحمام. كانت رضيّة منشغلة بتنظيف المكان، حين غمرت وردة نفسها باللحاف ونامت، فيما مغزى الكلمة الرهيبة يتأرجح فى رأسها. وفى صباح اليوم التالى أفاقت لتجد أفراد العائلة يبكون. رجالاً ونساء يبكون ويتساءلون: أين هو الآن نور الدين؟

★★★

كان نور الدين فى الآستانة حين ألمح له رئيس الديوان أن أحد شباب بيروت متهم بإجراء اتصالات مع الفرنسيين لتشكيل جمعية سرية تناهض الدولة العثمانية. ولما سأل عن أسم الشاب، سمع الجواب الذى سيصيبه بالذهول. ما المتهم سوى أبن خاله شوقي!

ـ هذه وشاية، صاح، تهمة زور. هذا ابن خالي. أعرفه ولا لبس فى ولائه، لا للسلطنة ولا للسلطان.

ـ لكن، أبن خالك يا حضرة الأفندى بالغ فى طيشه. كان يحتاج لمن يسهر على أنشطته. الأخبار تؤكد اتصاله بالقنصلية الفرنسية وإيواءه الفارين من وجه العدالة.

ـ الفارين من وجه العدالة؟ مَن من هؤلاء الفارين تقصد؟

ـ بعض المسيحيين المناوئين للسلطنة والمتصلين بالدول الأوروبية.

ـ هل يمكن أن تفصح أكثر يا حضرة الباشا؟

ـ إن كنت مصراً على معرفة الاسم، فمن بين هؤلاء الخائن "بطرس الفاضل". أظنك تعرفه.

نور الدين، لسماعه الاسم ارتبك. فالذى ساعد بطرس الفاضل على الهرب هو لا شوقي. وبعد لحظة صمت قال:

ـ يا حضرة الباشا، ابن خالى لا شأن له ببطرس الفاضل، فهو لا يعرفه. بطرس كان زميلى فى المدرسة وقد جاء إليّ يوماً لأتوسط له لديكم لتبرئته من وشاية. ولفرط ما كان خائفاً طلب المبيت عندى فأذنت له. لم يكن متهماً ولا فاراً. وبعد مبيت ليلتين اعتذر وانصرف. ثم سمعت بعد ذلك أنه هرب إلى مصر. فما شأن شوقى بذلك؟

ـ نور الدين أفندي، نسيت أن تذكر أن الهارب لم يكن بمفرده. ثم قل لي... بعد أن غادرك الخائن مع ابنته الصغيرة، إلى أين تظنه توجه؟

ـ يا حضرة الباشا أفهم من كلامك أنك تحقق معي! تتجسسون على مستشار يؤدى عمله بأمانة.

ـ أمانة تجاه من؟

ـ تجاه الحق. لكن لا بأس... ما سمعته من الخواجة بطرس نفسه أنه كان سيقصد أحد الأديرة.

ـ وطبعاً لم يصل. الحكاية باتت معروفة. المتهم يلجأ إلى أحد الوجهاء المسلمين، ومن ثم إلى دير، وبعد أيام يراه الناس فى الإسكندرية أو نابولى أو مارسيليا. عجباً لم هؤلاء جميعاً قبل الهرب يمرون بأحدكم؟

ـ لأنهم لا يجدون من يحميهم ضد ظلم الولاة.

– هكذا إذن! عائلة اسماعيل صارت تأوى المتآمرين!

ـ لا بل تؤوى الخائفين.الرجل غريب. بعد عودته من المهجر وجد نفسه بلا عائلة فلجأ إلي. أنت تعرف القانون أكثر مني. تريدنى أن اعتبره خائناً وأثبت عليه التهمة وهو لم يمثل أمام قاض بعد؟

ـ لا. أريدك فقط أن تكون حذراً يا حضرة الأفندي.

حين وصل الجدل إلى هذا الحد، طلب نور الدين مقابلة الصدر الأعظم. وهذا أحسن لقاءه وأكد أنه سيسعى

لإنقاذ الشاب البرئ. قبل أن يصل نور الدين إلى بيروت كان الإعدام قد

نُفذ!

هزته الواقعة.

استبدلوا التركى بالعربي!

يقطعون رأس القط لإخافة النمر. كان الناس على حق: فى ترهات البطش يستبدلون القوى بالضعيف، والغنى بالفقير والمجرم بالبريء. وفى الانتقام يزجون بالحر مع الشقي! وأنت يا نور الدين، فيما هم يفعلون، كنت منشغلاً بتقديم الصورة الزاهية للسلطنة فى المحافل! على من كنت تكذب يا نور الدين؟ وكيف بعد اليوم ستجرؤ على النظر فى عينى خالك صالح؟

★★★

العقاب، ذاك النهار، أدّى إلى عكس مبتغاه. لحقت النسوة بالسيدة مرام. والرجال والشبان، بلا اتفاق اتجهوا إلى الساحة. حدس الأم هو الذى قادها إلى المكان، ولهفة الآخرين دفعتهم للحاق بها. المدينة تسترحم الوالي، لعله فى اللحظة الأخيرة يعفو. لعل بارقة عدل تُضاء. لعل قلب الظالم يرق قبل أن يلتفت الحبل حول عنق الشاب البريء.

لن يصل أحد من هؤلاء إلى قلب الساحة. فالعساكر ببنادقهم والخيالة بجيادهم سدوا المنافذ. الناس يصعدون إلى سطوح البيوت ويخرجون إلى الشرفات. خالة شوقى حاولت كسر الطوق والنفاذ إلى حيث نُصبت المشانق، لكن الجند صدوها، فصاحت لعنة الله على الظلم والظالمين. وردّد الجمع: لعنة الله على الظلم والظالمين. ومرام أيضاً حاولت كسر الطوق لكن العساكر أبعدوها كى لا ترى ما لا يجوز لأم أن تراه. أغمى عليها وحملوها إلى أحد البيوت. الأب رغم انهياره، صعد إلى سطح بيت قريب، وحيّا أبنه الذى سيتشهد بعد لحظات: إلى رحاب الجنة يا ولدي. إلى رحال الجنة يا حر يا بريء.

وشوقى هتف بأعلى صوته.

بريء. ليعلم الناس أنى بريء. فليسقط الظلم. إلى الجحيم يا وإلى

بيروت. إلى الجحيم أنت والسلطان عبد الحميد.

كانت تلك كلمات الوداع. علا بعدها صوت المؤذن فى الجامع العمرى بعبارة "الله أكبر". وضربت الأجراس فى كنيسة القديس جاورجيوس. ثم راحت مآذن المدينة تنادى الله أكبر، وأجراس الكنائس تقرع من أعالى الأشرفية إلى ساحة الحرية وباب إدريس حتى أطراف رأس بيروت. العويل فى محيط الساحة يختلط بالزغاريد، بالهتافات: آويها يا شوقى يا سيد الشباب. إلى الجحيم يا والى بيروت. إلى الجحيم أنت والسلطان عبد الحميد.

ولعلع الرصاص فى الفضاء، فيما استمر الهتاف الذى من شأنه أن يقود الرجال إلى المصير الماثل أمامهم. أصوات الرصاص وصراخ الجماهير هيجت الأحصنة فراحت تصهل رافعة قوائمها إلى الأعلى. وتمرد أحدها ورمى الضابط من على ظهره. والجند كثفوا إطلاق النار. وحين سدد قائدهم فوهة بندقيته إلى الرؤوس، بدأ الناس يفرّون متراجعين إلى الشوارع الداخلية. يتابعون الهتاف بسقوط الوالى والسلطان.

كان من شأن تلك الحادثة أن تضرم النار فى النفوس. من بيروت إلى القدس، ومن البقاع إلى دمشق وحلب. أخبار المظاهرات والاحتجاجات وصلت إلى مسامع السلطان. وما كان فى وسع هذا، والوضع دقيق ودول أوروبا تتربص، أن يطالب الوالى بمزيد من البطش. هكذا، تهدئة للنفوس، أمر بعزله.

نورالدين، بلا تردد قدم استقالته. بعد الاستقالة فقط صار يحق له زيارة خاله. راح إليه متهيباً خجلاً. انحنى ليلثم كفه. وقبل أن يتاح له شرف لثمها كان الخال قد سحب يده. تماسك نور الدين وجلس. ثم طلب مقابلة السيدة مرام وخاله أجاب:

- مرام مريضة ويستحيل عليها مقابلتك. وأنت كيف حالك يا نور الدين؟

سمعنا أنك وقت الحادثة كنت فى الآستانة وقابلت الصدر الأعظم؟

ـ صحيح. والصدر الأعظم طمأننى وأعطانى وعداً أكيداً بالعفو عن شوقي.

ـ غريب! تمتم الخال.

ـ فعلاً غريب. وأنا احتجاجاً على ما جرى قدمت استقالتي.

ـ وأنقذت روحك. حسناً لنفسك فعلت!

صدمته العبارة فتهالك على المقعد غير مصدق ما سمع. لابد أن يدافع عن نفسه! أن يقول شيئاً. أن يجلى الملابسات. لكن خاله نهض وغادر الدار إلى الداخل، وعاد حاملاً عريضة كبيرة من الورق الأبيض، لم يشك هو لحظة فى أنها عريضة التهم التى عُلقت على صدر شوقى عند تنفيذ الإعدام. بلا كلام، أشار خاله إلى إحداها: "إيواء الفار من العدالة المحكوم بالإعدام الخائن بطرس الفاضل".

فهم نور الدين القصد!

الأحداث المتقاطعة هذه جرت على نحو، وخاله يقرأها على نحو آخر. يلزمه قوة إلهية تقنع خاله ببراءته! يلزمه دهر من السنين... وسمع خاله يقول ساخراً:

ـ بارك الله بشهامة الرجال! خاصة من كان منهم على غير استعداد لدفع ثمنها!

نعم، طوال حياته سيحمل وزر ما حدث.

تحامل على نفسه ونهض، وفى نيته أن يعود. غداً وبعد غد. بل وفى كل يوم سيأتى ليشرح موقفه. رافقه خاله إلى باب الدار، وهناك طلب إليه أن لا يأتى إليهم ثانية، لا هو ولا أى من آل اسماعيل!

خرج مهزوماً. انكفأ على نفسه. وفى استقباله المعزين كان يمضى الوقت صامتاً، أشبه بميت حي، يحادث طيف شوقى وطيف خاله ويحاور نفسه: عائلة اسماعيل هذه باتت بلا مكانة ولا دور. الخلافة تتهاوى أكثر مما يخيل

إليه! كلما ضعف الحكام بالغوا فى البطش. وهو، أبن العمة بات منشطر الروح. نصفه التركى مسئول عما حدث لنصفه العربي. ليس وحده من سيحمل الوزر. أخوه اليافع نظمى سيحمله أيضاً. بات من المستحيل أن يزوجه خاله صالح الحفيدة التى وعده بها. حتى وإن كانت ستبقى بلا زواج، لن يعطها لابن الأتراك نظمي. هكذا وبصورة نهائية تمت القطيعة. والملامة التى قرأها نور الدين فى عينى خاله صار يقرأها فى عينى أخيه حين يلقاه. يشيح نظمى بنظره أو يسارع إلى الانسحاب. وخطر له أن يفاتحه بالمسألة لكن أخاه يتهرب. وفى اللقاء الأخير انتهز الفرصة وقال:

ـ أفهم حزنك يا أخي، ولعل الخال بمرور الوقت سيهدأ، وتعود الأمور بينكما إلى مجراها.

ـ لا أظنها ستعود.

ـ ألهذا الحد جعلك اليأس تتخلّى؟

ـ أنا لم أتخلَّ. أخى هو الذى فعل ذلك.

ـ أخوك؟

ـ نعم. المستشار تخلّى عن أبن خاله.

ـ حتى أنت يا بروتوس؟!

ـ نعم. بروتس، أخوك الأصغر، الذى أغفلت حسابه، يريد أن يُعلمك شيئاً آخر.

ـ تفضل.

ـ يجب أن تعلم أنى أنا أيضاً تخليت.

ـ تخليت؟

ـ نعم. منذ تلك الحادثة، تخليت وإلى آخر العمر عن ولائى العثماني.

ـ أكاد لا أصدق ما أسمع!

ـ وأنا أيضاً لم أصدق أشياء كثيرة سمعت بها.

ـ لكنك عدت وصدقت.

ـ نعم صدقت.

ـ إذن قل لخالك إنك تخليت؟

ـ قلت له فلم يصدقني.

ـ كلنا يا أخى فى المحنة متساوون، فلا أحد منا بات يصدق أحداً.

ووجد نفسه يتمتم: حين تقع العروش تنفض من حولها النفوس. وقال لأخيه:

ـ حسناً! قل لعزمى اسماعيل أنك تخليت.

ـ رحم الله الوالد؟

نعم، أقرب الناس إليه يصدق الأقاويل! ماذا فى وسعه أن يفعل؟

ووجد بعض العزاء فى التعبير. كتب مقالة مؤثرة عما حدث عنوانها: "إعدام ثلاثة جياع ومثقف". نشر المقالة باللغة التركية فى صحيفة معارضة فى اسطنبول، وبالعربية فى "لسان حال". وصار يكتب ويحذر الباب العالى من خطر التفكك إذا ما تمادت الحكومة فى سياسة البطش الذى جاوزت أخباره بلدان العالم.

جرأة مقالاته جعلت والى بيروت يوقف الصحيفة أسبوعين، ووضعت نور الدين فى دائرة الضوء، مكشوفاً لجواسيس "العين الخفية". ونصحه المقربون بالسفر. وبعد تفكير فضل الذهاب إلى مصر. ودُعى أكثر من مرة إلى الآستانة فاعتذر. اعتذر عن قبول أى منصب، فى زمن ترتبط به المسئولية بالقتل. فليس هو الأهل للحكم على الأرواح. ولا أحد فى الدنيا أهل لذاك. ارتكاب ما حرمته أديان السماء: القتل. "لا تقتل". " لا تقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق". وهيهات لعقل الإنسان القاصر المورّط بالشهوات وسلطان المجد والمال... هيهات له أن يبلغ جوهر الحق.

وتقرّب من اللبنانيين الهاربين وصار يتردد إلى مجالسهم ومجالس المفكرين والرواد. وغدا مقصوداً من كل باحث عن خفايا ما يجرى فى البلاد. وهناك التقى الشيخ محمد عبدو وغيره من النهوضيين. وفى رحلة له إلى باريس التقى أعظم شعراء عصره: أحمد شوقى.

★★★

منذ دخولها المدرسة، أبدت وردة شاه شغفاً بدروسها وميلاً للإتقان بلغ حد الهوس. وغدت مثالاً للداراسات، لم يعكر صفاءه طوال أعوام سوى تلك الحادثة الغريبة التى جرت بينها وبين زميلتها "أسماء". الحادثة التى على أثرها طُردت الفتاة النجيبة من المدرسة.

لا أحد، فى البدء، تمكّن من فهم ما جرى. كاميليا ورضيّة حاولتا معرفة السبب، فلم تلقيا من وردة جواباً سوى دموع تلمع فى العينين، وشهقات تقف فى الحنجرة، وغضب ترتعش له شفتاها ويُترجم بجملة واحدة: هذه الشريرة، التى تأبى أن تلفظ اسمها، ستبقى عدوتها مدى الحياة. مدى الحياة لن تلفظ اسماً صار من المنجسات!

جل ما تمكنت العائلة والإدارة من معرفته أن "أسماء" عيّرت وردة بمسألة ما، وأن التعبير أفقدها صوابها، فما كان منها إلا أن بصقت بوجهها وهجمت عليها هجوم نمرة استفزت. وقبل أن تتمكن "أسماء" من اتخاذ استحكامات الدفاع، كانت وردة، يساعدها طول قامتها فى السيطرة على الموقف، قد سحبت عدوتها من شعرها وكادت تهوى برأسها إلى الأرض، لولا أن "نبيهة" و "روز ميري" تدخلتا لتفرقا بين البنتين المتنازعتين. لكن "إكرام" اندفعت تنتصر لوردة التى لها فضل كبير عليها! فمنذ بضعة أشهر وهذه تكتب لها مواضيع الإنشاء مجاناً! إكرام لا تعرف أن الإعفاء من "الرسوم" إنما تم بفضل نور الدين. حين علم الأخ بالمورد المالى الإضافى لأخته أنّبها، وأفهمها أنها تغش مرتين: مرة لأنها تكتب بالنيابة عن زميلتها، ومرة لأنها تفعل ذلك لقاء المال.

- "من الآن فصاعداً سأكتب لك مواضيع الإنشاء مجاناً"، قالت وردة لإكرام:

كيف لن تتدخل هذه لنصرتها؟

وفى لحظة التحكم بالموقف، تناولت وردة المحبرة ورشت ماءها على رأس

"أسماء" مما جعل نبيهة وروز ميرى تفران، وهذه تتجه إلى الحمام لغسل رأسها، ومن ثم إلى الإدارة للشكوى. على الرغم من تدخل نور الدين وتعهد كاميليا، طُردت وردة من المدرسة. لازمت البيت أسبوعين. ولولا الصديقة الوفية إكرام لما أعيدت إليها ولما فهم أحد سبب ما جرى.

حين تأكد لتلك إصرار مسز سكوت على طرد وردة شاه، طلبت مقابلتها. وراحت تخبر المديرة ملابسات الحكاية. وبين لغتين نطقت بهما المحامية الصغيرة، وحماسة بالغة لإنقاذ زميلتها، لم تفهم مسز سكوت من الحكاية شيئاً: هناك احتفال كبير ورحلة فى الترامواي. وهذه مسألة معروفة. وهناك وردة شاه وثياب اشترتها لها كاميليا من سوق الطويلة. مفهوم. وهناك أميرة اسبانية وقبعة وشمسية من الدانتيل حاولت المتحزبات لأسماء انتزاعها.

عجباً!

فالمديرة لا تتذكر أن أى أميرة، اسبانية أم غير أسبانية، حضرت ذاك اليوم الاحتفال. وإذ بدت لها الحكاية أشبه بمغامرات ساندريلا منها بدفاع تلميذة عن زميلة لها، التفتت إلى الناظرة يُسرى. وهذه بدورها طلبت من إكرام أن تخبرها الحكاية ثانية، بهدوء وباللغة العربية. وهكذا اتضح أن كل ما جرى كان سببه تدشين الترامواي.

كانت المدرسة قد قررت أن تأخذ تلميذاتها، إلى الافتتاح المهيب الذى سيحضره رئيس البلدية وأعضاؤها، إضافة إلى وجهاء المدينة. وسيحضره بالطبع ممثلو الشركة الفرنسية التى نفّذت المشروع والمهندسون الألمان الموجودون فى بيروت لإقامة مشاريع أخرى. فضلاً عن حضور والى الشام وممثل السلطان نفسه الذى جاء من اسطنبول خصيصاً لذلك. فى خطبته أشاد الزائر المهيب بمن كان له الفضل الأكبر فى نهضة بيروت: سليم باشا. خلال مأدبة الغداء، انتهزت مسز سكوت الفرصة لتخبره أن حفيدة سليم باشا هى من تلميذاتها اللامعات. وإذ أبدى الزائر اهتماماً، استدعت المديرة

وردة لتسلّم عليه. فى اليوم التالي، كانت رحلة الترامواي. وبتلك المناسبة، حررت إدارة المدرسة التلميذات من الزى الموحد وسمحت لهن أن يلبسن الثياب المفضلة لديهن، على أن يحملن علم المدرسة ويلوحن به من النوافذ تحية للجماهير.

لحظة أقبلت وردة بقبعتها وملابسها "الإيكوسية" ، و"السكربينة" اللماعة السوداء ذات الربطة الجانبية والزّر، اشتعلت الغيرة فى قلب أسماء. كيف ستبدو تلك أمام الوجهاء والأجانب أفضل منها؟ بل لكأنها واحدة منهم؟ وكيف يأتى ممثل السلطان على ذكر جدها دون غيره من وجهاء المدينة؟ وكيف تستدعيها المديرة دون غيرها لتسلم عليه؟

راحت أسماء إليها وسألتها:

- من أحضر لك الملابس والقبعة؟
- "كاميليا".
- من ألبسك إياها؟
- ماما رضيّة.
- ومن ضفر جدائلك؟
- ماما رضيّة.
- ماما رضيّة؟
- نعم.
- كذابة.

قالت هذا، ثم انتحت بصديقاتها نبيهة وروز ميرى وسعدى وأسرت لهن بشيء ورحن يضحكن ويتهامسن: كذابة! أمها ليست رضيّة. فهى لا أم لها!

وحاولت روز ميرى ان تنزع القبعة عن رأس وردة، وأن تخطف أسماء الشمسية من يدها. وقهقهن فيما سعدى الغيورة تقول: "ومن تظن نفسها، أميرة أسبانية؟"

تلك كانت الحادثة الوحيدة التى شذت عن سلوك وردة ونبهت الدراسات

إلى ما يمكن أن يبدر عن هذه الفتاة الوديعة الناحلة إذا ما عُيّرت بتلك المسألة. وردة، لفترة طويلة، لم تغفر لأخيها موقفه: أن يُضطرها للتصالح مع عدوتها، ويطلب إليها أن تلفظ اسمها وتقلع عن فكرة النجاسة والطهارة. لم يدر أن تلك الشريرة عيّرتها بما لا يجرؤ أحد في الدنيا على تعييرها به: وفاة ذويها: بوران وعزمي إسماعيل.

فى مهب الغرق

لن يخطر فى بال كاميليا أن أحداً من آل إسماعيل يعرف تفاصيل حياتها فى الأرجنتين، أو شيئاً عن رحلتها إلى مارسيليا. فهى أكثر حياء من أن تتحدث بذلك. وبطبيعة الحال لا يمكن لزوجها أن يفعل. جلّ ما يعرفه هؤلاء، أن نور الدين أحبها وهى مالت إليه وحين طلب يدها لتكون زوجته قبلت رغم معارضة أبيها. غير أنها، بعد مرور سنوات على زواجها، ستكتشف كاميليا أن هناك من عرف أشياء وأشياء عن حياتها السابقة على انضمامها إلى آل اسماعيل.

وردة أيضاً، كان يخجلها أن تسأل زوجة أخيها عن أشياء، مثل مرض أمها مارتا، وخطبتها لشكرى التى دامت سنوات وانتهت إلى لا شيء. فكيف لو كان السؤال يتعلق بالحب الذى نشأ بينها وبين نور الدين على سطح الباخرة؟! لأمد طويل ظلّت هذه القصة تطارد خيالها. وعندما بدأت تكتب يومياتها وهى فى الخامسة عشرة من عمرها، ورغم انشغالها بالحب الذى أخذ عليها روحها، ملأت وردة صفحات كثيرة تتعلق بحكاية الغرام تلك. ولعل كلمة غرام لم تكن موجودة فى قاموس فتاة مثلها، ولا فى القواميس المعلنة لكبيرات السن فى محيطها. ولا كلمة "عشق" الأفظع منها. اللهم سوى أن تكون قد ذُكرت همساً والتقطتها أذنها. فأكثر ما يمكن قوله فى وسط عائلى محترم، هو كلمة "محبة". أما الكلمات الأخرى المخلة بالحشمة فكانت وقفاً على ألسنة الرجال، والهامشيين منهم بشكل خاص. يسوقونها فى أجوائهم غير البريئة. مثل بيوت "العالمات" التى يرتادونها، وأمام خليلة وقعوا فى هواها. أو فى المقاهى التى بدأ انتشارها وشدّة إقبال الشبان

عليها يُزعج نور الدين.

لعل وردة لم تسمع بهذه الكلمة فى حياتها الواقعية. ولا حتى فى المدرسة حيث يمكن لبعض الفتيات المتمردات أن يعبثن بالكلام! لكن خيالها المتعطش، لابد وأن صوّر لها، ولو بشكل غامض، محنة العشق التى مر بها أخوها والتى لم ينقذه منها سوى تضحية زوجته سنية والتوسل إليه للزواج بمن شغفت بها روحه. وردة، مهما زعمت نساء العائلة، لا تقيم وزناً لتضحية سنية. إذ تبدو لها كمن يهب شيئاً لا يملكه.

وحدها كاميليا تملكه.

وحدها من بينهن عرفت الحب الذى يمنح أهله مذاقاً لا يعادله فى الدنيا مذاق. الحب الذى دفعها إلى البحث عن دفاتر المحبوبة كاميليا. منذ أن خطرت لها الفكرة بات من الصعب عليها أن تقاوم. وظلت تبحث إلى أن عثرت على الدفاتر مرصوصة فى قعر الصندوق.

كانت الدفاتر قد شدت انتباهها منذ قدوم كاميليا إلى البيت. فى البدء ظنتها كراريس مدرسية تحتفظ بها العروس الشابة على سبيل الذكرى. وحيث أشارت كاميليا ذات مرة، إلى "يوميات" درجت على كتابتها فى المساء، تناهت لوردة رائحة الأسرار وتشوقت لقراءتها. وتساءلت إذا كان ما ستفعله يُعتبر سرقة. لا. فى خلدها أنها تستعير الدفاتر خلسة، فتقرأها لتعيدها إلى مكانها وتستعير غيرها، على غفلة من صاحبتها. الأمر الوحيد الذى تنبهت إليه كاميليا هو تقدم وردة فى اللغة الأسبانية. فى حينه، ازدادت إعجاباً بها وبشرت نور الدين. وصارت تعيرها بعض الكتب والمجلات الأسبانية. وكذلك صار يفعل العم جورجيو. كان حين ينزل من الجبل يمضى وقتاً طويلاً فى المطالعة مع وردة. كما أوصى أحد المسافرين فأحضر لها قاموساً باللغتين الإنكليزية والإسبانية.

حين أتمت الخامسة عشرة، كانت وردة شاه قد أنهت قراءة الدفاتر. وفى عبورها فصول الرحلة بين الارجنتين وفرنسا وصولاً إلى بيروت، كانت قد

أتقنت لغة كاميليا، وغدت متحضرة تماماً لكتابة اليوميات التى حفظت بعض مقاطعها عن ظهر قلب. وكان الهدف الذى سعى إليه نور الدين قد تحقق! فأخته برعت فى ما كان يخطط لها أن تبرع فيه! لا تنقصها جماليات العبارة ولا شغف المعايشة لتكتب عن حكاية جرت فى باخرة تفوق مساحتها بيوت آل إسماعيل الثلاثة وحدائقها. تزحف على سطح الماء حاملة مسافرين جاءوا من أطراف الدنيا. مسافرون كادوا، لولا رحمة القدر، أن يقضوا غرقاً جميعاً، ومن بين هؤلاء نور الدين وكاميليا.

★★★

فى إحدى رحلاته، التقى نور الدين فى مارسيليا، الفتاة وأباها العائدين من الارجنتين إلى لبنان. وهو، ما كان سيعير هذا اللقاء العابر فى الفندق أية أهمية لولا أن الصبية تشبه فتاة أخرى رآها لا يذكر أين، إنما من المؤكد أن تلك تركت أثراً قوياً فى نفسه!

وفى المساء خرج كعادته يتمشى فى شوارع المدينة. ووجد نفسه يتساءل عن هذه الفتاة وأبيها اللذين سمعهما يتحادثان بالإسبانية. وبالعربية أحياناً، بلهجة ذكرته باللجهات السائدة فى جبال لبنان. وسمعه يناديها: كلاوديا. وهى تجيبه: بابا جورجيو. واضح أنها تفهم لغة أبيها وإن كانت تتكلمها بلكنة أجنبية وكلمات مكسرة. مهاجر يعود إلى وطنه مع ابنته، كما بات يحدث لبعض الميسورين، حين تبلغ فتياتهم سن الزواج. ترى، أين سبق له أن رأى شبيهتها؟!

واستغرب هو نفسه اهتمامه بالعثور على الجواب! صحيح أن الفتاة ذات جمال أخاذ، إنما هذه ليست أول مرة يقابل فيها شابة جميلة فى رحلاته الكثيرة بين أسبانيا وأوروبا.

وبعد أيام، التقى فى البهو والد الشابة، وكان برفقة "جان جاك رو" صاحب الفندق. بادر هذا الأخير وسلّم وأجرى التعارف بين الرجلين. وفى اليوم التالى غادر نور الدين الفندق وركب الباخرة المتجهة إلى بيروت، ظناً

منه أن ذاك التعارف كان اللقاء الأول والأخير. وكانت مفاجأته الأولى، أن يلمح من قمرة الكابين، الفتاة وأباها يقفان مع المسافرين. بعيد دخولهما الباخرة غابا عن ناظريه. وجلس هو فى البهو يقرأ. وما لبث أن تناهى إلى حسه عطر خفيف يشبه عطر الفتاة تلك. التفت فانحنى الأب يحييه.

وردّ هو التحية بأجمل منها، فيما ألقت عليه الشابة نظرة خاطفة، فيها من الحياء قدر ما فيها من فضول. وعطرها بعيد مرورها ترك أثراً ناعماً كما لزهر طبيعي. وداخله شعور بأن الرحلة، بوجود هذه الشابة وأبيها ستكون أكثر بهجة مما كان يتوقع. ثم، وبعد ذلك، تجاوزت الملابسات كل تصور، لتؤكد له أن الأقدار دبرت لهما، هو وهى هذا اللقاء. لا لشيء إلا لرغبتها فى مداعبة أبن آدم واختبار صلابته فى منعطفات العمر وتقلبات الظروف.

أبحرت الباخرة من مرفأ مرسيليا عند الثانية بعد الظهر. وفى المساء، أثناء تناوله العشاء، رأى نور الدين الرجل قادماً، إنما هذه المرّة، بمفرده. نهض وسلم عليه ودعاه إلى طاولته، وهذا بلا تردد لبى الدعوة. وهكذا فى مكان استثنائي، ومناخ صيفى يُغرى أكثر الناس تحجراً بالاستسلام إلى دفق المشاعر، جلس الرجلان يتناولان العشاء ويتبادلان الأحاديث، فيما كل منهما منشغل بأفكاره. المهاجر يخطط لعودة مع ابنته إلى أرض الوطن. ونور الدين يأمل أن تنضم هذه إليهما، لتأنس وإياهما بهذا الليل الخلاب. النجوم تلمع فى السماء غاوية رشيقة. البحر ساكن سوى من موجات صغيرات تهدهد السفينة . نجمة الشمال تحدق بالمسافرين. وسمع نور الدين والد الفتاة يقول:

ـ الإنسان، مهما ابتعد تبقى النجوم رفيقة دربه.

كلام فيلسوف!

ماذا يفعل هذا الرجل فى الحياة يا ترى؟ وقبل أن يتسنى له سؤال جليسه عن أى شيء، حدث ما لم يكن فى الحسبان! قطع مكبر الصوت

صفا ، الجلسة ليذيع بالفرنسية أشياء! ورغم أن جورجيو فهم تماماً ما أُذيع إلا أنه سأل بلهفة:

ـ ماذا يقولون؟ ماذا يقولون؟

ـ يقولون؟ عجباً... يقولون إن الباخرة لسبب طارئ ستعود أدراجها إلى ميناء مارسيليا.

ـ يا إله السموات!

قال الرجل هذا ونهض، فيما نور الدين يحاول أن يطمئنه.

ـ ليس خوفى على نفسى بل على ابنتي، قال جورجيو.

ـ اذهب إليها. وسأذهب أنا إلى قمرة القيادة لاستفسر.

القبطان، رغم انشغاله، بدا مستعداً لطمأنة المستشار. لكن المشكلة يا سيدي، أنه أمامنا أكثر من ست ساعات إبحار فى باخرة يهدد عطلها بأعطال أخرى. نحن فى سباق مع الوقت. ومثلك أتمنى أن تنتهى الرحلة على خير ونتبادل التهانى بالسلامة فى أرض المرفأ.

نور الدين لم يفقد الأمل. إنما، فى لحظات خاطفة وكافية لتسرب الأفكار العبثية إلى سطح الوعي، رهبة كبيرة كان تستولى على روحه . من تلك التى تذكر أبن آدم بترهات الحياة وجهله بما يخبئ له القدر، كأن يشهد نهاية حياته على نحو مأسوي. فالباخرة وسكانها هى الآن فى رحمة قوى لا سلطة لأحد عليها. رحمة أهواء البحر والريح والسماء وأهواء المصادفات. عدا تلك اللحظات الرهيبة، كان يخامره شعور بأن وعداً إلهياً بالنجاة قد أُعطى لهؤلاء المسافرين وهو من بينهم. المحنة ستنقضى والباخرة ستصل إلى شاطئ الأمان، وسيتبادل المسافرون التهانى التى تمناها القبطان. يتبادلونها على الرصيف ذاته الذى غادروه بالأمس.

عند الفجر، فتح صاحب الفندق عينين واسعتين لرؤيته المسافرين الثلاثة عائدين ولم يمضِ على مغادرتهم الفندق إلا ساعات! سينزلون ثانية لديه لحين استبدال الباخرة المعطلة بأخرى أبحرت من ميناء نيويورك ولا تزال فى

عرض المحيط.

- متى تصل؟

- بالتأكيد بعد أسبوعين أو ثلاثة.

★★★

كان نور الدين، مستعجلاً العودة إلى بيروت، إلا أنه استعذب البقاء. لطالما أغراه صديقه جان جاك بزيارة معالم المدينة وما من مرة وجد الوقت الكافي ليفعل. وجورجيو، بعد اطمئنانه إلى النجاة، استعذب هو أيضاً تجديد الإقامة في الفندق. يخامره ذاك الشعور بأن القدر الذي يُعنى بالطيبين من أبنائه، قد وضع في دربه هذا الرجل إبان ظرف هو في أمس الحاجة به لأمثاله. نعم، فهو لم يكن أقل منه فضولاً واندفاعاً لتوثيق الصلة. حتى أن الشابة نفسها صارت تلاحظ ذلك. فوالدها يوحي لها أن تلبس "بعضاً من قطع جهازها"! أمر قلما كان يحدث في السنتين الأخيرتين في بونس آيريس. وإزاء دهشتها شرح لها أبوها القصد: الباخرة، يا ابنتي، كما الفندق، هي أولى المحطات التي يعبرها الناس في سفرهم إلى المكان المنشود. كثيرون تغيرت مصائرهم في محطات مثل هذه. لذا، فمن الحكمة أن يبدو الإنسان في رحلاته على أفضل صورة يمكنه أن يقدمها عن نفسه للآخرين. وبرهاناً على رأيه الحكيم ذكرها جورجيو بصداقته مع صاحب الفندق وكيف بدأت في الارجنتين.

الصبية التي فهمت بصورة غائمة موقف أبيها، لم تتمكن من الإمساك بجوهر السبب الذي يدعوه لاتخاذه. لكن حدسها ينبئها بأن انشغال أبيها بأن تبدو ويبدو هو أيضاً في أفضل حال، له علاقة بالرجل الأنيق الوسيم الذي تعارفا به. الرجل الذي، في نزولهم من الباخرة، ساعدهم في تدبير شؤونهم: أمر بإحضار العربات وكلف الحمالين نقل أمتعتهم من الباخرة إلى الفندق. ترى، ما الذي يبغيه والدها من هذا المسافر؟

لا تدري!

وإن كانت الأيام ستؤكد للجميع على أن العبارة التى قالها الأب بشأن الرحلات ومحطاتها لم تكن بليغة وحسب، إنما كانت أشبه ببوصلة سحرية قادت المسافرين الثلاثة إلى مصائر لم يخطر لأى منهم آنذاك إمكانية بلوغها.

★★★

المهاجر اللبنانى الذى صقلت الأعمال التجارية فى الارجنتين موهبته فى التعامل الاجتماعي، لم يفته منذ قدومه إلى الفندق، أن يلاحظ رجلاً أنيقاً يقيم فى جناح خاص ويزوره أشخاص لا يقلون عنه أناقة وهيبة. حين ينزل إلى البهو يسارع كبير الموظفين، بل ومسيو جان جاك نفسه، للترحيب به وسؤاله وضيوفه عما يريدون. هو أيضاً من ناحيته، ما كان ليولى اهتماماً خاصاً بهذا الرجل لولا أنه سمعه يتكلم العربية مع زائر أقبل عليه مرحباً بالعبارات التقليدية، وبلهجة أقرب ما تكون إلى لهجات بلاد الشام. ثم حين جرى التعارف بينهما تأكد ظنه بأن الرجل من بيروت. من يكون هذا يا ترى؟ وماذا يفعل على وجه التحديد؟

إنه من كبار مستشارى وزارة الخارجية العثمانية، قال له جان جاك : "رجل من علية القوم، درس فى اسطنبول والنمسا، يتقن الألمانية ويتكلم فرنسية رفيعة. إنه من نُدرة المثقفين اطلع على أمهات الكتب فى الآداب العالمية والفلسفات، القديم منها والحديث:

ـ يا صديقى جورجيو، لكم تذيب الثقافة الفوارق! رجل كهذا يُشعرك بأنه مثلك. وأنه يمكن لشعوب الأرض أن تغدو واحدة. المستشار هذا يعيد إليك بعض الثقة بالإمبراطورية المريضة. إن كان لديها الكثيرون من أمثاله، فقد يمكنها ثانية النهوض".

ـ لهذا الحد!

ـ نعم. وأنت يا صديقى جورجيو قل لي، ما أخبارك؟ وما هى مشاريعك فى أرض الوطن؟

تنهد جورجيو وقال:

ـ يا صديقي، أعود إلى وطن غادرته قبل خمسة وثلاثين عاماً، كسائر فى حقل زئبق. لا أعرف ماذا آلت إليه الحياة هناك؟

ـ لا تشغل بالك، الحياة كريمة والفرص تأتينا من حيث لا نتوقع. حسناً الآن خطرت لى فكرة. سأعمل على توثيق صلتك بهذا المستشار. اتصالاته واسعة. ولعائلته أعمال أكثر منها سعة، لن تضيق بمواهب رجل مثلك.

فى ظروف أخرى، كان جورجيو سيخجل من التودد لأحد على هذا النحو الانتهازي. لكن عندما يكون للمسألة علاقة بابنته، فهذا شأن آخر. منذ أن دخلت كلاوديا سن المراهقة أيقن أنه سيكون وحده مسئولاً عنها. وليس غريباً حين يزوره ملاك الموت أن تكون وحدها ممسكة بيده. ثم وبعد أن جرى لها ما جرى مع خطيبها... وأصيبت بالصدمة التى كادت تكون قاتلة، صار له الحق، كل الحق، بأن يغدو انتهازياً. لا، لن يدع أبنته تغرق فى المحنة التى لغطت بها عائلة "شكري". أى الآلام ذاقت هذه الفتاة المرهفة حين لاكت الألسن حكاية أمها، لتزعم أن الابنة لابد أن تسير على خطى من أولدتها لتنتهى مثلها فى عالم المجانين؟ الاحتمال الرهيب الذى جعله يصغى لنصيحة الطبيب ويرحل. فالصبية بعد أن توارى خطيبها لاذت بأعماق ذاتها. امتنعت عن الكلام والطعام. هكذا باع كل شيء وصعد مع وحيدته إلى الباخرة.

غير أنه طوال الرحلة من بوينس آيريس إلى مارسيليا وهو يجرى الحسابات: ما أحضر معه من مال غير قليل. لكنه غير كاف ليمضى بقية حياته بلا عمل، ويدخر منه قسطاً دسماً لزواج كلاوديا. زواج يسعدها ويشفى الجرح الذى ضربها فى الصميم بسبب نذل توارى عن المدينة قبل الخطبة بأيام. لكن الأحلام لا تتحقق لمجرد أننا نحلم بها. عليه أن يدخل قوياً مرفوع الرأس هذا القادم مع ابنته من بلاد الاغتراب. عليه أن يفتح بيتاً ويغدق. سيأتون ليروا ما أحضرت معها من "جهاز". ويخمنوا قيمة الدوطة

التى ستضيفها إلى مال زوجها. من كان له غرض من زيارته أم من لم يكن. كلهم سيأتون ولو للفرجة أو التلذذ بالسماع. إذ يخيل لهؤلاء أن كل مغترب عائد من وراء البحار يرجع حاملاً معه الثروات. وما دار فى خلدهم أن بعض المغتربين لا يجد فى المهجر اللقمة النظيفة التى كان يجنيها فى أرض بلاده.

★★★

نور الدين، كما لاحظ هو نفسه، بات ينفعل للقاء الشابة! وينتظر بفارغ الصبر ظهورها، أو حتى ظهور أبيها بمفرده. يا للعجب أن يغدو مراهقاً وهو فى الأربعين. ينجذب إلى شابة لا يعرف عنها شيئاً. ولعلّ كلمة "انجذاب" لم تعد كافية لوصف ما بات يشعر به نحوها! ما الذى تبغيه يا نور الدين من هذه الشابة الصغيرة؟

لا شيء. ترهات طيش يلم بالرجال وهم فى طريقهم إلى الكهولة. لطالما سمع بقصص مثل هذه تُحكى عن رجال تتخلى عنهم قوة الإرادة. لكن لا. ليس هو من أولئك. وما تلك سوى مشاعر اقتحمت وحدة مسافر، ولن تلبث أن تتوارى حيث يصل هذا إلى مكانه الأصلي. مثلما ونحن مستغرقون فى النوم تقتحمنا أحلام لا تلبث أن تتبدد لحظة اليقظة!

مطمئناً لهذه النتيجة، اتخذ نور الدين قراراً قاطعاً بفصل أحلام تعابث خياله، عن واقع يتحكم هو بمقاليده. استعاد ثقته بسلوكه وحريته فى التعامل مع المهاجر وابنته، أو التحادث بشأنهما مع صديقة جاك رو.

كلا الرجلين، وجد فى تأخر الرحلة، تدخلاً خارجاً عن إرداته شاءه القدر إمعاناً فى إذكاء أحلام لا يتحمل هو مسؤوليتها. الظروف هى التى تدفع فى طريق ما، يراه نور الدين شاقاً غير آمن، فيما يعتبره جورجيو درب الأمان. استرخى واستعاد طبعه المرح. وانعكس مزاجه على جلساته مع صديقيه حتى غدا نديماً مميزاً يسعيان إليه. فى هذه الفترة الاستثنائية، يمكن القول إن العائدين إلى الوطن، قد وقعا فى سوء تفاهم فريد! وإنه إذا ما أتيح لهما

أن يستسلما إلى ترهات الأحلام ويطيرا على أجنحتها إلى أقصى حد متاح لها فى عالم الواقع، لاعتبر كل منهما أن لقاءاته تلك تتصف بخصوصية بالغة! فالمستشار يتسامر مع والد صبية فُتن بها منذ اللقاء الأول. وهو يكتفى بذلك! أما جورجيو فهو الآن يوطد صلته بشخص نافذ سيقدم له الدعم - أو فرصة العمل- فى أرض الوطن. شخص له فى السياسة والرياسة كما يقولون، لن يضيق بصديق جديد مر وإياه بواحدة من تلك الكوارث التى كادت تودى بهما لولا تدخل القدر. تجربة مثل هذه ستُسجل كل منهما وإلى آخر العمر، فى ذاكرة الآخر.

أما صاحب الفندق، فالمسافة التى تفصله عن أحلام صديقيه جعلت منه قارئاً ممتازاً لها. حين دخل عليه المسافرون الثلاثة عند الفجر تراءى له المستحيل فى صيرورته إلى الممكن: إنه دخول عائلة واحدة تبدأ معاً مشوار حياتها.

تحقيق الحلم، بالنسبة لجورجيو، ورغم التوتر، يستدعى انتظاراً لا يخلو من العذوبة ولا ينكده الإحساس بالذنب الذى ينغص على نور الدين أحلامه. مشكلة المهاجر لا تصب فى تلك الدائرة الصعبة. مشكلته، هى فقط مع التوقعات، ومدى استجابة جليسه للمشاريع المفترضة التى لا يكف هو عن رسمها وإعادة رسمها فى خياله. مشاريع جعلته يصم أذنيه عن العرض السخى الذى يقدمه له جاك رو: يا صديقى إبقَ فى فرنسا. أعرض عليك ما لم أعرضه على أحد من قبل. نعم، يغريه بأن يغدو شريكاً، ويفتحا معاً فندقاً آخر يستلم هو مسؤوليته. لكن شيئاً أقوى منه يجذبه للعودة إلى مسقط رأسه.

بمرور الوقت، صار جورجيو يستمتع بالتسامر مع المستشار وصاحب الفندق خارج توقعاته النفعية. ولولا قلقه على كلاوديا من شدة انصرافه عنها، لصار يمضى أوقات فراغه كلها مع هذين الصديقين الظريفين. يستمتعان بأحاديثه وينفعلان بالحكايات التى يقصها عليهما. لا ريب فى

أنهما قرأ أشياء عن تاريخ لبنان. عن أول جمهورية نادى بها فلاح لبنانى شجاع، يُدعى "طانيوس شاهين"، تأثر بأفكار الثورة الفرنسية فقاد "عامية" انتهت بمقتله ومقتل عائلته. وسمعا طبعاً عن المذابح التى جرت فى أواسط القرن الماضى بين الدروز المسيحين، وعن مثيلات لها جرت بين هؤلاء والمسلمين فى الشام، وعن شخصية عظيمة، عبد القادر الجزائري، ساهم فى حماية الآلاف من المسيحيين الهاربين... إنما قراءة الحكايات فى الكتب هى غير الاستماع إلى شاهد عيان يرويها. مستمعاه يصغيان بشغف إليه وهو يسهب فى الوصف، كيف هربوا من بطش المتعصبين. كيف شاهدوا بأم العين الشبان يذبحون ويذبحون. كيف لجأوا مع من لجأ إلى مدن الساحل المسلمة مثل صيدا وصور وطرابلس. وكيف استقبلهم وجهاؤها ومشايخها ومطارنتها، ودبروا لهم أمور السكن والمعيشة، قبل أن يستقروا حيث انتهى بهم المطاف.

يُسهب فى الوصف حتى يُنسى نور الدين التفكير بالصبية وشبيهتها التى تعاند الظهور من كواليس الذاكرة.

وجورجيو ما فتئ يقول لابنته:

- البسى يا صغيرتى وانزلي. بدل أن تسجنى نفسك فى الغرفة خذى كتاباً واقرئى فى صالون الفندق.

عجباً!

لم يلح عليها بأن تعرض نفسها كأنما لطالب يد؟ من الواضح أنه معجب بالمستشار إنما من غير المعقول أن يفكر بتزويجها له: مسلم. متزوج. ولديه أولاد. لذا فهى تعجز عن فك لغز الإشارات المتناقضة التى تصدر عن أبيها، خاصة أن تلك التى تفلت من المستشار واضحة كعين الشمس. فهذا الدبلوماسى المتمرس، حين يراها يرتبك. وإن ضبطته مستغرقاً فى تأملها أسرع إلى غض البصر. وها هو يدعوها مع أبيها لحضور الأوبرا. ما مغزى هذه الدعوة ؟ وهل تخفى شيئاً آخر غير ظاهرها؟

★★★

فى إحدى الأمسيات، وبعد أن انفضت جلسة الأصدقاء، شعر نور الدين بأنه غير راغب فى النوم. خرج يتمشى فى شوارع مرسيليا حتى وصل إلى البولفار العريض الذى يقع فيه المسرح الكبير. وطالعته صورة لمثلة ذكرته بأشياء: فى رحلته السابقة إلى النمسا، دعاه السفير العثمانى لحضور افتتاح واحد من أهم المسارح التى شيدت فى فيينا احتفالاً بقدوم القرن العشرين. وكان إنجاز المسرح تأخر عن موعده مما زاد فى شوق الناس لحضور ما سيعرض فى افتتاحه: أوبرا رائعة هى "غادة الكاميليا"، لموسيقار عظيم يدعى "فيردي"، ضجت بعملة الصحف وجاوزت أصداؤه حدود إيطاليا إلى سائر بلدان أوروبا.

لم يكن نور الدين قد شاهد من قبل ما يُسمّى بالمسرح الأوبرالي. دخله معجباً بحماسة الجمهور ليخرج منه مفتوناً، لا بموسيقى فيردى وحسب، وإنما أيضاً بصوت السوبرانو وأدائها اللذين حولا حكاية بسيطة إلى عمل أوبرالى عظيم! الآن وهو يعبر الرصيف المقابل للمسرح، ويرى رسم السوبرانو، يفطن إلى أن الشابة، ابنة جورجيو، تشبه لحد كبير تلك الفنانة التى سحره غناؤها. بل لكأنها هى "غادة الكاميليا"، لا ينقصها سوى أن تفتح فمها وتصرخ بالحب المجروح!

بعد ذلك، ما عاد فى وسعه رؤية الصبية بمعزل عن السوبرانو. وخطر له أن يدعو صديقيه جان جاك وجورجيو لحضور العرض. وإذا بجورجيو يعتذر. يا صديقي، يصعب عليّ ترك ابنتى بمفردها فى الليل.

- يمكنها أن تأتى معنا، قال جان جاك. مناسبة طيبة لأدعو زوجتى إذا ما سمح صديقى المستشار بذلك.

وقال جورجيو بحماسة:

- وفرصة تتعرف بها ابنتى بفن عظيم، إذا سمح الأصدقاء بذلك.

ها هى الدنيا تفرد أجنحة الغواية لأبنائها!

لا يدرى أتفعل هذا لإسعادهم أم لإقلاق راحتهم؟ ليس هو من سعى. الظروف هى التى شاءت أن يقضى برفقة الشابة ساعات فى مناخ رومانسى فريد، سينشد فيه السوبرانو والتينور فصول حب جامح ومستحيل.

★★★

دخلت كلاوديا المسرح مبهورة. إنها المرة الأولى التى تدخل مسرحاً مثل هذا. كانت، فى الأرجنتين، قد شاهدت عدداً من الفرق الجوالة التى تنصب خشبات فى أرض خالية، تغطيها ستارة فاقعة الألوان، حين تُرفع يظهر مهرّجون، أو رواة يحكون القصص. أو ممثلون يقومون بأدوار تتعلق غالبيتها بالحب والبطولات. ولطالما صحبت كلاوديا أمها المسكينة. فمشاهدة هذه العروض كانت تترك فى روح المريضة أثراً أطيب من الذى تتركه المهدئات. لكن الخشبات المتواضعة تلك غير هذا المسرح الذى شاده كبار معمارىى فرنسا وزيّنه أعظم فنانيها. وهي، كلاوديا، تدخله الآن، فى مطلع القرن العشرين، مع نخبة من نساء ورجال العصر فى مارسيليا! فكيف لا تكون على هذا المدى من الانفعال؟!

لابد أنها لمحت الإعلان وصورة السوبرانو، غير أنها لم تنتبه للشبه. كل هذا يتراءى لها مثل مشهد فى منام سيتضح لها فى ما بعد حين تصحو. والآن تتابع تقدمها متهيبة، مبهورة، يحيط بها والدها والآخرون. نظرها يسبقها للفرجة على التحفة المعمارية التى تسير هى الآن تحت قبتها! للفرجة على القاعة وشرفاتها تمتلئ بالقادمين. رجال ببذلات رسمية وسيدات فى أبهى ملابس وحلى وزينة. ولعلهم، بعد أن جلست بين والدها ومدام "رو"، قد وزعوا عليهم كتيب العرض الذى يحمل صورة السوبرانو، لكنها كانت منشغلة بتأمل السقف والأعمدة والرسوم والنقوش التى تزينها والتى تفوق روعتها كل ما سبق أن رأته. وبعد قليل ستطفأ الأنوار وترفع الستارة، وتخرج الممثلة إلى الخشبة، لترى نفسها وجهاً لوجه أمام مخلوقة تكاد تكون

توأمها. إنها السوبرانو ذاتها التى شرعت تؤدى دور "غادة الكاميليا".

أربكها الشبه!

وظنت نفسها، للوهلة الأولى، واهمة. وإذ دنت منها مدام "رو" وسألتها همساً كيف تكون هى نفسها جالسة معهم وواقفة على الخشبة فى آن واحد، ابتسمت. وارتاحت فى مقعدها مأخوذة بالمشاهد وبالأغانى التى تخرج من جوارح السوبرانو، فيما كانت تتساءل إذا كان المستشار نفسه سيلاحظ الشبه؟

الأمر الذى كان يعبر خاطر نور الدين، إنما ليعيد إليه الشعور بالذنب! أن يعبث بمشاعر شابه لم تخبر الحياة، يرجعها أبوها إلى الوطن ليعثر لها على الزوج الملائم؟ يلوم نفسه على ما قد يحدث قبل حدوثه: فالشابة التى دخلت المسرح دخول أميرة وحولها حاشيتها، ستخرج منه قبل انتهاء العرض منهكة، وعلى حافة الإغماء. و "الحاشية" تقدم لها العون لتوصلها إلى العربة التى ستقلها إلى الفندق. هناك سيُغمى عليها وهى تهذى بقصة غادة الكاميليا قبل أن تشاهد خاتمها المأسوية!

★★★

كان من نتيجة ما حدث لكلاوديا إبان العرض، أن جورجيو كره المستشار. وهذا ازداد فتنة بالشابة، وصاحب الفندق اعتقاداً بأن شيئاً ما قد يحدث بين هذا وتلك.

كلاوديا فى إغمائها صارت تهذى بالشابة المريضة وتسأل عما حل بها، وبابا جورجيو يطمئنها بأن الخاتمة كانت لابد سعيدة. ستُشفى من مرضها وتتعرف برجل يحبها. شهم شجاع ولا يخضع لمشيئة الآخرين.

★★★

كان نور الدين خلال العرض،قد لاحظ اضطراب جورجيو!

فهذا أمضى الجزء الثانى ممسكاً بيد ابنته كأنما ليشد أزرها، مما جعله يتساءل إذا ما كان فى الأمر لغز يفسر له الالتباس فى تعبير الشابة: وجهها الضحوك هو فى آن معاً مرآة حزن عميق.

★★★

مدام "رو" فسرت انهيار كلاوديا بالشبه العجيب بينها وبين الممثلة. شبه أدخلها فى حالة التوحد التى يُحكى عنها، لتشعر بأن ما يجرى لغادة الكاميليا إنما يجرى لها. هكذا راحت تسعل. ومع التصعيد الدرامى تفاقم سعالها حتى كادت تختنق.

★★★

جورجيو، بعد أن تحسنت أحوال ابنته صار يقول لها الحقيقة: إنه يجعل نهاية الدراما. لكن من المؤكد أن المستشار يعرفها، إذ سبق له أن حضر العرض. وحين أيقن من شفائها صار يمازحها بالقول: "اسألى المستشار"، ليقينه من استحالة أن تفعل. وهى إن جرؤت بعد ذلك وقامت بما قامت به، فلأنها استسلمت للدوافع التى تسيّر فتاة خُذلت هى أيضاً وضُربت فى الصميم أمام الملأ، وفى أشد المواضع إيلاماً: مشاعر الحب.

★★★

فى اللقاء الذى تم بينها وبين نور الدين، عصر ذاك اليوم، على سطح الباخرة، وجدت كلاوديا نفسها تنفذ قول أبيها بالفعل. فى ذاك اللقاء، قبيل الغروب، والذى ستبقى ذكراه ماثلة مدى العمر فى مخيلة كل منهما، سيتبادل محبوبان فُطِرا على الكتمان، الأحاديث. ستجرؤ هى وتسأله عن مصير "غادة الكاميليا". سيراوغ هو قبل أن يجيب:

ـ المرضى يشفون إن هم أرادوا ذلك. إلا إذا ما تدخلت ظروف قاهرة وأعاقت شفاءهم.

ـ وماذا عن الشابة؟ هل اعترضتها ظروف كهذه؟

وبعد تردد قال:

ـ حين نصل إلى بيروت، اسمحى لى يا آنسة، أن أقدم لك نسخة من الرواية. كتبها ألكسندر دوماً الأبن. هكذا تقرئين بنفسك تفاصيل ما جري.

لكن...

- لكن ماذا؟

- سيبقى هناك شيء ناقص فى الرواية، قال نور الدين:

- شيء ناقص؟ ما هو؟

- حكاية متفرّجة غدت أسيرة سوبرانو تكاد لفرط الشبه، أن تكون توأمها.

★★★

أما مسيو جان رو، الذى أتاح له عمله أن يرى ما رأى من قصص الحب العجيبة، فقد خطر له وهو يرافق نزلاءه ثانية إلى المرفأ، أن بوصلة الزمن التى تقود المسافرين إلى جهات غير متوقعة قد تؤدى بالمستشار وكلاوديا إلى سرير الزوجية. وأن جورجيو الذى يجد مثل هذا الزواج الآن من ضروب المستحيل، لن يلبث أن يوافق عليه، ليعتبره ضربة حظ لم يكن يتخيل أن الدهر سيمن بها على ابنته التى يعبدها.

★★★

فى خروجه من الباخرة، نزل نور الدين درجات السلم بنفس حزينة، قلب فارغ وعقل منهك. لا عزاء له سوى أن الرجل وابنته سيسكنان، ولو فى الأشهر الأولى، فى البيت الذى عرضه عليهما، والذى جعله مضافاً لزائريه المقربين. وسوى وعود يعطيها لنفسه، بأنه لن يلبث أن يمسك بزمام الأمور. وبعد اطمئنانه إلى استقرار ضيفيه، صعد إلى عربته وأمر السائس بالانطلاق. حوافر الحصان تضرب الأرض بقوة يعرفها ورتابة جديدة عليه. يحاول معالجة أفكاره، فيدرك أن القدر الذى لاطفه كثيراً إبان الرحلة، يهدد فى خاتمتها بأن يرميه فى حلبة مصارعة تتلاعب بها الأهواء.

★★★

فى الوصول إلى البر، كانت التحضيرات الروحية اللازمة لتتويج قصص

الحب بالنهاية السعيدة، قد بلغت أوجها. لم تمض شهور على ذلك، حتى كانت كلاوديا قد تزوجت الرجل الذى اختار لها الأسم بنفسه. أما التدبيرات العملية فكان لها شأن لايقل غرابة عن سوء التفاهم الذى حاك الرجلان خيوطه فى عرض البحر. فزوجة المستشار جاءت بنفسها تطلب يد الشابة لزوجها!

للوهلة الأولى صُعق جورجيو للطلب!

لا ريب فى أن السيدة هذه مجنونة! فى إصغائه إليها تشكو حال زوجها التى جارت عليه المشاعر، يزداد قناعة بذلك: يا خواجة جرجي، الأفندى لا ينام الليل، ولا يزاول نشاطاً فى النهار. انطوى على نفسه غير راغب بطعام ولا شراب، بل غير راغب بشيء. نور الدين هو عماد العائلة، فماذا يحل بنا لو تركناه ينهار؟

مجنونة بالطبع!

كان جورجيو قد سمع بقصص مثل هذه تحدث لدى المسلمين، وما خيل له أنه سيجد نفسه ذات يوم طرفاً فى إحداها! والطرف الآخر طالبة يد، لا تعدو كونها زوجة الرجل بالذات! وسمعها تقول:

- ليس نور الدين أول الرجال الذين يتزوجون على زوجاتهم، ولن يكون آخرهم. إن كان لله فى خلقه شؤون جعلته يحلل للرجل أن يجمع أكثر من زوجة فى آن واحد، فلأنه سبحانه وتعالى أعرف منا بطينة البشر.

سيكون جوابه لا بالتأكيد.

يقول هذا فى نفسه فيما المرأة تحاول إقناعه بأن فرصة مثل هذه لا تُفوت! الفتاة ستحيا مثل أميرة. وهي، سنية، ستكون لها بمنزلة الأخت الكبرى. نعم، أسرة واحدة وزوجتان، إحداهما فعلية، هى ابنتكم كلاوديا خانم، والأخرى ستحتفظ بحقوق الاسم والأمومة وتتخلى عما يبقى! اسمح لى يا خواجة جورجيو بمقابلة الشابة لأؤكد لها بنفسى ذلك.

تؤكد لها هذا بنفسها؟!

لكن، ماذا لو لم تكن المرأة مجنونة بل طرفاً حاذقاً فى لعبة غير شريفة؟ وماذا لو كان المستشار، منذ البدء يخطط للعبة مثل هذه؟ زواج المسلمين، ليس كما لدى المسيحيين، قدسياً أبدياً لا يفكه سوى الرب. بل هو زواج على ورقة طلاق كما يُقال. أفكار جورجيو تكاد تُخرجه عن طوره، فيصيح بوجه زائرته ويطردها. والسيدة التى فطنت إلى ما يدور فى رأس الرجل، بادرت إلى طمأنته، بأن ارتباط نور الدين بكلاوديا خانم، سيكون أبدياً، وسيدوم بإذن الله مدى حياتها وحياة الأفندى على هذه الأرض. وإن شاء الله، ستنجب له بنين وبنات يصبحون إخوة أحباء لمن أنجبت هى من قبل.

وخطر لجورجيو أن يجاهر بأفكاره، فيقول لطالبة يد ابنته، إنه من وجهة نظره كمسيحي، يجد طلبها مثيراً للعجب! وكمؤمن، يجد أن زواجاً مثل هذا... وكاد يتفوه بالعبارة:

"أشبه بالزني"!

كاد... لولا أنه تعقل وسكت.

كان موقنا أنه سيرفض، وأن كلاوديا بدورها ستستنكر وتتهرب من مقابلة المرأة التى تطلبها ضرّة لها. غير أنه حين سألها رأيها وأجابته ذاك الجواب الذى نزل عليه كالصفعة، أدرك أن أبنته واقعة فى غرام المستشار، وأن أوان المناورة للتأثير عليها قد فات:

ـ ما رأيك يا كلاوديا بامرأة تطلب يد فتاة لزوجها؟

ـ بابا جورجيو، عن أى امرأة تحكى وعن أى فتاة؟

ـ عن زوجة المستشار. جاءت عصر اليوم تطلب يدك له. ما رأيك بطلب مثل هذا؟

ـ بابا جورجيو... إذا كان المستشار سيهرب ليلة الزفاف، فلن يكون هو الزوج الذى أبحث عنه.

غريب فى الدار

لمعت فى المدرسة، وبرزت موهبتها الكتابية باللغتين العربية والإنكليزية، مما جعل المديرة تنقلها إلى مستوى أعلى من الذى كانت فيه، الأساتذة يتحدثون بتلميذة موهوبة، فى تحويل الأفكار إلى قصائد، وفى ابتكار عوالم لا تشبه المألوف. حتى أنهم يستمتعون هم أنفسهم بما تكتب. من يدري، لعلها ستغدو يوماً ذات شأن فى عالم الأدب؟ مثل جورج صاند فى فرنسا، جين أوستن فى انكلترا وقدرية حسين فى مصر. شهادات تسعد نور الدين وتدعوه لأن يمنح اخته الفرصة التى منحها الشيخ ناصيف اليازجى لابنته التى غدت شاعرة معروفة فى مصر وبلاد الشام. وفى معرض اهتمامه بالأمر أطلع نور الدين على المنهاج الذى تقدمه المدرسة الأمريكية لتلميذاتها، وكاد يندم لأنه لم يُدخل وردة شاه مدرسة فرنسية تعادل كفاءتها مدرسة الحكمة التى تعلم هو فيها. وفى بحثه اكتشف أن مدارس البنات تعانى عموماً من ضعف. فبرامجها التى تؤهلهن ليصبحن ربات بيوت مميزات، هى فقيرة لجهة الآداب، وأشد فقراً لجهة الفكر والفلسفة. مثل هذه لن تؤهل أخته للمستقبل الذى يتمناه لها. المبدعون فى الأدب ليسو كذلك لمجرّد حذق فى الكلام، بل لثقافة تتجاوز العادى ورؤية عميقة تهز خمول العقل.

بحث نور الدين عمّن يمكنه مساعدة أخته، فأشار عليه ناظر مدرسة اليسوعية، بمدرس متمكن اسمه بشارة. نشأ فى لبنان ثم سافر إلى أمريكا الجنوبية وعاد منها. والده من مدرسى اللغة العربية الذين تبحروا فى الشعر والفلسفة، والشاب نفسه، إلى جانب الفرنسية يتقن لغتين تعرفهما وردة: العربية والأسبانية. مثقف لامع، يقوم بترجمة أمهات الكتب إلى العربية، وبفضله بدأ الناس يعرفون مفكرين عظماء مثل منتسكيو وروسو وفولتير.

والشاب هذا، هو ابن عائلة كريمة. الدروب إلى الكنيسة حفظت خطوات أمه وأبيه، وأخته نذرت نفسها لخدمة الرب والمحتاجين.

الجلسة الوحيدة التى جرت بين نور الدين والمدرس بشارة، كانت قبيل استلام هذا مهمته. تبادلا فيها الآراء حول عدد من قضايا الساعة: تطور العلوم التى بدأت تغير وجه العالم. نظرية دارون ومسألة النشوء والارتقاء التى يميل نور الدين إلى الاقتناع بها. الحديث طمأن الأخ إلى سعة اطلاع المدرس ومرونة رؤيته. مثقف، تنعم نفسه بالإيمان ويجنح عقله نحو الشك، فيحاول العثور على مصالحة جميلة بين الدين والتفكير العلمي. إذا كان هو، نور الدين، غير أكيد من إيمانه ولا يمارس الفروض إلا فى ما نذر، فالله كما كان يقول أبوه لم يهد روحه بعد. لكنّه يغبط من ارتاح إلى اليقين. وانتقل بهما الحديث إلى أطماع الدول الأوروبية فى الخلافة. بشارة لا يرى خوفاً من فرنسا التي، فى أرضها نشأت أنبل الأفكار وقامت أعظم الثورات. وإذ ذكره نور الدين بما جرى فى الجزائر وغيرها من بلدان المغرب العربي، أكد له بشارة أن احتلالاً مثل هذا لن يدوم. فالفرنسيون متململون. لا يعجبهم إرسال أبنائهم إلى الحروب، فكيف لو خرجت هذه عن مبادئ الثورة التى تنادى بها والتى عما قريب ستغيّر وجه العالم؟!

★★★

لم يلق دخول المدرس منزل آل اسماعيل ترحيباً من أهله. وما سكت عنه الرجال وهم يهزون رؤوسهم، كان يخرج على ألسنة النساء:

ماذا دهى رب العائلة ليسمح بهذا؟!

ومنذ متى كان الرجال الغرباء يدخلون البيوت لغير مقابلة أسيادها أو تأدية الخدمات لهم ؟! الكوارث غالباً ما تبدأ على هذا النحو. تنفذ من ثقب يصيب السد المنيع، ينخر فيه على غفلة من أهله، فلا يدرون إلا لحظة انهياره. الهواجس تدور حول المس بالشرف. لا يجرؤن على المجاهرة بذلك، فالظن فى الدين إثم. وهو من الأمور البغيضة لدى نور الدين، فكيف لو كان

الأمر يتعلق بأخته الصغرى وكان من تجرأت عليه واحدة من الدار؟ لكن المخاوف التى لا تخرج على الألسن تظهر على الوجوه. على الجباه التى تُقطب ساعة تدخل وردة وتسلم على المدرس. على الشفاه التى تُزم والعيون التى تتحجر. كلها تموه إنما لتفضح ما لا يمكن تخيله!

نازلي، فى زيارتها نساء العائلة بعد الظهر، تكتشف أن ما يؤرقها يؤرق هؤلاء. ملك وحدها تبدو مطمئنة: إن كان أخوها قد اختار عن عمد مدرساً مسيحياً فلأن فارق الدين كفيل بإحلال المستحيل بين أى شاب وفتاة. ومهما يكن... لا يمكن لمسلمة أن تفكر برجل من غير دينها. كلام يبدو لكاميليا ضرباً من السذاجة، ولنازلى أيضاً. "ليس لأن المدرس نصراني، تقول، بل لأنه غريب ويدخل الدار كأنه واحد من أهله. يجلس مع بنت العائلة ساعات يتحادثان بالشعر والفلسفة. وهل يُخفى على عاقل ما تجاهر به هذه المواضيع وما تُبطن من ممنوعات؟ الفلاسفة هؤلاء يشكّون بكل شيئ ، حتى فى وجود الخالق عزّ وجل.

وتدخلت الخالة آمنة بالقول:

ـ لك حق يا نازلي، إن كان سيدرسها الشعر والفلسفة، فلا بد...

ـ وماذا سيدرسها إذن؟ القرآن الكريم؟! معروف أن الشعراء، فى غالبيتهم، متهتكون ويجاهرون بالمحرمات.

ـ معقول؟

ـ طبعاً. يُخبرنى زوجى عبد الرحمن، أن شاعراً يُدعى أبو نواس، عاش منذ أكثر من ألف سنة، كان شغله الشاغل التغزل بالخمرة وبالنساء. لا يفعل هذا فى الخفاء امتثالاً للقول الكريم، "وإن بُليتم بالمعاصى فاستتروا"، بل مجاهرة، فيقول:

"ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سراً إن أمكن الجهرُ".

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله! تقول الخالة أديبة. وكيف يكون شاعراً من

يخرج من فمه كلام مثل هذا؟

ـ ومنذ متى كان يوثق بالشعراء؟ ألا تسمعين بالمثل القائل "إن الشعراء إخوة الشياطين؟" وأن بعضهم كان يتعزل بالغلمان؟!

ـ بالغلمان! يا رب أشفق علينا وعلى ذريتنا فلا تشق لنا عاقبة أو ولداً!

ـ هذا لابد آخر زمان، قالت الخالة نسب. فمن مؤشراته إنكار المسلم دينه. ستقوم القيامة. يوم يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه. وتلهو المرضعة عمن أرضعت. يا رب عفوك ورضاك. يا رب اغفر لنا سماع ذلك وأجعل مرقدنا ومرقد أحبائنا الجنة.

تحاول كاميليا أن تطمئن الحاضرات بالحجج ...لكن كلامها يؤدى عكس مبتغاه. "فالأجنبية تسعى إلى أن تغدو وردة شاه مثل بنات أوروبا، لا قدر الله. صحيح أنها اندمجت فى العائلة وصارت كأنها واحدة من البيت، إلا أنها أجنبية وكاشفة. وحسب عقد الزواج لا تزال على دينها، مسيحية. ويقال كانت فى بلادها تذهب وأبوها وأمها إلى المسارح.

ـ معقول؟!

– طبعاً.

– وربما إلى السينما، قالت نازلي؟

--السينما؟!

– نعم. يقال إن الناس، رجالاً ونساء يجتمعون، فى صالة معتمة لا نوافذ لها ولا مصابيح، تُعرض فيها صور لأشخاص يتحركون.

ـ يتحركون؟

ـ هكذا يقال!

ـ لا أحد يؤكد إن كانت الأطياف التى تمر أمامهم صوراً أم أناساً حقيقيين. فهم يتبادلون الحديث ويتشاجرون ويضرب الواحد منهم الآخر أو يقتله!

- يا ساتر يا رب!

- وكيف يتحرك الأشخاص إذا ما كانوا صوراً ؟ لعلهم من لحم ودم وأصحاب السينما يضحكون على الناس؟!

- الله أعلم! إنما لو كانوا كذلك لَسُمِعَت أصواتهم. يقال تراهم ولا تسمعهم. مثل الجن! بسم الله...

وأكدت نازلى أن السينما تُظهر النساء والرجال فى أوضاع، يا إلهي، مثلما يحدث بين الأزواج فى غرف النوم! بل وأكثر.

- العياذ بالله!

- ويقال، والعهدة على الرّاوي، إن المتفرجين فى الصالة، يقلدون الصور. الرجل يأخذ صاحبته فى حضنه ويتبادل وإياها القبل والناس يتفرجون على بعضهم البعض!

- أعوذ بالله من الشيطان!

- هكذا يُقال. ولعلمكم، فإن أحد التجار هنا وهو يونانى الأصل، يفكر بفتح سينما فى بيروت.

- سينما فى بيروت؟! وهل سيسمح الوالى بذلك؟ ماذا لو بلغ الخبر أمير المؤمنين؟

مالت نازلى نحو الخالة نسب، همست فى أذنها شيئاً وأطالت الهمس. وتلك شهقت وقالت: معقول؟

وهزّت نازلى رأسها اسفاً وتأكيداً على ما قالته.

تبدّلت سحنة كاميليا وسألت:

- بم الوشوشة يا عمتي؟ وما هو المعقول وغير المعقول؟

- لا شيء يا عزيزتي.

- بلى هناك شيء. أعرف بم توشوشين، لكن الخبر غير صحيح.

أنهت كاميليا جملتها، وخرجت منزعجة. التفتت نازلى إلى السيدات وقالت:

ـ تظننى ألمح إلى أن والدها نفسه يفكر بمشروع سينما. سمعت بذلك كما غيري. على ما يبدو أن نور الدين أقنعه بالعدول عن الفكرة، بعد أن أُشيع أن الأفندى نفسه شريك فى المشروع.

ـ العياذ بالله! قالت النسوة واحدة تلو الأخرى:

وسألت صافيناز: هل السينما للرجال فقط أم للنساء ايضاً؟

– للرجال طبعاً. وأول فيلم سُيعرض سيكون عن الحج إلى بيت الله الحرام.

وهتفت الخالة آمنة:

ـ هذا هو الكفر بعينه! المكان المقدس يُعرض فى السينما، يتفرّج عليه المسلم وغير المسلم؟ وهل الكعبة الشريفة للفرجة؟

وسألت ملك:

ـ وما رأى أخى نور الدين بهذا؟

وعمتها نازلى أجابت:

ـ نور الدين حين كلمته لم يستنكر. قال إن غالبية الناس ترفض الجديد. حين ظهرت الصور، طالب البعض بتحريمها وهاجموا أول المصورين وضربوه. ولولا تدخل العقلاء، لقضوا عليه. هرب المسكين. ثم نقل محله من ساحة برج الساعة إلى الجميزة. ثم وبعد ذلك لم تبق عائلة فى بيروت، مسلمة أو غير مسلمة، لم تستدع المصور إلى بيتها ليأخذ لأفرادها الصور!

★★★

كاميليا، فى لحظات الصفاء، تجد نفسها هى أيضاً فريسة القلق. فالشابة الميّالة إلى العزلة غدت شديدة الأنطواء. تتجنّب الجلوس معها كما فى السابق. وإن فعلت فإنما لدقائق معدودات تعتذر بعدها لتذهب إلى غرفتها. ماذا لو كانت سيّدات البيت على حق وكانت وردة واقعة بالفعل فى هيام المدرّس، وتجد فى غرفتها ودفاترها ملاذاً وحيداً للبوح؟ عبثاً تحاول إخراجها من وحدانيتها. تستدرجها عبر الكلام عن الدروس إلى الحديث عن

المدرس. غير أن صمت الشابة ذات الطبع الوحشي يجعلها تشفق عليها وتكف عن الإلحاح.

ولم يكن حدس كاميليا في غير مكانه.

منذ اليوم الأول الذي وطئ فيه بشارة عتبة البيت أدركت وردة أن انقلاباً لا رجعة عنه حل في حياتها. كان يكفي أن يستهل الجلسة بعبارة، "أعرف نفسك بنفسك"، ليصيبها انبهار مثلما السحر يصيب نفوس المؤهلين لتلقيه من ساحر: "كل مخلوق عالم بالفطرة وما عليه سوى أن يُسأل ويسأل. يتأمل ويستنتج. لنفكر في الإنسان، هل هو كائن منقطع أم متصل؟

وحياتنا متى تبدأ؟

هل تبدأ لحظة ولادتنا؟ أو عبر من جاءوا بنا إلى الدنيا؟ أم أنها تبدأ قبل ذلك بكثير...عبر من مروا بها، منذ بدء الخليقة على الأرض وصولاً إلينا؟ إذا ما كان الأمر كذلك فما الموت إذن؟

أهو فناء، أم حقبة أخرى من الحياة، لا تنقطع عن الأولى إلا لتتصل بها؟ الفيلسوف العظيم سقراط، تجرّع السم بنفسه فيما كان يواصل حواراته مع تلامذته، فجاء موته حياة لأطروحات ستظل قائمة أبداً من بعده.

وخرج المدرس تاركاً تلميذته مفتونة، منهكة، مضطربة الروح. راحت إلى سريرها تستريح. لكنها ما لبثت أن نهضت إلى طاولتها ووجدت نفسها وللمرة الأولى تكتب رسالة إلى بوران.

★★★

لكن بهجة الحب التي عاشتها وردة في الفترة الأولى، بدأت تذوي، ويحل مكانها شعور بالوحدة حوّلها إلى فتاة صامتة مكتفية بنفسها وبغذائها الوجداني. وغدت أسيرة الساعات القليلة التي تنتظرها بشوق عظيم! تمضي ليلها ساهرة، مستوحدة إلا من الشجن. تبكي لانهمار المطر وينقبض صدرها لذبول الشجر، ومع صفير الريح تخشع. وفي سكون الليل يتناهى إلى سمعها صخب البحر وتتراءى لها أمواجه هائجة رمادية تتربّص

بالسفن. تنهض من سريرها وتروح إلى النافذة تراقب إذا ما كانت منارة قريطم مضاءة وإذا ما كان هناك سفينة فى عرض البحر تغالب الغرق. وفى الصباح تخرج مشياً إلى المدرسة حتى فى أوقات المطر. تتمنى لو تطول الدرب، وتتابع السير نزولاً إلى وسط المدينة، صعوداً إلى الأشرفية ثم رجوعاً إلى تلال رأس بيروت. ليتها ، تفعل هذا وروحها صارت تمقت المدرسة. تمقت جدرانها الصفراء وسورها الشاهق، وتضيق بأشجار الكازورينا التى ترتمى عليه، أو تلك الشاهقة من السرو التى تقف مثل رقيب أبدى وُضع فى هذا المكان ليخلق فيه وحشة ما بعدها وحشة. تضيق بهذا كما بالقرميد الرابض على سطح المباني. ما إن تطأ عتبة المدرسة حتى يخطر لها أن تغادر. وإن دخلت انزوت فى مكان ما فى الملعب وأمسكت كتاباً تحاول قراءته. وأحياناً تغافل زميلاتها وتمضى الفرصة فى قاعة الفصل زاعمة للناظرة أن صداعاً يضرب رأسها. وأثناء الدرس، تستسلم لحمى مشاعرها واستذكار لقاءاتها مع مدّرسها. ومنهكة من إطالة السهر، يصعب عليها التركيز. يشرد ذهنها وتصغى فى دخيلتها إلى أغنيات رومانسية تتحدث بالحنين والحرمان والشوق وفراق المحبين، فتغرورق عيناها بالدمع وتبذل جهداً كى لا تجهش بالبكاء! وتروح تراقب زميلاتها لتكتشف إن كانت إحداهن تشاطرها الحالة الرهيبة هذه. حتى إن نوال سألتها مرة بشيء من الاستغراب لم تنظر إليها هكذا؟ وإذ طلبت منها إكرام أن تساعدها فى الكتابة عن رحلة قامت بها فى الربيع الماضى مع نويها إلى تلال بشامون، وجدت نفسها تجيب: "لدى صداع شديد". تركتها وذهبت إلى الحمام وفى روحها كدر رهيب. وهناك فى شرنقة وحدتها وجدت نفسها تتساءل: إكرام؟ من هى إكرام؟ ومن هى وردة؟.

وبدل العودة إلى الصف، غافلت الحارس وخرجت. راحت تمشى على غير هدى حتى ابتعدت. والصِّبية فى الشوارع يرون ابنة المدرسة الأمريكية بزيها المعروف، تهرول إلى غير جهة محددة، ثم تتجه نحو الحقول، والتراب

الأحمر يغطى حذاءها وجواربها. وخطر لهم أن يلحقوا بها لكن أحد المارة من رجال الحى نهرهم ومنعهم من ذلك. ظلت تمشى حتى جاوزت حدود المبانى ووصلت إلى تلال "المصيطبة". دارت حول البيوت القليلة التى شيدت فيها ودخلت إلى بيت قيد الإنشاء وقفت دقائق فى إحدى زواياه وقوف حيوان مذعور. وفى تلك اللحظة خطر لها أن توقف الدرس الخصوصي، وإلا فمصيرها الجنون! وارتاحت برهة لقرارها، وخرجت نساء المنازل يتفرجن عليها من خلف أباجورات النوافذ. وحين أُنهكت عادت إلى البيت لاهثة، عرقة، منفوشة الشعر تغلى بالحمى. الحمى التى فسرت لكاميليا لغز فرارها، وبررت توقفها عن الدرس الإضافي.

بعد النقاهة، عادت وردة شاه إلى المدرسة منهكة الروح كما غادرتها. ولولا يقينها أن كاميليا مرت بهذه التجربة، وغيرها من الفتيات اللواتى قرأت عنهن فى الروايات، كابدن الهوى، لظنت أن مرضاً أصابها لن يتركها إلا على شفير الهاوية. فهى وقبل أن تحين ساعة الدرس تضطرب من ذات الاضطراب الذى لا يحدث سوى لصريعى الهوى. وتنتقل العدوى إلى المدرس، فتعرق يداه ويلمع جبينه. وتمويهاً لاضطرابها، تفتح دفترها وتنشغل بالتدوين، بالآلية ذاتها التى يلقى بها بشارة كلامه دون تركيز.

ويحدث أن تدخل كاميليا لتسأل عن سير الدروس فيتناهى لها انفعال الشابين: وجه المدرس يعبق باحمرار شديد ووردة مخطوفة اللون، فتسارع إلى الخروج. تحاول تكذيب نفسها، لكن.. الشابة تزداد عزلة، وتواصلها مع سكان البيت ضعفاً. وهنت صحتها وتضاءلت شهيتها، وشحب وجهها وازداد ذبول عينيها. ولما عرضوها على الطبيب أمر لها بزيت السمك وكبد الغنم النيئ وبنظام غذائى صارم. كما نصحهم بأن يأخذوها إلى أماكن فى البرية لتعرّض جسمها للشمس والهواء. هكذا أخذت النسوة يصحبنها فى نهاية الأسبوع إلى البحر أو إلى الحقول. رحلات تبعث فى نفسها الملل، فتمضى وقتها ساهمة لا تبادلهن الحديث بل تكاد لا تجيب عن أسئلتهن.

تراقب الحقول: ممتدة رتيبة والأشجار صامتة ومتعَبة. السهول هى هى منذ أو وُجدت. يأتيها أناس ويغادرها آخرون وتبقى هى على حالها. يا إلهي: الغياب هو الحضور! نعم، فى هذا الفراغ، غياب بشارة هو الحياة، ولولا ذلك لكان العدم. والشاطئ هذا غيره الذى كانت تلعب على رماله مع أخيها محمود. وهذا الرجل الذى يدعونه "الموحود" لا يفتأ يمشى على الرمال بكامل هندامه. أتراه عاشقاً مدلهاً يهيم على وجهه فى بحث مستحيل عن محبوبة هجرته؟

السيدات لا يوفّرن مناسبة للوم رضية. خذلتها! وعدتها بأن ترجع ولم ترجع. ويتحدثن بالأمومة الحقيقية، فيما تتساءل هى عن الصور التى أخذت ذاك النهار لها ولمحمود ورضية. أين اختفت؟

فى تلك الآونة تأكد لنساء العائلة الأثر السلبى "للعلم". فالبنت اليافعة صارت تتحدث بثلاث لغات، إضافة إلى الرابعة! تنتقل بينها مثلما تنتقل بين غرف البيت! مع السيدات تتكلم العربية ومع كاميليا الأسبانية وفى المدرسة الإنجليزية، ناهيك بشيء من التركية. فى هذا ما يخلع أشد الأدمغة صلابة، فكيف لو كان دماغ فتاة؟ ولولا أن كثيرات منهن كن يتحدثن لغتين معاً لتأكد لهن صحة ما يسمعن به، من أن كل لغة تحتاج إلى شخص، وأن تعدد الشخصية مرض يحكى عنه الأطباء، قد يوصل الإنسان إلى الجنون. إن كان لا خوف من ازدواجية التركية والعربية، فمفردات هذه وتلك متأصلة فى القرآن الكريم، فللغات الإفرنجية شأن آخر. صحيح أن نور الدين، وغيره ممن نشأوا فى المدارس الأجنبية، يعرفون لغات كثيرة، لكن منذ متى كانت الفتيات قادرات على ما يقوم به الصفوة من الرجال؟

★★★

بشارة، تعويضاً منه عن أيام الغياب، صار يعطى تلميذته كتباً ومراجع، واجداً حرية أكبر فى انتقاء نصوص كان سيربكه تدريسها إياها وجهاً لوجه. والتلميذة المتلهفة تمتثل، حتى وإن كان عليها أن تمضى ليلها ساهرة،

تتبحر فى المقولات.. معانى بعض من هذه يتضح لها ليبقى البعض الآخر غامضاً. تحاول إجلاءه على ضوء الكلام الذى تلقفته من أستاذها إبان ما كان حاضراً. لا تصدق إمكانية أن يتواجداً معاً فى دنيا الواقع فى المكان ذاته، ويتنشقا ذرات الهواء نفسها، فيما يتبادلان الأفكار: الإنسان ناقص بذاته يكتمل اكتمالاً نسبياً بالآخرين ومطلقاً بذات الإله إذا ما سعى ووصل!

وحين تتعب من ثقل الأفكار الفلسفية عليها، تشغل وردة نفسها بقراءات بسيطة مثل قصص جين أوستن، وروايات جرجى زيدان، أحضرها لها أخوها من مصر. وأخرى مترجمة لكتاب فرنسيين مثل "البؤساء" لفكتور هوجو، أو رحلات شاتوبريان إلى الشرق. وتعود إلى كتابها المفضل "دون كيشوت" لسرفانتس. على ضوء المصباح، تتابع مغامرات البطل العنيد، فى بحثه عن المطلق، وتتوقف طويلاً أمام مقطع شعري:

"قرار القدر الرهيب يقضى على إرادتي. إذا طلبت المستحيل حُرمت من الممكن".

أبيات تذكرها بالشاعر الروسى العظيم: بوشكين. إنه الأثير إلى قلبها. حزنه على محبوبته قاده إلى حتفه. ترى فى خياره أمثولة وفاء تعوز الكثير من الشعراء. فهؤلاء كما تسمع، يتغزلون اليوم بواحدة وغداً بأخرى! ماذا لو كان حبيبها من هذا النمط اللعوب؟

السؤال أفقدها صوابها، فوجدت نفسها تركض نحو الطابق العلوى وتتابع العدو على الدرج وصولاً إلى السطح. حسناً أن للسطح سوراً وأن لسوره رؤوساً هرمية وإلا كانت تسلقتها ودفعت بنفسها ووقعت من الدور الثانى وماتت انتحاراً بلا قصد. تراجعت إلى الداخل وهُرِعت إلى غرفتها. وفى الليل وجدت نفسها تخبط رأسها بضلفة الخزانة وتجهش بالبكاء. وفى الصباح لم تنهض من فراشها. وإذ دخلت عليها حليمة وسألتها عما بها، زعمت أنها مريضة. لازمت فراشها طوال النهار تحاول حبس دموعها واستعادة الهيئة التى ستمكّنها من مقابلة المدرس. وبقيت طوال الحصة

عابسة تكاد لا تجيب على أسئلته. ثم وبعد ذلك طلبت منه أن تأخذ راحة لبضعة أيام دون أن تقدم لهذا التوقف أى تفسير.

كان لهذا الامتناع غير المخطط أو المفهوم أثره الرهيب فى نفس بشارة، جعله يلوم نفسه على الجُبْن الذى يعزوه إلى قسوة أبيه. وما كاد الأسبوع الذى فرضته تلميذته ينتهى حتى جاء وفى نيته أن يفعل شيئاً، أى شيء، من شأنه أن يظهر حقيقة مشاعره! لكن كيف؟

هل حين يدخل يلثم كفها بحجة السلام عليها؟ هل يلمّح إلى عذاب الانقطاع وشوق المحبين؟ أم يتجرأ ويقدّم لها القصيدة التى تحمل لهفته وتحقق ما يعجز اللسان عن القيام به؟

وفى المساء قبل أن ينام، صلّى للأب الذى فى السموات، وتضرع إلى السيدة العذراء أن تمنحه الشجاعة ليقوم بما يبرد قلب الفتاة الملتاعة. يتضرع كى تغفر له. فهو لا يغرر بطفلة، بل يتفانى فى مشاعره تجاه راشدة تمر بأكثر التجارب نبلاً: الحب.

ستستجيب "السيدة" لطلبه. وسيسلّم محبوبته بيت القصيدة الذى يحمل لهفته: بلى، أنا مشتاق وعندى لوعةٌ ولكن مثلى لا يذاع له سرُ.

★★★

كاميليا، فى رواحها ومجيئها أمام باب المكتب، يتناهى إلى سمعها، كما إلى مسامع سيّدات المنْزل، الحوارات الدائرة بين المدرس وتلميذته. يلتقطن منها همسات تتعلق بالخلق والكون وواجب الوجود وممكن لوجود. كان من الصعب على المتنصتات، ما لم يجلسن خلف جدار الغرفة مباشرة، أن يفهمن ما يُقال. خاصة وأن كلا الشابين فُطرا على الحياء. الإيقاع يؤكد لكاميليا أنه إيقاع دروس. لكن، وحال وردة تتفاقم، صارت هى أيضاً تتساءل عن شيء يدعو فعلاً إلى القلق، ويضطرها كى تبوح به لنور الدين. عقلها ينفى لكن نفسها تشكك فيما لسانها يدافع أمام السيدات. الملاحظة

الوحيدة التى أعطتها لوردة، هى أن لا تفرد شعرها أثناء الدرس، كما فعلت منذ أيام.

ويخطر لها أن تفتح مفكرة وردة فتخجل وتسارع إلى لوم نفسها: ما الخطر فى أن تنجذب فتاة إلى شاب أو تقع فى حبه؟ لن تلبث أن تُشفى كما شُفيت هى ونهضت من المحنة التى ظنتها نهاية العالم. ثم كيف تعكر على نور الدين حبوره؟ منذ أيام فقط التقى أستاذ الأدب الإنجليزى وهذا قال له:

ـ لأختك يا مستر نورالدين، موهبة نادرة. تتحدث بعوالم لا أدرى من أين تنبع! لابد من الروح. أو، لعلّ ما يُحكى بشأن الحياة السابقة للإنسان، صحيح. أختك على حداثة سنّها تصف عوالم بديعة كأنما عاشتها من قبل فى حياة موازية.

الكلام الذى يُسر نور الدين يقلق كاميليا. حتى وقبل أن تنكشف لها منابع الإلهام التى يتحدث بها الأستاذ أو تقرأ صفحات كتبتها الصبية فى عيد الأم. القلق الذى دفعها أخيراً إلى قطع الشك باليقين، والبحث عن مفكرة وردة، لتعثر عليها فى الخزانة ملفوفة بمنشفة الحمام. نعم، إنما تقوم بما تقوم به لمصلحة الشابة.

فى الصفحة الأولى من المفكرة قرأت عبارات لا تثير القلق، تتحدث عن الحياة والموت، خطتها المراهقة باللغتين العربية والأسبانية. إهداءات رومانسية إلى بوران، ذكرتها بتجربتها الأولى هى فى الكتابة. وفى صفحة أخرى قرأت: "أحب السفر وتفتتنى حكايا المسافرين". وفى تقليبها الدفتر وقعت على قصيدة باللغة العربية حاولت قراءتها. معانى الأبيات لا تتضح تماماً لها، إنما كلمات الحب التى تتكرر تستوقفها:

أحبك حبين حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواك

وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراك
فلا الفضل فى ذات ولا ذاك
لى ولكن لك الفضل فى ذا وذاك

كاميليا لا تعرف أن القصيدة لشاعرة متصوفة عاشت منذ ألف وعدد من مئات السنين فى العصر العباسي، اسمها رابعة العدوية. ولا أن بشارة هو مرسلها. غير أن كلمة الحب التى يطغى وجودها على الأبيات، وضمير المخاطب المفتوح الذى هو لرجل، فضلاً عن الخط الذى كُتبت به، يشير إلى أن انشغال الفتاة وأستاذها ربما يتجاوز الشعر. وقد يتجاوز مسألة العلم والثقافة. هل تخبر نور الدين؟

وكيف، إن فعلت سيبدو سلوكها بنظره؟

فى خضم حيرتها توصلت كاميليا إلى ذاك الحل: أن تفاتح زوجها بخطبة وردة لرشاد حفيد العمة نازلي. خطبة تتيح للشابة متابعة الطريق الذى رسمه لها أخوها وتحميها فى الوقت عينه من جموح المشاعر التى قد تلخبط مسيرتها.

فى إصغائه إليها قطب نور الدين جبينه. وردة ما زالت صغيرة. ما الذى يضطره ولم تُنه دراستها بعد، أن يخطبها لشاب هو نفسه لا يستسيغه؟ سبق أن رفض كثيرين أفضل من رشاد. حتى ودون أن يُعلم أحداً كان يغلق الباب أمام طالبى اليد. لا سيما الذين تقصد عائلاتهم ناظرة المدرسة بحثاً عن شابة مميزة. وشرحت له كاميليا وجهة نظرها: شغف وردة فى الإطلاع والمطالعة بلغ حد الهوس، وقد يُخشى أن ينسيها الدنيا. وردة تكاتب أمها وتلك أيضاً تكاتبها.

كيف عرفت ذلك؟

مصادفة، وقع بصرها على اسم بوران، ومدفوعة بالإشفاق قرأت ما يدل على أن المراسلات بين الأرض والسماء متصلة.

- يا إلهي، كل ما نقوم به من أجلها لا يعوّض؟

- لا شيء، يا عزيزي، يعوّض عن فقدان أم أو أب. لكن... لعل الخطبة تعيد إلى وردة شيئاً من الإقبال على الحياة.

★★★

قبل أكثر من عام، كانت العمة نازلى طلبت مقابلة نور الدين لتفاتحه بمسألة لم تكن تخطر فى باله: أن تخطب وردة لحفيدها رشاد. احتار نور الدين فى الجواب. فهو لا يستسيغ الشاب، ويجده مدعياً، لكن لعله سيعجب وردة. آنذاك قال:

- الفتاة يا عمتى ما زالت صغيرة. حين يكمل رشاد تعليمه تكون هى أنهت المدرسة. عندئذ نبحث المسألة بشكل آخر.

ورأى نور الدين فى التأجيل فرصة لتبلغ وردة الثامنة عشرة، فتقرر مستقبلها بنفسها كما يجدر بأى فتاة فى هذا العصر أن تفعل. كما وجد فى التأخير فرصة ليدرس المسألة على نحو أفضل. ثقته بالشاب أضعف من أن تدفعه للاستعجال. ولولا أن رشاد من صلب عائلتى صالح وإسماعيل، ولامع فى دروسه، لما وجد فيه الخصال التى يتمناها لوردة. تعاليه لا يُخفى على أحد وكذلك كرهه العثمانيين. فى المجالس يزايد على الأجانب فى يأسه من السلطنة. ولا يتوانى عن تسميتها "الرجل المريض". فضلاً عن تبريره أطماع الأوروبيين. حلول هؤلاء فى رأيه هو لمصلحة بلدان المنطقة. لعلّ حقده على إعدام ابن عمّه شوقى هو ما يدفعه إلى هذا الموقف، ولعله مع الأيام يتغيّر. إنّما من الصعب عليه هو الخال أن ينسى يوم جاءه رشاد بالخبر: نفسوا خطوط سكة الحديد التى تربط الشام بالحجاز! كما لو كان يزفّ إليه بشرى! الإنجاز الذى كلف الخزينة مئات الآلاف من مجيديات الذهب، واختصر المسافات بين مكة المكرمة والعالم، طار فى مهب الريح!

- "مثل هذه الأعمال يا خالى شر لا بد منه. والأمير فيصل ابن الشريف حسين، هو من قاد العملية والبلاد بلاده.

- ولورنس؟

- الكابتن لورنس ضابط ارتباط سار بإمرة الأمير.

- لكن الإنكليز مراوغون ولن يفوا بالوعد. لن يرضوا بهذا ملكاً على العرب، ربما فقط على الحجاز.

- بداية حسنة. لا تزعل من يا خالي، العهد العثماني آخذ في الوداع.

- ليبدأ البريطاني!

- سيكون بالتأكيد أفضل منه".

وسمع كاميليا تسأله:

- ما بك يا زوجي العزيز تقلب كفك إلى هذه الناحية وتلك؟

- لا شيء! لعل الشاب مع الأيام يتغير قال لها! وفي نفسه قال، أشك بأنه سيتغير! حقده، وحقد والده! تصل الأخبار من دمشق بأن هذا الأخير يحث الحكواتية في المقاهي، على إثارة المستمعين ضد الأتراك. في الظاهر يتحدثون عن عنترة بن شداد وعبلة، إنما لا يُخفى على سامع أنهم يتحدثون بما يجرى في الواقع. يقال إن والد رشاد بات يؤلف لهؤلاء الروايات. وأن الإقبال على مسرحياته يزداد، والمقاهي تغص بالشباب الموالين لدعوة الشريف حسين. إثر المسرحية الأخيرة غدا حلم المملكة العربية في الشام على كل شفة ولسان.

★★★

بعد مقابلة نازلي، طلب منها نور الدين إبقاء المسألة طي الكتمان، كي لا يشغل بال الصبية. غير أنه لا يدرى لمَ، وعَمته تتأهب للخروج، نطق بتلك الجملة العرضية:

- يا عمتي، إن حدث وتزوجت وردة رشاد فلن تسكن مع أي كان، حماة كانت أم جدة. سيكون لها بيت مستقل، وميراثها كما تعلمين يؤمّن لها ذلك.

ضحكت نازلي وقالت:

- تخاف منى يا نور العين على من اعتبرها حفيدتي، وابنة أحب أخوتى إليّ؟

بعد خروج العمة، لفتت كاميليا انتباه نور الدين إلى سوء التفاهم الذى قد يقع من جراء ترك المسائل غامضة وإخفاء الحقيقة عن وردة. قلب نور الدين كفه كمن يقول إن الأوان لم يحن بعد لأكثر من هذا.

- سبق وقلت لك رأيي. الشاب هذا، فى الثامنة عشرة بدأ يرتاد بيوت العالمات، وفى التاسعة عشرة صار يقتنى واحدة منهن، وفى العشرين فتح لها بيتاً. عمتى هذه خربت عقل حفيدها. كان يجدر بى أن أسألها عن المحظية روزينا، ماذا حل بها وماذا سيكون مصيرها فى حال تمت الخطبة؟

- يا عزيزتي، ليس رشاد وحده من يقتنى عالمة. هؤلاء الوافدات مع كل باخرة لأجل من يأتين؟!

هزّ نور الدين رأسه وهو يقول:

- شيء مؤسف أن تتدهور الأخلاق لهذا الحد!

★★★

بعد خروجها من بيت نور الدين، عاود نازلى ذاك الشعور الذى قلما تصارح به نفسها: إنها لا تستسيغ هذه الفتاة. ولا ترى مبرراً لأن يصنع شيخ العائلة من يُتمها أسطورة فتغدو مدللة قلبه. ولا أن يصنع منها عزمى باشا معبودة تنسيه بناته وأبناءه. ولولا ميراثها، ولولا أن رشاد غارق فى هواها حتى أذنيه، ولولا... لما وجدت فى هذا الزواج تلك الفرصة الرائعة. حفيدها رشاد، تتمنى ابنة السلاطين أن يطلب يدها!

فى عودتها إلى البيت وجدت نازلى حفيدها على أحر من الجمر بانتظار الجواب. كبرياؤها أبى عليها الاعتراف بالفتور الذى لمسته فى موقف نور الدين، فاكتفت بالقول إن الخال يفضل تأجيل المسألة ريثما تنهى أخته دراستها، وتنضج بما يكفى لتحمل مسئولية الزواج. ولم تنس أن تذكر ما

قاله لها عن بيت الزوجية وضرورة استقلال وردة.

ورغم انزعاجه من موقف خاله، تمسك الشاب بالجملة الأخيرة. واعتبر نفسه، رغم التأجيل، خطيب وردة. وشرع يخطط لتأثيث بيت الزوجية على الطريقة الأوروبية التى تروقه. والآن، بعد مرور سنة، يزداد تفاؤلاً بما جاءت تخبره به جدته.

كاميليا، من ناحيتها، سألت وردة رأيها بالشاب وهذه ارتبكت. بذلت جهداً للملمة أفكارها، ثم أجابت صادقة إنها لا تكاد تعرف رشاد. تسمع عنه من العمة نازلي، إنما، بالنظر إلى فارق السن، لم يكن من شلة البنات والصبيان الذين لعبوا فى صغرهم معاً فى حدائق المنازل. فى السنتين الأخيرتين لمحته مرات قليلة فى زياراته لنور الدين. وإذ طلبت منها كاميليا أن تقابله ولو مرّة واحدة، لم تجرؤ على الرفض. كيف ترفض شيئاً لا يُلزمها كما قالت كاميليا بشيء؟

هكذا تمت المقابلة بين الشابين. وردة، انزعجت من طول الزيارة ومن أحاديث رشاد المملّة التى زادتها طولاً. بذلت جهداً للإصغاء فيما هى تفكر فى الورطة التى تلوح لها فى الأفق. تفكّر بحيلة تخلصها، وهو يسهب بالحديث عن التغير الذى سيحل فى البلاد. سيأتى حكام جدد ينهضون بشعوبها ويُدخلونها فى قلب المدنية. ستغدو هذه كما أوروبا. والناس سيبدلون زياً بزيّ وعادات بأخرى. سيخلع الرجال الطرابيش والنساء الملاءات السوداء، وسيأكلون بطريقة متمدنة فلا يغمسون أيديهم معاً فى الصحن ذاته. وحدثها بآداب المائدة، وبمسألة استخدام الشوك والسكاكين...

وذكرت له أن استخدم هذه الأدوات، إضافة إلى آداب المائدة هو، من صلب المنهاج المدرسي. التلميذات يتناولن طعام الغذاء فى المدرسة حسب الأصول تلك. وأجابها رشاد بتلك العبارة التى أزعجتها: ممتاز، قال.

يسعدنى أن تكون شريكة حياتى متمرسة هكذا بالآداب الجميلة، وأن تجعل بيتنا مثالاً للآخرين. كما أزعجها أن يثنى على حماستها للتعلم ودخولها المدرسة الأمريكية بالذات: يُقال إن الفتاة تتخرج منها سيدة بيت ممتازة، وسيدة مجتمع من طراز رفيع.

استوقفتها كلمة "طراز" التى كانت تسمع بها أول مرة. الكلمة تعنى بالتأكيد "ستايل" أو "ستاندرد" بالإنجليزية.

- توافقيننى يا وردة شاه الرأى أليس كذلك؟

- أوافقك على ماذا؟

- على طراز البيوت. ما يزعجنى فى بيوتنا الطريقة التى يضع فيها الناس الكنبات. يصفونها الواحدة جنب الأخرى مثل جنود العسكر! سآخذك إلى منزل أصدقاء لى إيطاليين لترى كيف...كما أريد أن أُسمعك يوماً "الدانوب بلو؟".

- أسمعتنى إياها كاميليا.

- ممتاز. وهلى تتدربين فى المدرسة على الرّقص؟

- نعم.

- من ناحيتي، تعلمت الرقص على يد مدرّس إيطالى يعيش فى منطقة الجميزة. من دواعى الأسف أننا لا نجد فتيات يرافقننا. بلادنا مازالت متأخرة. المتزوجة لا ترقص إلا مع زوجها، والعازبة إن رقصت مع شاب غريب أُعتبرت من الفاجرات!

★★★

لو قُيض لوردة أن تفصح عن حقيقة مشاعرها لقالت إن روحها تمقت هذا الشاب. وتمقت العجرفة التى وَرثها عن جدته نازلي. وكاميليا، تلح عليها أن تقابله ثانية، فلقاء واحد لا يكفى للحكم على الأمور.

وزاد فى الطين بلة أنها فى عودتها من المدرسة، عصر الجمعة، وجدت

سيدات العائلة مجتمعات يتحدّثن عن مسألة ما. ولحظة دخلت عليهن سكتن. ثم قالت نازلي:

ـ أهلاً بالعروس. مبروك يا عروس!

ورددت السيدات:

ـ مبروك يا وردة شاه. إن شاء الله نراك قريباً على مرتبة العرس. اجلسي يا عروس.

ارتبكت وردة وجلست على حافة الكنبة.

ـ خطبة ستطول، قالت نازلي. نور الدين اشترط أن تتم وردة الثامنة عشرة قبل الزواج، لمَ لا، الخطبة رباط أجمل من الزواج. سعادة بلا مسؤوليات! ليت زماننا وفّر لنا هذا! كانوا يطلبون يد البنت في العصر ويقرأون الفاتحة في اليوم التالي، وخلال أسابيع يجهزّون، ثم ينقلون العروس إلى بيت زوج لم تر وجهه من قبل.

– يا حسرتي على زماننا. كانوا يطلبون من العروس أن تغمض عينيها طوال حفلة العرس. العمة نازلي أول عروس في بيروت فتحت عينيها: "أريد أن أتفرّج على حفلة عرسي" قالت.

وراحت الحاضرات يتناوبن على استذكار فصول حياتهن:

ـ يا حسرة، أنا لم أقابل زوجي سوى بعد الزفاف. قالت الخالة نسب.

– ما من فتاة كان يسمح لها بمقابلة من سيكون زوجها قبل الزفاف، حتى وإن كان العقد معقوداً.

– حتى وإن كان قريبها وتعرفه من قبل. ما إن يطلب يدها، يصبح من العيب أن تراه!

ـ يا لتلك العادات!

– يا حبيبتي وردة شاه، أين كنّا في الماضي مما يجري الآن؟ حظكم رائع أن تعيشوا في هذا العصر. في زماننا حتى المسيحية، لولا الذهاب إلى

الكنيسة، ما كانت ستقابل خطيبها.

وسألت الخالة نسب:

ـ ومتى نحتفل بخطبة عروستنا إن شاء الله؟

ـ ما رأى العروس؟ سألت نازلي، قبل نهاية السنة المدرسية أم بعدها؟

–أين هو العريس الآن ؟ سألت الخالة نسب

– بعد مقابلة وردة سافر إلى دمشق ليبشر أهله. ولعله سيمضى هناك بعض الوقت.

وابتسمت نازلى ورفعت حاجبيها بصورة مُلغزة ثم أضافت:

ـ والعروس أعطته إذن السفر. شبان هذا العصر

لا يزعلون خطيباتهم! أليس كذلك يا حبيبتى وردة شاه؟

ما كانت فكرة الهرب مع المدرّس تخطر لوردة قبل انتهاء العام الدراسي، لولا ذاك اللقاء مع سيدات العائلة اللاتى تمنين فيه رؤيتها "عروس" على مرتبة العرس مع عريسها رشاد. العبارة التى أطاشت صوابها وخطر لها أن تنقلها إلى محبوبها بشارة. لكن كيف؟

لا تجرؤ على أن تخبره بها شفوياً خلال الدرس الإسباني. كان لسانها سيُعقد والأفكار ستتبخر والدم سينسحب من رأسها وتُصاب بالدوار. وهو من ناحيته، ومهما بذل من جهد، كان سيعجز عن الإصغاء. لذا رأت أنه من الأفضل أن تكتب. وحين سلّمته الرسالة، ولفرط اضطرابها، أدرك بشارة أن شيئاً بالغ الخطر يلوح فى الأفق! أسرع يفضّ المغلّف ويقرأ ما سيربط لسانه ويجعله يردّد كلمة "مستحيل".

أنهى القراءة وخرج. المفاجأة غير المتوقعة والعبارات التى وردت فى الرسالة عن خطبة لم يسمع بها وعن عرس قادم، وموكب تتقدمه سيارة الفورد، اتخذت فى نفسه أبعاداً مدمرة، خاصة وأن وردة ذكرت فى رسالتها أكثر من مرة اسم رشاد.

جنّ جنونه!

ومضى تائهاً فى الشوارع، غير راغب فى الوصول إلى مكان، مأخوذاً بذاك الاحتمال الذى يضرم النار فى الروح: أن تجلس محبوبته بالفعل على مرتبة العرس مع ابن عمتها الذى ذكرت فى الرسالة اسمه.

ووجد نفسه يمر بحقول برية وحدائق مسيجة. سيظل يمشى وإن وصل إلى مالطا! ولم يتنبه إلا ونباح يعلو ويقترب والكلاب تلحق به. تعثر ووقع ثم بذل جهداً لينهض. جلس بين الأشجار يلتقط أنفاسه. وفى جلوسه القصير خطر له أنه لن يرجع إلى البيت قبل أن يهتدى إلى الحل الذى من شأنه أن ينقذ حبيبته مما - كما قالت - تفضل الموت عليه!

نهض وتابع سيره. وإذ تجاوز التلال وبان له البحر، نزل قاصداً الشاطئ. وهناك جلس على الرمال. أضواء المنارة التى تهدى السفن الضالة

تمر فوق رأسه وتدور. ومن بعيد لاحت له فى عرض البحر سفينة متجهة إلى المرفأ، ولمعت فى خاطره الفكرة التى ستبدد جنونه. إنه هو المنارة والسفينة فى آن واحد. فإذا ما كان نور هذه يقود تلك إلى مرساها، فلا بد لعقله أن يهدى روحه إلى الحل. وإلا فمصيره ومصير محبوبته الهلاك. وتذكّر ما سمعه من صديق له، أن باخرة ستمر فى ميناء بيروت لتبحر بعد ذلك إلى أمريكا. هكذا تبلورت فكرة الهرب وعلى الفور اتخذ القرار وقفل عائداً ولا يدرى كيف وصل إلى البيت عند الفجر. اندفع إلى غرفته، تناول ورقة وريشة وجلس إلى طاولته يكتب لمحبوبته الرسالة التى ستغير حياتها وحياته. دوّن العنوان وسبيل الوصول إليه ومحطة الرسالة التى ينبغى أن تنزل فيها، إضافة إلى وصف الطرق الفرعية الأكثر أماناً والتى يُفضّل أن تسلكها. وفى المقابلة الأخيرة، سلّمها الرسالة: الباخرة ستمر يوم الأربعاء ببيروت وهى الفرصة الوحيدة للهرب إن كانت، كما هو نفسه، تشتهى أن يتحدا ذاك الاتحاد الأبدى السامى الذى يجدر بكل محبى العالم أن يسعوا إليه.

★★★

يوم الاثنين فى الرابعة عصراً تصل وردة من المدرسة. ترتاح قليلاً ثم تتحضر لقدوم المدرسة. لكنها اليوم تأخرت. لعل المدرسة "أليس" استبقت تلميذاتها لتعطيهن بعض المواد الإضافية. لكن والساعة تقارب الخامسة ووردة لم تصل، اقترحت ملك أن تذهب بنفسها إلى بيت قريبتها هدى لتسأل عنها. أما كاميليا، فلم يخطر لها احتمال الهرب، ولا أن تتفقد حقيبة السفر. لكن، والأفعال تسبق النيّات، أسرعت على الفور تتفقدها. وإذ اكتشفت اختفاءها تراءت لها خطورة الموقف! ورغم هذا اكتفت بأن تقول لزوجها العبارة التى فى أول الأمر لم يفهم من مغزاها القاتل شيئاً، تقول إنها لم تجد حقيبة السفر "الهافان" التى كانت معها فى شهر العسل. وذلك فى اللحظة التى كانت ملك تضرب باب هدى لتسأل، وهذه تقدم الجواب الذى بدا لها غير قابل التصديق! وردة لم تأت إليها نهار الجمعة كما وعدتها

لتدرسا معاً للامتحان، كما أنها لم تحضر اليوم إلى المدرسة! لعلّها ذهبت إلى الخياطة التى كانت تخيط لها فى المدة الأخيرة بعض الملابس...كلام أذهل ملك، وأعادها إلى البيت والذعر البيّن على وجهها يمهد للخبر الذى سيرمى الهلع فى قلوب الحاضرين!

★★★

ندم عظيم سيلحق بكاميليا بعد ذلك!

لو أنها فى حينه أفصحت عن هواجسها لاستبق نور الدين الخطر قبل وقوعه! ستدرك كاميليا، متأخرة، أنها، رغم مضى عشر سنوات على إقامتها فى هذه المدينة، لا تعى بعد الفارق بين ما هو غير مرغوب فيها، وما من شأنه أن يضرب عائلة فى الصميم، ضربة لا مرادف لها سوى كلمة العار. الكلمة التى لم تستوعب هى مغزاها، والذى تراءى شبحها المخيف لسيدّات البيت منذ أن وطأ رجل غريب عتبته. أشياء كثيرة عرفتها كاميليا عن المجتمع الجديد الذى وفدت إليه وعن حساسيات التعامل مع سكان البيوت الثلاثة، مكّنتها من الدخول إلى قلوب هؤلاء حتى غدت كأنها واحدة منهم. لكنها، وفى استسلامها لرفاهية الاحتمالات، غاب عن بالها الجوهر الذى لا يقبل أى احتمال. الجوهر الذى لم تقدّر هى خطورة المساس به: الشرف.

★★★

فى غمرة قلقهم، خطر لأفراد العائلة المجتمعين فى الصالونات أن تكون وردة، موجودة فى مكان ما فى أحد بيوت آل إسماعيل. إذ يحدث لها حيث تضيق بالجلوس فى غرفتها، أن تتمشى فى الحدائق أو تصعد إلى السطح تقرأ أو تلف على أقاربها. هكذا خرجوا، نساء ورجالاً وانتشروا فى أرجاء الحوش الكبير، وراحوا يدخلون البيوت ليسأل الواحد منهم الآخر:

- هل رأيت وردة؟

- لا.

- من منكم رأى اليوم وردة؟

- أنا لم أرها.

- قد تكون فى منزل أخيها شوكت.

- أو على السطح تقرأ.

وبدأت الهواجس توسوس لهؤلاء أن يكون اختفاء الفتاة مرتبطاً بحادث مأسوى أودى بحياتها! فالأشقياء من الفقراء الذين تزداد أعدادهم فى ضواحى بيروت يوماً عن يوم، باتوا ينقضّون على المنازل. يستفردون بفتاة عزلاء يخطفونها ويشنّعون بها. مثل هذه الفظائع لم تقع بعد فى بيروت، لكن، من يعلم؟ إذ ليس للأشقياء حدود، ولا عجب أن تقودهم الأطماع إلى اقتحام العاصمة ذاتها!

أما مخاوف ملك، فقد اتخذت منحى آخر، تصورت فيه وردة مغمى عليها فى زاوية خفية من زوايا الحديقة، تحت جب شجرة العليق أو غيرها من الأشجار. أو أن تكون غرقت فى البركة.

فى تلك الساعة قبيل المغيب، بدأ سكان البيوت المجاورة يتساءلون ما الذى "دهى" بعقل آل إسماعيل، لينتشروا هكذا، نساء ورجالاً، على السطوح وفى الحدائق بل وفى كل مكان، كأنهم يبحثون عن كنز! تساؤلات بدأت تنتقل من بيت لآخر، تزيد الجيران حيرة وفضولاً. ملك راحت إلى بركة المياه المخصصة لرى الحديقة ونزلت فيها. أبو سليمان قصد البئر، أزاح غطاءها وصار ينادي:

- وردة خانم، يا وردة خانم....

الصدى يُرجع النداء من أعماق البئر كما لو أنه آتٍ من آفاق بعيدة، حاملاً اسم الفتاة المفقودة:

وردة... خانم... وردة...

★★★

حملت وردة الحقيبة الجلدية التى اشترتها كاميليا فى رحلة شهر العسل، وخرجت من بيت أخيها، وفى زعمها أنها تفعل هذا إلى غير رجعة. تسير فى دربها مسرنمة مثل سائر فى نومه. كان عليها أن تركب الترومای لبضع محطات ثم تسير مسافة أخرى لتصل إلى بيت محبوبها وهى لم تكمل السابعة عشرة من عمرها بعد.

لو حدثوا وردة بالألم الذى سببته لرجال هذه العائلة الكريمة وسيداتها لما وجدت ما تضيفه إلى ذلك سوى التفكير فى شقائها هي. والتفكير بالاضطراب الفظيع الذى يلازمها منذ شهور. والإحساس القاتل بالذنب الذى بدأ ينهش روحها منذ اللحظة التى اتخذت فيها قرار الهرب. تعرف هول المحنة التى تنزلها بأناس تحبهم، إنما ليس فى وسعها شيء. فهى لا تقوم بما تقوم به طوعاً، بل تنفيذاً لمشيئة لا سلطة لها عليها. امتثالاً لصوت يأمرها بأن تفعل وهى تنصاع إليه بلا اعتراض. وربما كلمة اعتراض ليست الملائمة للحال الذى لبسها. فهي، منذ أن دخل أستاذها عتبة البيت، باتت أسيرة المشاعر التى ستلازمها طويلاً بعد ذلك. وفى أسرها الآن تدرك مغزى ما كانت تسمع به حول المُسيَّر والمخيَّر من الأفعال، ليتأكد لها أنّ ما تقوم به هو من الصنف الأول. مسيّرةً اختارت الهرب، عاجزة عن التراجع أو التمهل أو اتخاذ أى قرار غير هذا اللاإرادى المعذّب الذى وجدت نفسها ماضية فيه.

لو حدثوها وحدثتهم لتبين أنها لم تكن أقل شقاء من أهلها الذين نزلت بهم محنة العار. والفكرة التى تراودها وهى فى طريقها إلى دار حبيبها، كانت، إما أن يهربا بالباخرة التى ستصل خلال أيام، أو ينتحرا معاً بالسم فيخلّدا حبهما المستحيل إلى الأبد! وهى إن كانت تميل إلى الحل الثاني، فإنما حباً بأخيها نور الدين وزوجته كاميليا. صحيح أن أخاها سبق له أن وقع صريع الهوى، انهار وانطوى حتى كاد يمرض... وصحيح أن أباها لابد أنه فقد سلطان الأمر والنهى هو أيضاً، حين قرّر أن يتزوج أمها بوران التى

تصغره بعشرين عاماً. إلا أن عقلها رغم التشوش يعى الفوارق ويجسد لها الأثر المدمر لفعل تسدد به الضربة القاضية إلى عائلة تعبدها. من تلك الضربات التى تشق المحور وتهزم أمام الملأ فى أشد المواضع حساسية: الشرف. ووفاء منها لأخيها نور الدين مرّت على الدكان واستفسرت عن سم الفئران ، لكنها أجّلت شراءه ريثما تلقى حبيبها فيتخذا معاً قرار الخلاص.

★★★

كاميليا، بعد أن أعيت الحيلة النساء والرجال وخطرت لهم فكرة البحث عن ابنتهم خارج المنازل، خرجت عن صمتها. انفردت بنور الدين ولفتت انتباهه إلى سلسلة الإشارات، ومن بين تلك اختفاء الغطاء الصوف الأزرق الذى لا تفارقه وردة فى النوم صيفاً وشتاء ... الإشارات التى تفضى إلى ذاك الاحتمال: أن تكون وردة قد هربت مع مدرّسها. وعلى التوّ، توجه نور الدين مع أخويه، إلى محطة الترومای، يستفسرون من سائقه إن كان، فى جولاته، قد رأى فتاة مسلمة سافرة الوجه، أو إن كانت هذه قد ركبت القطار يوم الجمعة؟ ويسألونه عن الوجهة التى أخذتها يومذاك أو المحطة التى نزلت فيها؟

سائق الترام لا يفوته بالطبع أن يلاحظ وجود شابة فيه، فكيف لو كانت مسلمة؟ لكنّه فى واقع الأمر، وللوهلة الأولى لم يفهم تماماً ما قيل له. أن تكون مسلمة وكاشفة الوجه، فهذا ما يسمع به أول مرّة! من أين له أن يعرف دينها إذن؟ وإذ شرحوا له القصد أخبرهم أن الكاشفات اللواتى ركبن معه يوم الجمعة كن ثلاث سيدات متوسطات السن، وشابة. جميعهن من النصارى، كما يشير إلى ذلك الحجاب الخاص بهن والأيقونات التى تتدلّى على صدورهنّ. ذاك المساء لم يلاحظ وجود مسلمة كاشفة، وإن كانت مسألة غريبة قد لفتته: ففى مثل هذه الساعة المتأخرة، كانت إحدى الراكبات ترتدى الزىّ الأسود المعروف، الذى يحجبها عن العين. والغريب أن السيدة تلك، نزلت فى محطة "الفرير" لتسير فى أحد الشوارع الفرعية وتتوارى خلف بيت

مهجور. نعم، لفتته غرابة الموقف! أن تسير مسلمة، والشمس تتحضّر للغروب، فى حارة النصارى بمفردها! وخطر له أن يوقف الترومواى وينزل ليلحق بها ويعيدها إلى الحيّ الذى يجدر بها أن تكون فيه فى مثل هذه الساعة. أو يسألها عن مغزى سلوكها غير المألوف ويسألها إن كانت تحتاج إلى مساعدة؟ غير أنه عدل عن رأيه، إذ خطر له ألا تكون المسافرة المحجبة، امرأة بل رجلاً تنكر فى زى امرأة. لعلّه أحد أبناء الوجهاء ممّن أُدرجت أسماؤهم فى لائحة الإعدامات الأخيرة، قد تنكر للّحاق برفاقه الهاربين إلى مصر أو فرنسا. يقال إن باخرة ستصل. لا بدّ أن الفار المتنكر يرتب لسفر طويل، فليجأ إلى أقارب له أو معارف فى الشطر المسيحي، ومن ثم يتابع فراره. لا ريب فى أنّه من ذوى الجاه والنسب. تبيّن له هذا من الزاد الذى نسى قسماً منه فى الحافلة. ومن نوعية الأطعمة وأقراص الكباب الصغيرة المتماسكة والمعدة بإتقان. إتقان غير ملهوف على الأكل، حريص على أن يضاهى شكله لذيذ طعمه. فضلاً عن الأجبان: القشقوان التركى والحلّوم القبرصى والأبيض النابلسى والبلغاري. بلى، من الجليّ أن الهارب يتحضر لسفر طويل، خاصة وأنه كان يحمل حقيبة جلدية كبيرة، بنية بلون التنباك، من الواضح أنها من الصنف الرفيع!

★★★

فى بيت آخر من بيوت المدينة، يسكن زوجان فى عمر الشيخوخة، يتجرّعان بهدوء مرارة اللوعة التى أصابتهما، فيما ينتظران ملاك الموت ليريحهما من آلام هذه الدنّيا التى ما عادت تساوى بالنسبة لهما شيئاً. فى هذا البيت الذى يقع وسط حديقة ما عاد أحد يعتنى بها، قالت نصرة لزوجها شكر الله إنها تشعر بخطى فى الغرفة العلوية! خطى غريبة، كأن أحداً يلبس مشاية "ماريا" ويسير بها على الأرض، سيراً ناعماً خفيفاً مثل حفيف ورق الخريف فى أرض الحديقة.

ـ عجباً، قال الرجل لزوجته، فنحن فى الربيع!

- لكن حفيف المشاية يذكّر بسير ماريا على ورق الخريف.

تقول المرأة هذا وترجو من زوجها أن يصعد ليرى. فهي، وإن كان ما تشعر به غريباً، متأكدة منه. يجيبها زوجها بأنه لا يسمع شيئاً:

- لعل فأرة عبرت المكان. يجدر بنا أن نفعل شيئاً كي لا تسرح هذه القوارض المؤذية في غرفة ماريا.

- لكن ما أشعر به... أنصت، أنصت... ما أشعر به ليس فقط حفيف مشاية على الأرض، بل كأن روحاً آدمية عادت تسكن الغرفة. أنصت، أنصت، هل تسمع؟!

- باسم الرب. روح آدمية؟!

- هذا ما أحسّ به.

الرّجل الذي فقد منذ سنوات ثقته بسمعه، امتثل كلام زوجته وصعد السلّم وضربات قلبه تضج في قفص صدره. وما إن وصل وفتح الباب حتى فوجئ بما رمى الهلع في قلبه وجعله يتمتم باسم الأب والابن... فالرّوح الآدمية التي أحست نصرة بوجودها، يراها ماثلة أمامه! بهيئة أنثى! حسناء في عمر الورود ذات شعر طويل ظهرت عليه في الغرفة المغلقة! الغرفة التي ما زالت تعبق بالموت، والتي لا أحد يدخلها منذ سنوات إلا لتنظيفها أو لضرورة قصوى. لكنّ الجالسة على حافة السرير تنبئه بغير ذلك. السرير الذي شهد وفاة اثنتين من أغلى مخلوقات الكون على قلبه: ابنته ماريا التي ماتت في جائحة الدفتيريا وهي في مثل سن هذه الصبية وبقدر جمالها، وأمه التي بعد أقل من أسبوعين قضت غمّاً على حفيدتها.

أبو بشارة، حين وقع بصره على الفتاة تتسرّح بهدوء، كأنما تؤدي عملاً مألوفاً في بيتها، ولفرط لهفته، خالها للوهلة الأولى ابنته، وقد أعادتها إليهم قوى خارقة مسيّرة بالشوق العظيم. خاصة أن هذه، في جلستها، تقرّب طاولة التسريح من السرير، تتأمل في مرآتها تماماً كما كانت تفعل ماريا. ولفرحته، كاد ينادي امرأته لتأتي وترى ابنتها! وإذ رفعت الفتاة إليه عينين

زرقاوين بلون أعماق البحر، تأكد له أنّها غريبة عن الدار، تجلس فى غرفة الموتى ولا أحد غير الله يعلم كيف دخلتها!

كان من المستحيل عليه أن يتكهن بهوية المخلوقة طارئة الحضور أو بعلّة مجيئها، وإن كانت تبدو له أوروبية. فهى تشبه ابنة القنصل الفرنسى الذى لمحها ذات مرة فى الكنيسة. وكان قد سمع من بشارة بالأزياء الحديثة للأوروبيات. ملابس هذه وملامحها، توحى بأنها واحدة منهنّ، إلى أن فتحت فمها لتعلن بنفسها هويتها والسبب المذهل لوجودها فى بيته! أنا وردة شاه خطيبة بشارة، قالت بلغة عربية ولكنة محلية. والعبارة التى غايتها إيضاح الموقف، زادته فى واقع الأمر التباساً، فعاد يستفسرها، فيما شفتاه ترتعشان كصوتها وهى تكرّر: نعم خطيبة بشارة.

أن تخبره فتاة ذات حياء وعلى هذا القدر من الجمال والتمدن، أنها خطيبة ابنه، فهذا أدعى إلى الحبور! لكن، أن يكون ابنه مرتبطاً بفتاة من دون علمه، وأن تأتى هذه إلى بيته سراً وتجلس فيه جلوس أحد من أهله، فهذا ما ينذر بشيء خطير! هكذا، وبعد لحظات خاطفة من الغبطة بدأت تتراءى له الأبعاد الأخرى للنبأ لتصيبه بغَم فظيع. كان عليه أن يبذل جهداً خارقاً ليهدأ روعه ويعرف هل هو إزاء فتاة مخبولة ساقتها إليهم الأقدار، أم أنّ لوثةً أصابت ابنه العاقل الذى أتم الخامسة والعشرين من عمره ولم يُعرف عنه حتى اليوم إلا قوام السلوك... والفتاة تسأل فى صيغة الجواب:

- وأنت؟ أبو بشارة، أليس كذلك؟

زوجته تناديه من تحت بصوتها الضئيل لتستفسر عمّا وَجَد.

"نعم، أبو بشارة". بشارة... هذا الذى عدا بعض الحماقات، لم يبدر عنه شيء يوحى بالخبل أو الجنون. كما لا يعهده فارساً مقداماً يطير على صهوة جواد ليخطف من أهلها، فتاةً تدل هيئتها الرهيفة وحقيبتها الأنيقة على أنّها من الذوات! ووجد الكهل نفسه يسأل الصبية مجدداً كأنما ليتأكد من صحة النبأ المعذَّب الذى سمعه للتوّ: خطيبة بشارة ؟

- نعم. أنا وبشارة مخطوبان.

- مخطوبان؟

- نعم.

- منذ متى؟

- منذ شهرين وخمسة أيام.

- وأين هو بشارة الآن؟

- فى الدّير. قال سيسهر فى المكتبة وينام هناك لينهى ترجمة المخطوطة التى بين يديه قبل السفر.

- قبل السفر؟ أى سفر؟

- سفرنا أنا وهو.

- أنتِ وهو مسافران؟

- نعم بالباخرة. كنا سنسافر بعد غد لكن الرحلة تأجلت إلى الأربعاء القادم.

- تسافران الأربعاء التالى بالباخرة؟

- نعم. يقولون إنها سترسو الثلاثاء، والأربعاء يبدأ الناس بالصعود إليها.

- وإلى أين تسافران؟

- إلى الأرجنتين أو المكسيك. بشارة يفضل العيش فى بلاد لغتها إسبانية. وفى الباخرة، كما فهمتُ منه، سيزوّجنا خوري. وكادت تضيف: وأيضاً يزوّجنا شيخ، لكنها سكتت.

كان شكر الله قد سمع بوصول الباخرة يوم الثلاثاء، وإبحارها الأربعاء. إنما ورغبته فى إزاحة الكابوس الذى وقع فيه تتجاوز إذعانه للواقع، صار يشكك بما يسمع. ولولا الحقيبة الموضوعة فى زاوية الغرفة والتى هى من دلالات السفر... ولولا رائحة الطعام التى هى من دلالات البشر... ولولا أنّ الفتاة تنتعل بالفعل مشاية ابنته ماريا، لظنّ نفسه واهماً! ولظنّ أنّ المخلوقة

الجالسة أمامه، تنظر إليه بعينين ناعستين، طيف عابر ليس إلاّ. رؤية من رُؤى خياله المتعَب، ظهرت لتكدّر عليه صفاء ما تبقى له من أيام للحزن.

وكاد ينادى زوجته لتأتى وتساعده على فك اللغز! إنّما وخوفاً عليها تريّث. أفكار كثيرة خطرت له، لا يجد الطاقة اللازمة لتنفيذها. مثل أن يطرد الفتاة أو يوحى لها بالهرب. أو يشفق عليها من جريمة شرف تذهب ضحيّتها مثلما حدث السنة الماضية لجوليا بنت مخايل فى الحيّ الفوقاني، وكانت هذه قد أرسلت إلى حبيبها رسالة غمّست ريشتها بجرح فى ساعدها وتلقت منه جواباً مغمساً بالدم أيضاً. إذا ما كان لهذه المخلوقة أخ متشدّد أو ابن عم، فمصيرها بالتأكيد مصير جوليا. فليحمها منه إذن. ليخبئها فى منزله ويتبنّاها مدى العمر بديلاً لابنته ماريا. أو ليفعل شيئاً ينقذها من الهلاك. الأفكار التى ضربت خاطره المشوّش، كلها، وقبل أن يعرف أن الفتاة مسلمة من أصل تركيّ، تؤكد له حجم الورطة التى وقع فيها. وإذ لمح كتباً تحت السرير، ضرب برأسه ذاك الاحتمال الذى كاد يوقع فى النفس الهلع. أن تكون هذه هى التلميذة ذاتها التى يذهب ابنه ثلاث مرات فى الأسبوع لتدريسها. نعم واسمها المقرون بكلمة شاه من الدلائل على ذلك!

يا ربّ السماوات!

وتذكّر ضيقه آنذاك من فكرة أن يدّرس ابنه فتاة. أن يجلسا بمفردهما فى غرفة! صحيح أنّ بابها كما أكّد له، يبقى مفتوحاً، وأنّ زوجة أخ التلميذة تدخل وتخرج، وأنّ تلميذة أخرى انضمت إليهما فى الآونة الأخيرة... لكن الصحيح أيضاً أنّ لا شيء يغزى الشيطان بأن يعبث ويفتك قدر أن يرى امرأة ورجلاً مجتمعين. وسأل أبو بشارة الفتاة عما تقرأ، وهى على الفور أجابت: قصيدة للشاعر المتصوّف "ابن عربي". فتناول منها الورقة وقرأ:

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبةُ طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه، فالحبُ ديني وإيماني.

وعلى الرغم من أن القصيدة تتحدّث بوحدة الأديان وبالنظرة الكلية للعالم، فإنّ "كلية" الموقف، تدقّ للكهل أجراس الخطر. تنذره بواقعة رهيبة، يتراءى له حدوثها في المدى القريب.

★★★

حدث اللقاء أحد أيام الاثنين من عام ١٩١٤، ذاك الذى لن ينساه أبوبشارة فى حياته أبداً، والذى لولا فجيعته بابنته، ولولا أن الحرب الكونية تدق على الأبواب ، لاعتبره من أقسى تجارب حياته. ووجد نفسه يغلق باب الغرفة ويجلس على الكرسى الموضوع عند مدخلها يلهث. لا يدرى ماذا يقول لزوجته التى تكرر من تحت ندائها له. وإذ سمع وقع قدميها صاعدة نزل وارتمى على الدّكة. وركضت هى تجلس بجانبه تسأله ماذا وجد؟!

- فأرة؟
- لا.
- جرذ؟
- لا.
- قطة؟
- لا.

ماذا إذن؟

- لا أدرى ماذا أقول.
- عفريت؟! جن! يا إلهى جنّ فى غرفة ماريا؟!

والد بشارة يردّد "لا أدري" فيما يلتفت إلى هذه الناحية وتلك واضعاً كفّه

على صدره، خشية أن يصاب بعارض. أفكاره المشوّشة توحى أنه على وشك الإصابة بالسكتة الدماغية، لكنّ ضربات قلبه تنبئ بالقلبية منها. لسانه مربوط، فيما يحاول أن يستنجد بالسيدة مريم وبابنها يسوع ويستنجد بربّ السماوات: يا ربّ. أرحمنا. يا رب نجنا. يا ربّ. ارفق بنا! وانتقلت حالة الفزع منه إلى زوجته، فاتسعت عيناها وعلا لهاثها حتى غدا مثل فحيح منفاخٍ فى النار! تتمسك بذراعه كما يتمسّك هو بذراعها، كلاهما بتقاسيم مشطورة يستعطف الآخر أن يقول شيئاً! إذا ما كانت المسألة مخيفة لهذا الحد فماذا يمكنها أن تكون؟ وسمعته يقول: فتاة.

ـ فتاة؟!

ـ نعم فتاة... فوق فى الغرفة.

ـ اسم الرّب... ومن تكون هذه الفتاة؟!

ما زال أمل ضئيل يراوده أن يكون كلّ ما يجرى له من ضروب الكوابيس، وإلاّ فكيف لم يشعر، ولا زوجته شعرت بدخول آدمية إلى البيت؟

ـ يا إلهى مَن تكون هذه الفتاة؟

ألقت نصرة السؤال كأنما تلقيه على نفسها وهى تضرب كفاً بكف.

ـ تقول إنها خطيبة بشارة.

ـ خطيبة بشارة؟!

ـ هكذا تقول واسمها وردة شاه.

ـ لابد أنّها مجنونة.

ـ لا يبدو عليها ذلك. واسمها التركي...

ـ مجنونة حتماً. منذ أن فتحوا مصح المجنونات وهؤلاء يهربن. لابدّ من إعلام الدير.

ـ لا أظن. ربما علينا أن نفعل شيئاً آخر...

تفوّه شكر الله بتلك العبارة فيما أسند رأسه إلى كفه، يحاول تبديد الاحتمالات المخيفة التى تلوح له، وسمع نصرة تقول: لازم أن نستدعى

الدرك.

- الدّرك؟ مجنونة. سيرمون ابنك فى السجن. من يخلّصه بعد ذلك؟

يقول هذا ولا يجرؤ على كشف الفكرة المرعبة التى لبسته، والتى تتجاوز خطورتها مسألة السجن. العائلات المتشدّدة لا تكتفى بقتل الآثمة لغسل العار بل تصر على قتل شريكها فى الإثم، لتمحو كلّ أثر للفعل الشنيع الذى قاما به. مثلما حدث لحنّا الجوني. وهو لا يعرف إن كانت عائلة الهاربة من ذاك النوع. على حدّ علمه فإنّ الأتراك بالنسبة لمسألة الشرف يفوقون العرب تشدّداً. إذا ما كانوا فى السياسة يشنّعون هكذا بالمتهمين فما بالك فى مسائل الشرف؟ التفت إلى زوجته وقال: نصرة، أحضرى لى الكتاب من المكتبة.

- أيّ كتاب؟

- أيّ كتاب عن الأتراك. عن العثمانيين. أين هو ابنك بشارة الآن؟

يسأل ويكرّر السؤال لنفسه: أين هو بشارة الآن؟

- لا أدري.

- روحى ابحثى عنه.

تأكد للمرأة أن مسا أصاب زوجها ليسألها أن تحضر كتابا عن الأتراك وهى أمية تحفظ ولا تقرأ. وليسألها أن تبحث عن بشارة وهى تجهل مكانه. ويطلب حضور ابنه لينتقم منه كما اعتاد أن يفعل قبل سنين. سينتقم منه، لا لشيء إلا لأن مجنونة هربت من المصح، اقتحمت البيت وسكنت فى غرفة ماريا. لكن ما ذنب بشارة؟

لم يكن حدس نصرة فى غير مكانه!

كان زوجها فى تلك اللحظة، يتمنى أن يلحق بابنه إلى الدير، ويخلع حزامه الجلدى وينهال عليه به كما كان يفعل قبل سنوات. بل كما فعل فى المرة الأخيرة التى لام نفسه عليها كثيراً والتى ثارت لها كرامة الابن فهاجر. توارى عن أهله سنوات لا يتصل بهم ولا هم يعرفون إن كان حياً أو إلى أية

قارة وصل؟ ولولا وفاة أخته ماريا لما رقّ قلبه وعاد. ليت قلبه لم يرق. ليته لم يرجع ليقع فى غرام سيؤدى به إلى حد السكين. أين هو بشارة الآن؟ الفتاة تقول إنه فى الدير. قولى لابنك المجنون ألا يتحرك من مكانه. قولى له أن يختفى تحت سابع أرض.

- إذا كان فى الدير فكيف لى أن أقول له ذلك؟

- لابد أن تبلغيه، وإلا فمصيره مصير حنا الجوني.

- مصير حنا الجوني! يا رب السماوات ألطف!

قالت نصرة هذا، وأمسكت رأسها بكفيها، وهبت واقفة تلوح بجسدها النحيل إلى هذه الناحية وتلك. تئن وتردد: "حنّا الجوني؟! يا رب ارأف بعبدتك نصرة. يا رب لا تتخل عنا. حنا الجونّي؟! يا رب نجنا من الشرير. ثم تناولت "تكاية" وضعتها على معدتها فيما طوت جسمها حتى كادت تركع على الأرض. كانت ستظل مطوية هكذا، لولا الصورة الرهيبة التى ألمح لها زوجها، والتى جعلتها ترمى التكاية وتسرع إلى النافذة تنادى الجيران:

- عبدو، عسّاف، يا عبد الله، يا أم عبد الله؟!

لسماعه استغاثة الجارة وصل عبد الله راكضاً.

هب أبو بشارة من مكانه وتناول ورقة وقلماً وبخط مرتعش كتب: "يا مجنون، إياك أن تظهر فى أى مكان. ابق حيث أنت. أو اختبئ تحت سابع أرض".

أنهى شكر الله الرسالة المتقضبة وكاد يسلّمها لعبدالله، إنما خطر له ألا تكون مفهومة لابنه خاصة إذا ما كان بريئاً كما تزعم نصرة. أن تكون الفتاة هى حقاً الدارسة ذاتها، إنما مجنونة وقد صوّر لها جنونها أشياء، فجاءت من تلقاء ذاتها وتسلّلت إلى غرفة ماريا لا أحد يعرف كيف! أن يكون خيالها المريض ابتكر لها حكاية حبّ وسفر لا علم لبشارة بها؟ هكذا مزّق الأب الورقة وشرع يكتب رسالة أخرى أكثر رصانةً تقول، "ولدنا بشارة. هناك فتاة تقول إن اسمها وردة شاه، تزعم أنها خطيبتك، تسلّلت إلى البيت

وتسكن فى غرفة...".

وقبل أن يكمل الجملة، رأته نصرة يتوقف عن الكتابة، ويهرول إلى فوق، يتعثر فى صعود السلّم ثم ينهض ليدخل على الزائرة، يستفسر منها إذا كان بشارة نفسه على علم بوجودها فى البيت ؟ إذّاك ناولته وردة الرسالة التى تركها حبيبها. كان يكفيه أن يقرأ الفقرة الأولى منها ليتأكد أن ابنه ضالع فى هرب الفتاة، ويبقى يوم الاثنين مسجّلاً فى ذاكرته مثل يوم وفاة ماريا. نعم، باعتباره اليوم ذاته الذى أرسل فيه المطران إليه عربة ورسولاً، يستعجله الحضور على جناح الطير، ليسأله عن فرار الشابة المسلمة وردة شاه ابنة الباشا عزمى اسماعيل واختبائها فى بيته للزواج من ابنه بشارة ؟

★★★

حدث استدعاء المطران رب البيت فى الثامنة ليلاً. ورُسمت تلك الواقعة فى السجل المشئوم لحياة وردة وفى نفسها المختلجة بالذعر. ذعر شاةٍ يقودها الجزار إلى نهايتها. كثيرات نُبحن فى مثل هذا الموقف ولعلّها وهى تُعاد إلى بيت أخيها، ستغدو بعد قليل واحدة منهن.

قرابة منتصف الليل، وصل رجلان وبرفقتهما "الأخت إليزابيت"، ليعيدوا الهاربة إلى نويها. وعند وصول العربة فُتح لها الباب الخلفى المؤدّى إلى الاسطبل، لتُساق الهاربة مباشرة إلى القبو الذى ستُسجن فيه، وتُسلَّم الراهبة رسالة من المطران إلى نور الدين أفندى يؤكد له فيها باسم الرب "أنّ الفتاة عادت إليهم طاهرة روحاً وجسداً، كما كانت، وكما القديسة مريم سيدة عذارى العالم. وأنه، إبان وجودها لدى عائلته، لم يطأ الشاب باب البيت مرة واحدة. كان هذا من سمات النبل الذى عُرف به، رغم تهوّره غير المتوقّع والذى لا أحد سوى الله يفهم مغزاه".

ولولا جلبة العربة وسنابك الفرس وغياب الصبية ثلاث ليال وأربعة أيام، هرباً سبقه بحث غامض عن كائن ضائع فى محيط بيوت آل إسماعيل، لولا ذلك، لسارت الأمور حسب المشتهى ولما ساور أحد شك فى شيء.

فى اليوم التالي، جاء المطران واختلى بنور الدين ليعتذر باسم عائلة بشارة، ويشرح له أن ما حدث لا يعدو كونه تهوّر طفلة لم تنضج بعد. وليوضح أن والد الفتى، لولا الحرج ودقة الموقف، لجاء معهم ليعتذر بنفسه عن فعلة ابنه الشنيعة. ويؤكد من جانبه أن ابنه لم يظهر دقيقة واحدة فى المنزل إبان وجود الفتاة فيه. ورغم هذا فالمطرانية قبضت على الشاب وسجنته فى أحد الأقبية ذات السقف المنخفض، والتى لا أحد يصل إليها سوى الملخص. وقد يبقى وحيد أهله سجيناً مدى الحياة إرضاءً للأفندى وعائلته. نعم، لن يُفرج عنه إلا حين يأتيه طلب العفو من وليّ أمر الفتاة نفسه. ولم يفت المطران أن يعطى نور الدين النصيحة ذاتها التى سبق أن أعطاه إياها مفتى بيروت. أن يتكتموا بأمر الهرب. أمّا وقد شاع، فمن الحريّ بهم أن يعزوه إلى لوثة فى عقل الشابة، هذا الذى أثقلته نظريات الفلسفة والعلوم. نظريات ينوء بحملها الرجال، فكيف يحتملها عقل أنثى صغيرة السنّ؟

كان ذهول العائلة وغضبها، أفظع من أن يمكنّها من القيام بأى دور غير الدوّر الشيطانى الذى يلاعبها فيه القدر. ما عاد بإمكان رجالها، ونفوسهم تغلى بالغضب، سوى التفكير فى الحل الذى لا حل سواه: غسل العار بالدم. وفى اليوم التالى حين بكّروا فى الذهاب إلى أخيهم الأكبر، لم يفعلوا هذا ليستشيروه، إذ تراهم على يقين من موافقته. ولا ليسألوه عن المتطوّع للفعل، فكل منهم متطوّع له. ولا ليرسموا خطة تُبقى الفاعل مجهولاً، كما نصحهم قريب عارف بأمور الجنايات، فأمنية كل منهم أضحت الإشهار. وإنما راحوا إليه ليطمئنوه، إنّهم على عهده بهم، رهن الإشارة، وعلى استعداد ليقوموا جهاراً بالفعل الذى من شأنه أن يطهّر اسم الأشراف، آل إسماعيل، من الفضيحة مرّة واحدة وإلى الأبد.

★★★

وردة من سجنها تصغى إلى ما يُقال فى ديوان أخيها بشأن قتلها. وتجد

نفسها فى حالة قبول قلّما مرّ به مُحكوم بالموت. قبول تتفهم فيه موقف هؤلاء الرجال المجروحين فى كرامتهم والمطالبين بذبحها، تفهمّها فرارها من البيت واللّحاق بحبيبها. كل منهم مُحقٍ بما يفعل ولا لوم فيه على أحد. وإذ تشعر بخبط الأقدام الذكورية الغاضبة، تعرف أنهم جاءوا يتشاورون. رواح ومجيء نساء العائلة المذعورات، ووقع قدمي كاميليا التى تعبدها، يلوح لها بخطورة الموقف. وحين سمعت أصوات الاحتجاج والتهديد، شمّت رائحة الموت، ولمع حدّ السكين أمام عينيها لمعاناً نفذ إلى عتمة القبو. السكين التى ستجز رأسها عن جسمها. لا تخاف الموت الذى باتت مستعجلة قدومه، بل ترتعش من مواجهته وتحزن للغمّ الذى سيصيب حبيبها. ولمّا تناهت إليها معارضة نور الدين فهمت أنه يفضل أن يذبحها بيده. عقلها لم يصدّق، لكنّها صارت تتخيّله داخلاً القبو هائجاً هياج ثور، يسحبها من شعرها ويجزّ رأسها مثلما يذبح الجزّار النعجة. لا تلومه. وإن استعطفته فإنما ليأذن لها، فى رحمته، بأن تنهى حياتها بنفسها بسمّ الفئران. نعم، أيّ غدر نزل به على يدها، هو الذى لم تر منه سوى الحب؟ وإذ أدركت أن الانقسام فى المواقف يؤجل نهايتها، صارت تستحلف الخادمات أن يأتينها بالسم لتأخذه وتخلص. تركع أمام زوجة أخيها وهذه تحتضنها وتبكي. وهى تفهم مغزى بكاء كاميليا الآتية من قارة أخرى كانت ستبارك هذا الحب، كما بارك أبوها جرجى زواجها من مسلم. القارة التى سبق لحبيبها بشارة أن عاش فيها سنوات وكانت الباخرة ستتجه إليها يوم الأربعاء... كل شيء كان سيسير على ما يرام لولا أن الباخرة غيّرت وجهتها، وبدل أن تأتى إلى بيروت واصلت رحلتها إلى الإسكندرية.

كان على كاميليا أن تكون شديدة الحذر فى الليل كما فى النهار لئلاّ يخطر فى بال إحدى السيدات أن تؤدى للسجينة الخدمة المطلوبة وتزوّدها بالسم. وهؤلاء، اللواتى يواجهن للمرّة الأولى فى حياتهن فعلاً غريباً عليهن، "جريمة الشرف"، كن منقسمات على ذواتهن. يعرفن بالعقل أن جريمة مثل

هذه لا تشبه آل إسماعيل. لكن النفوس التى هزتها الحادثة تجنح رغماً عنها للبحث عن الحل. سواء الذى يهدد به الرجال أم ذاك الذى تشتهيه وردة والذى بتنَ يفضّلنه على سائر الحلول. فالأحوال الصحيّة للشابة، مثل القيء والامتناع عن الطعام وكثرة الدخول إلى الحمام، تنذر بأفظع احتمال، ولا تترك لديهنّ شكاً بفائدة أن تتجرّع العاصية السّم بنفسها. كان يمكن للعمّة نازلي، إنقاذاً لشرف العائلة، أن تزوّد وردة بما تريد، لولا خشيتها من أن تُتهم بقتلها انتقاماً لرشاد. لا تعلم أنها فى يوم قريب ستسجد تقبل الأرض على أنها لم تفعل. إذ لو ماتت وردة، دون أن تقابل القاضى عزت باشا، كانت هى سترى حفيدها الذى تعبد معلّقاً على حبل المشنقة التى يخيّم شبحها على هذه المنطقة المضطربة من العالم.

لكثرة ما هجست وردة بالانتحار، وصارت تطالب باللّحاق بيوران، بات هذا الاحتمال ماثلاً فى الأذهان بما فيه الكفاية لإقناع السيدات بإمكانية حدوثه. وغدت هؤلاء، ولا سيما الخادمات، متحضرات للواقعة. الواحدة منهن تتخيل نفسها فاتحة باب القبو لترى الشابة الجميلة ممددة على الأرض دون حراك! أو منكمشة فى فراشها تتلوّى، أو راقدة تحت الملاءات بلا نَفَس. صافيناز، تروح وتجيء بين الغرف ضاربة كفاً بكف، تتساءل عن الواعز الذى أغوى فتاة بريئة براءة مريم العذراء، ومؤهلة لأن تغدو علماً من أعلام الأدب فى سماء بيروت وبلاد الشام. ونازلى تلوى برأسها وتتساءل، أى شيطان حوّل الفتاة إلى وغدة تفتك بسمعة العائلة وبناتها. أيّ رجل من العائلات سيرضى بعد الآن أن يتزوج بواحدة منهن؟ ملك التى لا يغيب عن بالها مغزى التلميح، تحاول أن تقول شيئاً لكن عمتها تقاطعها. "فالوغدة بفعلها الشنيع دكت موقع العائلة السياسى أيضاً. موقع نور الدين ومستقبل رشاد. ألا يكفى حفيدها وشاية الواشين به إلى الباب العالي"؟

بقدر ما تخيّلتها النسوة مقتولة بالسم تخيّلها الرجال مذبوحة بالسكين. ولكم اقتحم الواحد من هؤلاء، فى خياله، القبو بغية تحويل المشهد إلى واقع.

والد الأطفال الهائلة التى طلبت كاميليا تثبيتها فى الأبواب، والتى قبل أن ... تخبّئ مفاتيحها فى أمكنة لا تخطر فى بال، تغيّرها يوماً بعد يوم، لولا ذلك لحقق المطالبون بالثأر الأمنية التى تشتهيها نواتهم الهائجة المجروحة.

★★★

لكن، لا خيال النسوة أصاب ولا أمنيات الرجال. فالأخ الأكبر الذى هو فى مصاف الأب، الأخ الذى يملك مقاليد الأمر والنهي، رفض. قال لا. قولاً قاطعاً مانعاً .

"لا"

وبالهدوء الذى عهدوه به، دار على وجوه الحاضرين بنظرات تنذر بالويل. وفجأة تحوّل الهدوء إلى بركان. نهض وخبط الطاولة بقبضة بدت لهم رغم الكهولة من حديد. يخبط ويزأر بصوت أوقع فى القلوب الرجفة! يقسم ويهدد كل من تسوّل له نفسه أن يمد يده بالسوء على وردة شاه.

يدرك نور الدين، أنه منذ اليوم المشؤوم بات واقعاً فى محنة، إذ نزلت به فضيحة يعجز عن احتمالها عجزه عن الانتقام من مرتكبتها. يعرف بعقله أن لا رد لاعتبار العائلة ومكانتها بين الناس سوى بقتل وردة. لكنه، منذ اللحظة التى اجتاحت الفكرة خياله سارع إلى طردها فى الحال. لا لأن كاميليا ركعت تقبل يده وتستجديه العفو عن الفتاة المسكينة. أو أنها هدّدته بالرّحيل إلى الأرجنتين إن هم قتلوا وردة... بل لأسباب أخرى لا تمكّنه روحه المنهكة من بلورتها. فمنذ الحادثة ما عادت تعنى له الأشياء، ولا حتى كاميليا، ما كانت تعنيه من قبل. وما عاد يعنى له هو شخصياً رحيلها أو بقاؤها. ولا يأبه لحجتها بأن الفتاة فى عقلها لوثة. فالجرح الذى أصابه ليس من ذاك النوع الذى يقبل الجدل والمبررات. هذا ما لا تفهمه كاميليا ولا يستوعبه عقلها الأجنبي، مما يشعره بأن جداراً سميكاً بات يفصله عنها. صحيح أنه لا يأخذ بالشائعات ولا تنطلى عليه التافهة منها والقائلة إن المرأة

الغريبة هى التى سهّلت هرب ابنتهم إلى رجل من دينها ومن القارة التى جاءت منها، وأنها بالسر عنه كانت تشرب ولديها أفكار الدين المسيحي، لكنّه رغم عدم التصديق ما عاد يأمن جانب كاميليا بالنسبة لأخته. والرجاء الوحيد الذى لبّاه لها بعد ذلك هو نقل الفتاة من القبو إلى البيت. إن كانوا يخشون عليها ثانية من الهرب، فلينقلوها إلى الغرفة التى تطل نوافذها على صحن الدار.

جيء بالنجار فأعاد تثبيت قواطع الحديد المخلوعة للنافذة المطلة على سور الحديقة، وأزاح الدرف الخشبية للنافذتين الأماميتين مُبقياً على الزجاجية منها. إجراء سيسهّل الرؤية من الناحيتين ويريح كاميليا. نعم، بات فى وسع السجينة أن تطلّ منهما على الدار الواسعة المكشوفة، فتنتعش روحها وتتنفّس الهواء الطلق وتتسلّى برؤية بركة الماء والنافورة. أو تتبادل تحيّة أو جملة عابرة مع سيّدات البيت إن هى رضيت بذلك.

كان يلزم هؤلاء أن يستعطفنها كثيراً لتفعل. فالسجينة، هرباً من اقتحام النظرات الثقيلة عليها، دأبت على الجلوس فى أمكنة تحجبها عن عيون الرائحات والغاديات أمام غرفتها. صارت ترقد على الأرض خلف الباب أو فى الزاوية البعيدة التى تعجز المتلصصات عن بلوغها. وإذا ما نودي عليها رفضت الإجابة. الأمر الوحيد الذى كان لا مفرّ منه ، هو الذهاب إلى الحمّام.

وحدها كاميليا من السيدات، ترضى وردة بدخولها لماما الغرفة والجلوس معها. ومن الخادمات حليمة. كان ذلك قبل أن يتراءى لها المنام المشئوم الذى جعلها متوجسة من سكان البيت جميعاً: أن يقتحم أحد الغرفة ليلاً ليقتلها وهى نائمة. أو أن يمدّ يده من النافذة ويطلق عليها الرصاص فى النهار. ففى تلك الليلة الرهيبة تراءى لها ناطور المدرسة مداهماً مخبأها رافعاً الساطور، وفى الظلام الدامس، سحبها من شعرها وجرّها على الأرض وكاد يهوى على عنقها! عجباً الوجه وجه الناطور لكن الملابس مختلفة. كادت

تموت من الهلع. وصارت بعد ذلك تطالب بالمفتاح لتقفل بابها من الداخل، وتطالب بمقعد "المدّ" الذى جعلته متراساً فى النهار وسريراً فى الليل، بدل ذاك النحاسى العالى المشّرع أمام الشباك.

وفى تلك الفترة، تراءى لوردة المشهد الذى اعتادت رؤيته منذ أن فتحت عينيها على الحياة: أزواج الحمام تحط على حافة البركة، تتناول الماء بمنقارها، تهدل وتطير. وقد تأتى وتحط على حافة نافذتها. إنما تفعل ما تفعل لتؤنس وحشتها. ودأب سكان البيت على سماع السجينة تناجى اليمامات قصيدة بصوت حزين وإيقاع يفوقه حزناً:

أقول وقد ناحت بقربى حمامة
أيا جارتا لو تشعرين بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالى أقاسمك الهموم تعالي.

نور الدين، من ديوانه العلوي، يتمنّى هو أيضاً مناجاة تلك الطيور بلسان الشاعر "أبى فراس الحمداني". الآن أكثر من أى وقت مضى يستعيد الحالة التى عاشها ذاك الرفيق قبل عشرات المئات من السنين، ويستعيد أبيات قالها، وترددها أخته من خلف النافذة فى الطابق الأرضي:

أيضحك مأسور وتبكى طليقة؟
ويسكت محزون ويندب سال؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مُقلةً
لكنّ دمعى فى الحوادث غالي.

★★★

منذ أن ساوره الشك بهرب أخته، أدرك نور الدين أبعاد الورطة التى وقع فيها. ورطة الأبوة التى حمّله إياها عزمى إسماعيل قبل أربعة عشر عاماً، وهو على فراش الموت. حتى اليوم يتراءى له وجه أبيه متهالكاً ، يستحلفه أن يرعى أخته الصغرى، التى بموته ستغدو يتيمة الأب بعد الأم. يذكّره كيف

فارقتها أمها وهى بعد رضيعة، ولحمها طري، وجلدها لرقته يكاد الدم ينزف من مسامه. الرجل القوى الشامخ، فى النزع الأخير، يستعطفه. كما يرجوه الآن أن يجنّب أخته الانتقام. "فالله حلّل ذبح الماشية فقط. ألا تعرف حكاية سيدنا إبراهيم؟

- بلى يا أبتِ أعرف.

- إذن اذهب يا بنى إلى الحج، واذبح ما شئت من خراف والله غفور رحيم".

نعم، سمع الكلام بصوت أبيه. صوت يختلط فيه الأمر بالرجاء: "لا تدعهم يقتلونها، فأنت من بعدى الأب الذى يحافظ على الروح... لا تدعهم..."

وما لبث صوت الأب أن علا وضجّ فارتجّ المكان وارتعد الابن لصدى الضجيج: "والله يا نور الدّين إن تركتهم يفعلون فلست ابنى ولا أنا أبوك. إن تركتهم يفعلون فستنزل بك لعنتى إلى يوم الدين. إن تركتهم.... "

لسماعه ذلك، خشعت روح الابن. وبكل الانصياع سأل:

"يا أبت، ماذا تريدنى أن أفعل؟ مرنى وأنا خادمك". وسمع أباه يجيبه بصوت حنون:

-"يا نور الدين، ضع أختك فى مكان آمن، وشدّد عليها الحراسة ، ودّبر لها ابن الحلال يتزوجها ويسترها على سنّة الله ورسوله".

ووجد نفسه يتساءل:لكن من سيرضى بعد الحادثة أن يتزوّجها؟

- رجل من الدار.

- من الدار؟

- نعم.

وفيما هو يردّد هذا نهض نور الدين والفكرة قد تبلّورت فى رأسه: "إن كان هناك من رجل شهم جدير بأن ينقذ سمعة العائلة وشرف وردة، رجل من الدار... غيور يلبى رجاء عزمى إسماعيل، فالأجدر به أن يكون خطيبها نفسه: رشاد".

... إلى كاميليا بأن تأتي. وطلب منها أن تستدعي عمّته نازلي. هكذا يضرب بحجر واحد عصفورين. يزوّج وردة ويبدأ يدّرب رشاد على شؤون السياسة. صحيح أنه كان يجدر بنازلى أن تبادر لعرض الحلّ، إنما فى موقف مثل هذا قد لا تجد نفسها قادرة على التفاوض.

★★★

بلغت الدعوة نازلى وفهمت على التوّ القصد.

الوضع دقيق، ومن ناحيتها لا مانع لديها من إتمام الزواج لكن ماذا سيكون موقف رشاد؟ وبعد تردّد أرسلت تقول إنها آتية بعد الظهر، لسماعه الجواب تنهّد نور الدين، ووجد نفسه يأخذ عليها العهد: إذا سارت الأمور على ما يرام، وتم زواج وردة من رشاد، فسيحقق رجاء والده، ويصحب زوجته سنيّة ليحجا معاً إلى بيت الله الحرام.

★★★

فى دمشق، تلقى رشاد برقية من جدّته تقول: "تطورات حدثت بشأن الخطبة إحضر حالاً ضرورى .. المرسل جدتك نازلي".

هكذا، وعلى وجه السرعة عاد الخطيب إلى بيروت. أول دخوله المدينة ومروره ببعض معارفه، لفته أنّ هؤلاء يبدون متعكرى المزاج! يحادثونه على وجل كأنهم على أهبة أن يخبروه بأمر خطير! مثل أن تكون الحرب الكونية التى طارت الشائعات بشأنها قد بدأت. وتذكّر مسألة "المظاريف" التى وردت من اسطنبول إلى الولاة مختومة بالشمع الأحمر، مع الطلب إليهم عدم فضّها بانتظار أن يأتيهم الإذن الرسمى بذلك! كان قد رأى بنفسه عدداً من تلك المظروفات لدى ميكائيل، مدير البوسطة فى دمشق. وسمع من محمّد علي، ابن عمّته، أنّه رأى مثيلاتها فى القدس. الآن، والوجوم يطالعه على الوجوه، يخيّل إليه أنّ الأمر بفتحها قد أُعطي، وأنّ ناقوس الحرب بدأ يدق. فى دمشق، ولغاية البارحة، لم يكن قد سمع بشيء! وخطر له أن يستفسر من محدّثه لكنه عدل. كان مستعجلاً الوصول إلى بيت جدّته غير راغب فى

أن يزعجه أحد بشيء. عجباً! قبل خطبته وردة كان يتمنّى قيام هذه الحرب لإزاحة كابوس العثمانيين عن صدر العرب . والآن، خارج مشروع الخطبة وشركات يحلم بتأسيسها، ما عاد يحلم بشيء!

فهم رشاد من جدّته أن خاله نور الدّين قرّر جعل الخطبة منذ الآن رسمية. الفكرة ذاتها التى خطرت له ساعة تلقى البرقية! من شأن هذا النبأ أن يجعله أسعد شاب فى الدنيا، لولا أنّ وجه نازلى يوحى بعكس ذلك! واستفسر منها عن الدافع غير المتوقّع للإسراع، وإذا ما كان خاله يتحضّر لسفر طويل... وبدت جدّته متلكئة فى الإجابة. فَهِم منها أن المشروع ما زال قائماً لكن شيئاً فيه قد تغيّر.

ـ ما الذى تغيّر يا جدّتي؟

ـ لا أدري. الفتاة، كأنها...

– تتكلّمين بالألغاز؟ يريدون أن تغدو الخطبة رسمية الآن أم لا؟

ـ هم بالطبع يريدون.

ـ ما المشكلة إذن؟

ـ المشكلة، أن...

ـ أنك أنتِ لا تريدين؟

ـ أنا؟ أنا من ناحيتى أيضاً أريد. لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ المشكلة أن الفتاة...

ـ ما بها؟

ـ لا أحد يدري... صارت تظهر عليها أعراض غريبة! لعلّ كثرة التعلّم أصابت عقلها بمس.

ـ مسّ فى عقل وردة شاه؟ حين قابلتها بدت لى فى أحسن حال.

ـ لعلّها فى المقابلة بذلت جهداً... فى الحقيقة وقبيل ذلك بدأت أشياء تظهر على سلوكها.

- أشياء؟ مثل ماذا؟
- أحياناً تهذى فى الليل أو تُرَوْبِص.
- تهذي؟ وماذا تقول؟
- تقول إنّها تريد أن تهرب من البيت.
- تهرب إلى أين؟
- أول الأمر، لم يتمكن أحد من معرفة الجهة التى تقصدها. صارت تنهض وتمشى نائمة وتتجه نحو الباب، مما اضطرهم إلى إغلاقه بالقفل، وتنبيه الحارس...
- لكن يا عمّتى كثير من الناس يُرَوْبِصون، ولا يعنى ذلك أنهم مجانين.
- صحيح. لكن أحوال البنت، قبل الخطبة بدأت تسوء. حليمة تقول إنها كانت فى الليل تسمع أشياء...
- مثل ماذا؟!
- بكاء. وفى الصباح تسألها فتجيب بأنّها لا تذكر شيئاً.
- غريب!
- بالطبع غريب.
- والليلة التى تلت هربها من المدرسة...
- وهل هربت وردة من المدرسة؟
- نعم، وأصيبت بعد ذلك بالحمّى، وصارت كما ذكرت حليمة، كأنما تضرب رأسها بالحائط وتنتحب. وحين بدأت تهرب من البيت فى النهار...
- تهرب من البيت؟!
- نعم.
- وإلى أين تهرب؟!
- فى البدء، كانت تمشى فى الشوارع. ثم وبعد ذلك، صارت تهرب إلى بيت قريبتها هدى لتعود وترجع من تلقاء نفسها.
- يا إلهي، تسمّون هذا هرباً! لعلّها تريد شراء حاجات لبيت الزوجيّة. ثم

إن هدى قريبتها وزميلتها فى الدراسة. لابد أن وردة تضيق ذرعاً بالجلوس فى البيت مع النسوة العجائز. لا توجد شابة غيرها فى المنازل الثلاثة! يا جدتي، اتركى المسألة لي، وأنا أعرف كيف أشرح لخطيبتى ضرورة الالتزام ببعض التقاليد.

ـ صحيح، غير أن وردة شاه بعد ذلك بالغت فى الهرب.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ هربت إلى بيت عائلة مسيحية فى الأشرفية.

ـ عائلة مسيحية؟

ـ نعم.

ـ ومَنَ هى هذه العائلة؟

ـ ...

ـ لعلّها عائلة المدرسة "إليس"؟ أو إحدى زميلاتها فى الفصل؟ سأستفسر منها بنفسى عن هذه الحكاية.

ـ لا بدّ طبعاً، لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ هناك واقعة لا مجال فيها للاستفسار. من المؤكد أنّها جرت على نحو غريب.

ـ وما هى تلك الواقعة؟

ـ وردة راحت إلى بيت آخر غير بيت المدرّسة والزميلة وما شابه.

ـ ما شابه؟!

ـ نعم. تعرف بالطبع أن وردة كانت تأخذ دروساً خصوصية لدى مدرّس...

ـ لا. لا علم لى بهذا. ومن كلّف المدرّس بذلك؟

ـ نور الدين.

ـ نور الدين يكلفه دون أن يستشيرني!

- كان ذلك قبل الخطبة.
- مهما يكن، كان يجدر به أن يخبرني. وما الذى حدث بعد ذلك؟
- هربت إلى بيت المدرّس.
- إلى بيت المدرّس؟
- بالأحرى إلى بيت أهله.
- كانت تقصد المدرس أم أهله؟
- المدرس.
- ومن هو هذا المدرس؟
- مدرس الفلسفة واللغة العربية الذى كلّفه نور الدين تقوية وردة فى هاتين المادتين. اسمه بشارة.
- وهل أنتم على يقين من أنها كانت تقصد اللحاق بالمدرس؟
- نعم.
- وكيف عرفتم ذلك؟
- هى بنفسها اعترفت.
- وما كانت غايتها من الهرب؟
- أن تهرب معه. كانا سيسافران بالباخرة يوم الأربعاء لولا أن انكشف أمرهما.
- وكم مكثت فى بيت ذاك الحقير؟
- بضعة أيام.
- بضعة أيام؟
- أربعة أيام بالتحديد. لكنّ المطران أقسم...
- وهل المطران على علم بالحكاية؟
- نعم، بالطبع فهو الذى أعادها.
- ومن غير المطران علم بذلك؟
- المفتى وبعض المقربين.

- وطبعاً جميع أفراد العائلة.

- طبعاً. لكن المطران أقسم أن الشاب لم يبت فى المنزل ولا ليلة واحدة إبان وجود خطيبتك فيه. ووالد الشاب كتب رسالة لنور الدين و...

- كفى. كفى. أين هى وردة الآن؟

- سجنوها فى القبو ثم نقلوها إلى الغرفة بانتظار أن يأخذوا القرار اللازم. نور الدين يرى الحل فى تسريع الزواج.

- والآخرون؟

- يطالبون بقتلها!

- يطالبون بقتلها؟

- بعضهم يطالب بذلك و...

- غريب!

- طبعاً غريب!

راح رشاد يردّد العبارة، فيما العناصر تتجمع فى ذهنه لتكمل له الصورة: حكاية ملفقة من أساسها. لطالما توجس من هذا الخال الذى تراه العائلة منزها! لطالما وراء الابتسامة الهادئة تراءى له الخبث. يا لغطرسة الأتراك! كان والده على حق. وآل صالح جميعاً كانوا على حق. وبعد برهة صمت رفع رأسه وقال: مهما يكن، لابد من أن أقابل وردة شاه وأسألها بنفسى عن كل شيء.

- طبعاً لا بد... لكن كما قلت لك، المطران أقسم...

- يا جدتي، قولى لخالى نور الدين إنى أطلب مقابلة وردة بأسرع وقت. غداً أو بعد غد.

وصل رشاد إلى بيت نور الدين حسب الموعد، فوجد خاله فى استقباله بحضور عبد الكريم وصافيناز. نهض الخال وصافح رشاد وربت على كتفه قائلاً: "بارك الله بالرجال. بارك الله بالشهامة". ودعاه إلى الجلوس فجلس. وجيء له بالفاكهة فاعتذر وبالقهوة فشرب. كان متعباً. أمضى الليل ساهراً حتى الصباح لدى العائلة روزينا فى البيت الجديد الذى فتحه لها. شرب

زجاجة كاملة من الويسكى ودخن عدداً هائلاً من السجائر. سهرة لم تر روزينا مثيلها من قبل، ذاقت فيها الأمرين من رجل تعرفه منذ سنوات وتراه للمرة الأولى على هذه الحال من الهياج وانعدام التوازن.

سأل نور الدين رشاد إن كانت نازلى أعطته فكرة عما جرى، فهز رأسه بالإيجاب. إذ ذاك سأله هل يعتبر الخطبة قائمة، فأجاب: قائمة طبعاً. لكن قبل أن نبحث أى شيء لا بد يا خالى أن أقابل خطيبتي. لدى أسئلة ألقيها عليها.

ـ هذا حقك.

لم يسمع رشاد الجواب. كان قد هبّ واندفع إلى الدار وقصد مباشرة الغرفة التى تقيم فيها السجينة وبأعلى صوت صرخ:

ـ وردة شاه!

كان يكفى لأهل الدار أن يسمعوا النداء ليتوقعوا الفعل الذى سيقوم به رشاد. وإذ سمعوا فرقعات الزجاج وسقوط حطامها على الأرض، فيما رشاد يكرّر نداءه بكلام بذيء وخوار ثور، أيقنوا أنّ الواقعة قد وقعت: "وردة شاه! يا عاهرة يا ابنة العاهرة يا ابنة سلالة من العاهرات...".

وهذه، ما إن سمعت الصراخ، حتى لاذت بأبعد زاوية محاذية للنافذة. كان الأخوة الثلاثة قد لحقوا برشاد. ملك كانت الأسرع، فوصلت إلى باب الغرفة وفى نيّتها أن توعز لوردة بالاختباء فى الخزانة. قواطع الحديد تمنع رشاد من أن يطلّ ليرى، لكن سلوكه يشير إلى أنه يرى. خطف مسدسه من وسطه وكسر بعقبه زجاج النافذة ثم مد يده نحو الزاوية التى تقبع فيها خطيبته وراح يطلق النار. وإذ علا صراخ صافيناز، ألقى المسدس الفارغ على الأرض وشهر آخر واندفع متراجعاً، فاصطدم بخاله نور الدين ودفش عبد الكريم فأوقعه، وقبل أن تصل كاميليا، وتخرج السيدات من البيوت، كان قد لاذ بالهرب.

قَدَرها أن تراها النسوة فى ذاك المشهد: ممددة على الأرض والدم يسيل من أكثر من مكان من جسدها الهزيل.

بروفة للحرب الكونية

فيما كان والد بشارة يُنقل إلى المستشفى، ورشاد يختبئ فى المكان الذى دبّره له قريبه جلال، كان عدد من الشبان المسلمين يتسلّلون نحو منطقة الأشرفية. بعضهم ركب الترومای وراح الآخر بالعربات. أوقفوها عند زاوية خفية من "الخندق الغميق" ونزلوا. أما الفريق الثالث فقد عبر نحو الأشرفية من ساحة البرج. كلّهم، بقيادة جلال، توجّهوا إلى الحيّ المسيحى الذى يسكن فيه بشارة.

لطالما تساءل الناس عن سرّ الصداقة التى تربط رشاد بقريبه جلال. صحيح أن كليهما يتحدّر من عائلة صالح، إنّما مهما يكن، فالأصول غير الفروع، وهذا غير ذاك. رشاد وحده فى العائلة لا يتساءل. وحده يفهم شغف الصداقة. وقريبه هذا، منذ الصغر، هو الأثير لديه. المدرسة تفرقهما خلال الأسبوع لكن معابثات الشقاوة تجمعهما فى نهايته. أمتع الأوقات التى يقضيها معه. يطاردان العصافير بالحجارة، ومع أولاد آخرين، يذهبان إلى الصيد. يصنعان أدواته من أغصان الشجر وخيوط الكاوتشوك. وعندما – فى باكر مراهقته – بدأت "الفتوّة" تظهر عليه، حظى جلال من صحبه بلقب "القبضاي" ومن قريبه بمكانة لا تتزعزع. وحمل هو اللقب الذى سيثبت أنه جدير به. يتحزّب للأقارب والمظلومين. "فأنا والضعيف على القويّ، أنا والمقيم على الدّخيل، وأنا وابن عمى على الغريب". لا يخرج من البيت إلا وفى يده قضيب رمّان. لكنْ ما مرّة بادر إلى الاعتداء. وحين استبدل قضيب الرمان بعصا الخيزران، وعيدان الشجر بالبارودة أدرك المحيطون به أنه بدأ يختار طريقه. الطريق الذى قاده لاقتناء مسدّس "البكرة". لا أحد يعرف كيف تورّط

فى استخدامه. قيل إنّ الحكاية من أساسها ملفّقة. دُرست بحذق. وحبكها آخرون بحذق وكان هو المنفّذ. التهمة لم تثبت عليه فخرج من السجن وهو دون العشرين. وفى السجن توطدت الصداقة بين القريبين. رشاد وحده من آل إسماعيل ومن آل صالح صار يتردّد عليه. يرشو السجّان ويدخل ومعه الحلوى وشتى المأكولات والمشروبات. يمضى معه ساعات يلعبان الورق وطاولة "الزهر". وينضم إليهما بعض المميّزين من السجناء أو الموقوفين. فضلُ لن ينساه السجين أبداً. كان أول شيء فعله حين خرج من سجنه، أن أخذ قريبه إلى بيت العالمة شهناز. ثم عرّفه بروزينا ذات الجمال الأخاذ التى كان يتردّد إليها أنيس بك. أخبار كثيرة تصل إلى وجهاء العائلة يكفى القليل منها للحكم على السيرة الخفية للابن المدّلل. وعلى الأواصر التى تشدّه إلى القبضاى. ولما قرّر المدلّل أن تغدو روزينا محظيّة لا يشاركه فيها رجل، تولّى جلال مهمة استئجار الشقة. وذات مرّة، قال المدّلل للقبضاي: يا ابن عمّتي، دعنى أدبّر لك الزواج الذى تستأهل.

- تُرى، ومن تكون العروس؟

- فتاة تعجبك.

- وما أدراك..

- إنهّا صبيحة ابنة الآغا.

كيف كان الآغا سيرفض، وحفيد إسماعيل باشا، وصالح ، يقول له: "أخى جلال يريد أن يتزوّج وفكّرت بابنتك صبيحة. ستحيا معه سعيدة. شهم، كريم ولديه بيت. ولا تسألنى عن عمله. إنه منذ اليوم شريكي. بدأتُ بتأسيس عمل، وسيكون هو يدى اليمنى فيه. بالنسبة لتلك الحادثة... فهو كما تعلم بريء. ثم، ومنذ متى يا عمّي، كان السجن يعيب الرجال؟

★★★

بلغ الحى الفوقانى فى الأشرفية أن غريباً يتجوّل فيه بصورة مريبة! هيئة

الغريب تدل على أنّه من القبضايات، وتحرّكاته تشير إلى دراسته الموقع. وفى سؤاله أحد المارة عن اسم الشارع دلّت لهجته على أنّه من مسلمى بيروت. ما الذى يبغيه هذا المتلصص يا ترى؟!

راجى الحلاّق خمّن أن الغاية هى دراسة الحى تحسباً للحرب القادمة التى يُقال إنّها صارت على الأبواب. لا بد أن جهة ما كلفت المتلصص بهذا لوضع خطة القتال. وانبرى كنعان يسأل:

ـ خطّة للدفاع أم للهجوم؟

ـ الله أعلم. يقال إنّهم بدأوا بتوزيع المظاريف.

من يدري؟ لعلّها رسائل تحرّض المسلمين على المسيحيين. الأتراك أفلسوا. وفكرة أن يحل الفرنسيون مكانهم تطيّر صوابهم. من المؤكد أنهم لن يتركوا البلاد إلا والدم قد وصل إلى الركب.

لوّح كنعان بيده وقال: فلنبلغ سيادة المطران ونستأذنه الرد.

المختار طلب من الحاضرين أن يصغوا إليه. فالقبضاى المسلم، بعد أن سأل، توجّه صوب الحيّ الذى يسكن فيه أهل بشارة. والجارة أم عبد الله رأته يدور حول حديقة البيت. على الأرجح، أن عائلة المخطوفة أرسلته للثأر. مسألة شرف ولا علاقة...

ـ للشرف أم للحرب، لن نسمح لأحد بدخول الحي.

المدرس جورج، بعد صمت تدخل. يا إخوان، مغزى الحكاية يبدو لى أبعد من هذا كله. البلاد هذه قد تذهب فى مهب الريح. الإنكليز سيعيدون تقسيم المنطقة.

خرج القبضاى "مراد" عن صمته، واضعاً حداً للجدال:

ـ رجاءً السكوت. لن ننتظر ما سيقوم به الإنكليز وغير الإنكليز. يا فايز اذهب وقل لصليبا أن يخبر الشباب عن لسان مُراد أن يستعدوا للدفاع. وأنت يا خريستو، بسرعة إلى العم شكر الله أخبره بما يجري.

★★★

بيروت تتحضّر للحرب، فدوق النمسا قد قتل. سيلهج الناس كثيراً بالنبأ. ما من مرة توقف فيها اثنان للسلام إلا وكان "الأرشيدوق" ثالثهما. اللقب الذى قلّما سمعوا به والحكاية التى هى فى حد ذاتها مثيرة: فى الهجوم الأول أخطأه مهاجموه، لكنّهم جرحوا اثنين من رجاله. راح مع زوجته إلى المستشفى لتفقد الجريحين وفى الطريق لقيا مصرعهما. الحادثة ستؤدى إلى حرب كونية بين الأمم.

عجباً من أجل شخص؟!

طبعاً، فهو دوق النمسا!

ويتساءل الناس عن تلك الكونية، متى ستبدأ؟ وإن بدأت، فمتى تنتهي؟ الأقاويل كثيرة والمراهنات أيضاً:

"تقع أم لا تقع؟!".

لا بل ستقع. فالدول التى وَقفت فى البدء على الحياد بدأت تتزحزح من موقعها. وروسيا تحرّض ما بقى من مناطق البلقان.

لا لن تقع فصربيا المتهمة بقتل الدوق استسلمت لشروط التحقيق.

لا، فمن أصل عشرة شروط استجابت إلى تسعة فقط.

- والعاشر؟

- العاشر يمسّ بالسيادة ولا يمكنها الاستجابة له.

★★★

التحضيرات للحرب على قدم وساق! والناس علموا بحكاية المغلّفات التى تلقاها الكبار من متصرفين وولاة وموظفين، وصاروا متلهفين على الإذن بفتحها. إن كانت تبشر بصلح، سيطوف المنادون فى الأحياء، يزفّون النبأ السعيد، يهتفون بحياة "ظل الله الظليل على الأرض"، السلطان محمد رشاد، وبحياة الملوك والأباطرة الذين وقّعوا وإياه الاتفاق.

وإن كانت تنذر بعكس ذلك؟!

عندئذ سيُطلق النفير العام. والرجال، من سن الثامنة عشرة إلى الرابعة

والأربعين سيستدعون إلى الجندية. وهذه المرّة، لن تؤخذ إليها أو تُعفى لأنك من هذه الملة أو تلك. بعد إعلان مبادئ المساواة صار المسيحيّون واليهود أسوة بالمسلمين، معنيين بالنفير. فقط تُعفى إذا دفعتَ البدل. والبدل هذه المرة، على ما يسمعون باهظ. سيُضاعف. بل وسيُضرب بعشرة أضعاف! هكذا بات على الميسورين أن يسارعوا إلى دفعه، وعلى متوسطى الحال بيع النفيس والرخيص كى لا يُساق أبناؤهم كما قطعان الغنم إلى ساحة الموت. لكن ويا للعجب، بعض الشبان، سيذهب إليها طوعاً. متحمسون كُثر انسلّوا من هنا إلى أوروبا، وكثيرون من المقيمين هناك تحمّسوا واستخفوا برجال "العين الخفيّة"، فالتحقوا بجيوش الحلفاء، وورّطوا نويهم فى الأوطان. كم من آباء وإخوة سيُزجون فى السجون، بلا ذنب.

العارفون بالأمور، يعزون التوافه منها إلى خفاياها الكبرى. لطالما كانت للحروب بدايات غريبة، تبدو ضئيلة الشأن ضآلة عود كبريت! لكن المخازن لا تُملأ بالبارود إلاّ لتفجيره ساعة الشيطان. وهذا الهجوم الذى يعدّه مسلمو بيروت على حيّ الأشرفية بحجة الثأر لشرف فتاة خطفها مدرّس فى عقله لوثة، هو الساعة تلك. تتساءل صحيفة "زحلة الفتاة"، هل من قبيل المصادفة أن يهاجم الطرف المحسوب على الأتراك، فى هذا الظرف الدقيق، الطرف الآخر الذى يقف كالسكين فى زور الخلافة!؟ "الرأى العام" البيروتية تردّ فى اليوم التالى على المنحازين للغرب الذين ينتظرون إشارة ليشنّعوا بمواقف السلطنة العتيدة.

أما القبضاى مراد، فقد حسم الأمر. "ليسمح لنا نيافة المطران. أعلن فى الاجتماع: إن كان الدفاع عن النفس واجباً عند اللزوم، فالآن هو وقت اللزوم. غمضة عين ويقطعون المسافة بين البسطة والأشرفية للفتك بالمسيحيين. ونحن أيضاً لدينا قبضايات. فلننشر رجالنا. لنحمِ المداخل الرئيسية والدروب المؤدية إلى منزل شكر الله".

★★★

مخفر الجند لا يفوته ما يستعدّ له الأطراف فى هذه الناحية وتلك. وتحسباً لواقعة محتملة، أمر الضابط عساكره بأن يستعدوا. حين بدأ الهجوم وأُطلق رصاص البنادق والمسدسات من هذه الجهة، وردّ مسلحو الأشرفية على مصادر النار ، خرج العساكر من المخفر وَراحوا يطلقون الرصاص فى الجوّ لإخافة المتحاربين. هكذا تداخلت نيران الأطراف واختلط الحابل بالنابل. مَن يطلق على مَن؟!

هنا وهناك تُسمع الانفجارات. كما وتُسمع صرخات استغاثة. وقد خيّل للبعض، أن البارجة الإيطالية "غاريبالدي" التى قصفت بيروت منذ ثلاث سنوات وسقطت قذائفها على المرفأ قبل أن يدمّرها العثمانيون، قد أُصلحت وعادت إلى القصف الآن. أو أنّ الحلفاء باغتوا الأتراك بقصف الخط الفاصل بين شطرى العاصمة. وصلوا عن طريق البحر وخَرجوا منه وأخذوا الاستحكامات، والتحموا فى الشوارع مع عساكر الأتراك. لكن الناس فى الشطر الآخر ظنّوا شيئاً آخر. إذ لا يمكن أن تكون "غاريبالدي" هى التى عادت. فهذه انتهت فى تلك المعركة إلى سوء المصير، ثم انقض عليها

عساكر البحارة، ومن بعدهم الصيادون. وطافت أشلاؤها على الشاطئ. طيلة سنوات درج الأولاد على البحث عن بقايا يلهون بها. "غاريبالدي" انتهى أمرها. هذه لا بدّ بارجة

أخرى، تتصدى لها الآن "عون الله" التركية، لتدمّرها كما فعلت بسابقتها منذ سنوات!

السكان هنا وهناك، يلونون بالزوايا. يبحثون فى خيالهم عن مخابئ بعيدة عن العاصمة تحسّباً للحرب الكونية التى ستطول. إنما ولعجبهم، فالكونية هذه، على عنفها، لم تدم أكثر من ساعتين! توقفت بعدها الانفجارات وتضاءل إطلاق الرصاص وصمتت الاستغاثات لتبدأ أخبار المعركة بالانتشار: فرّ المهاجمون تاركين خسائر ومحمّلين بخسائر. قتيل وبضعة جرحى. الفارّون سحبوا الجثمان وحملوا الجرحى لكنّهم، لم يتمكنوا من العثور على يد جلال اليمنى التى طارت مع آخر إصبع ديناميت ألقاه

على بيت بشارة.

★★★

حدث هذا، فيما وردة فى المستشفى تغلى بالحمّي. وتهذي. الأطباء نزعوا الرصاص من فخذها وخاصرتها، يأملون، إذا ما حالفها الحظ، أن تتجاوز محنتها. الشابة التى بدأت تظهر عليها أعراض "البارانويا" بشكل جليّ، صارت تعاتب نور الدين على فعلته: ماذا سيقول لبابا عزمى حين سيلقاه فى الآخرة؟ وتعاتب كاميليا: لمَ دلّت رشاد على الزاوية التى كانت تختبئ فيها؟

تهذى ولا تأمن سوى لأختها ملك. لا ترضى أن تأكل إلا من طعام تعدّه تلك بنفسها وتطعمها إياه بيدها. وفى هذيانها تطالب بأن يسلّموا أختها المسدّسات. كلّ المسدّسات. يضعونها فى القبو ويحكمون عليها الأقفال ويسلّمون مفاتيحها لملك. كما صارت وللمرة الأولى، منذ رحيل تلك، تُطالب برضية.

★★★

الهجوم على الأشرفية أنعش الحياة السياسية.

كثر المحققون كما التقارير. انهالت البرقيات وازدادت وتيرتها فى الاتجاهين بين القنصليات فى بيروت ووزارات خارجيتها فى العواصم. ومن بين تلك البرقيات واحدة، تلقّاها القنصل الفرنسى من الإليزيه يسألونه أن يقدّم تفسيراً مفيداً لهجوم عصابة من المسلمين على منطقة الأشرفية؟ يسألونه لمَ لمْ يولِ المسألة الاهتمام المطلوب، وفرنسا مكلفة بحماية المسيحيين فى لبنان؟ كرومر فى مصر يتدخل فى زواج ابن العم من ابنة عمّه، وهنا تقع مذبحة لا يصل تقرير بشأنها إلا بعد أسبوع! ويطالبونه، وعلى وجه السرعة، بفتح التحقيق.

★★★

المقابلة بين نور الدّين وصديقه القنصل بدأت بيسر. أبدى هذا الأخير أسفه لما حدث فى منزل آل إسماعيل:

- هذا النوع من الحوادث لا يشبه عائلتكم.

- لا يشبهها بالفعل.

- ما الذى جرى إذن؟

- يا صديقي، فى هذا الزمن ما عاد شيء يشبه شيئاً، حتى ولا الشيء ذاته!

- المشاكل جعلت منك فيلسوفاً متشائماً يا صديقي! كيف هى الجريحة الآن؟ قلت لى إنّها أختك؟

- أختي، إنّما بالنظر إلى فارق السن وإلى أنى راعيها فهى بمنزلة ابنتي. لا تزال فى المستشفي، فى حال أفضل والحمد لله.

- وما صلة القربى بالشاب العاشق؟

- إنّه حفيد عمّتي.

- وما علاقة المسألة بالهجوم على الأشرفية؟

- الانتقام من الغريم.

- وما الذى يقنع باريس بذلك؟

- الوقائع والثقة التى بيننا، هى التى تقنعها.

تنحنح القنصل، وبشيء من الاستسلام، نظر إلى نور الدين وقال:

- يظنون هناك أن الأفندى يحضّر للحرب قبل وقوعها؟

- موسيو لو كونسول، لا شك فى أنّك تمزح!

- أنا قد أمزح لأنّى أعرفك. لكن الحكومة فى باريس لا تمزح. بَلغهم أنّك قدت هجوماً ضد المسيحيين!

لدى سماعه العبارة قهقه نور الدين، قهقهةً كشفت عن حدة غيظه! يا حضرة القنصل، وهل لديّ صفات تشير إلى أنّى قائد حرب؟

- فى باريس لا يعرفونك. يسمعون باليوزباشى شوكت أخيك. رئيس لجنة مشتركة بين الأتراك والألمان؟

- نعم، إنّه ضابط كبير فى الجيش العثمانى ولديه مهمّات.

- هذا يقلقهم. يظنّون أنّك كنت على الأقل من المحرّضين على الهجوم للفتك بالمسيحيين.

- الفتك بالمسيحيين؟ يا للعجب! نشأتُ بينهم وتعلّمتُ فى مدارسهم وبلدانهم. وكثير من روّاد مجلسى من مثقفيهم ومطارنتهم. وقد أعدموا ابن خالى بسبب واحد منهم اتهمنى الباب العالى بتهريبه. ولديّ ابنان من زوجة مسيحية لا تزال على دينها وتذهب أيام الآحاد إلى الكنيسة. وأيام الشعانين والأعياد تأخذنى أنا والصغار للمشاركة فى الاحتفال. وحين اخترتُ مدرّساً لأختى لم أرَ فى اختلاف الدين عائقاً.

- مسيو نور الدين، ماذا تريدنى أن أكتب فى التقرير؟ إنْ كتبتُ هذا، ظنّوا أنى تركتُ مهمات القنصلية وتولّيت الدفاع عنك!

- أكتب ما يؤكد أن لا علاقة للسياسة ولا للأديان بما حدث. مسألة عاطفية. خطيب مدلّه عزّ عليه أن تهجره خطيبته إلى شاب غيره، فحاول قتلها وقتله. وشاءت المصادفات أن يكون هذا مسيحياً.

★★★

القنصل الروسى كتب إلى وزارة خارجيته فى موسكو تقريراً مثقلاً بالتفاصيل، اختتمه بطلب منحه صلاحيّات استثنائية للتحقيق فى هجوم شنّه مسلمو بيروت على طائفة الروم الأرثوذكس فى الأشرفيّة. الطائفة التى هي، تاريخياً، وحسب الاتفاقيات والأعراف فى حماية روسيا. المطران، كما يذكر القنصل، غير راغب فى التحقيق، لكن أبناء الرعية يرغبون." جاءوا إلينا يطالبون بحمايتنا ويؤكّدون تبعيتهم للقيصر".

★★★

أما والى بيروت، الذى نُقل إليها قبل فترة، والذى اشتهر بخسارته عدداً من الحروب، منها المعارك مع الطليان فى ليبيا والمعركة مع لورانس والعرب فى الحجاز انتهت بفراره وحاميته، هذا الوالى سيجد الفرصة مناسبة لردّ الاعتبار. اشتهر بالبطش وازداد شهرة به حتى سبق لقبُه اسمَه فى الأقطار.

حكم على عشرات المعارضين بالإعدام، انتقاهم من خيرة أبناء العائلات، مسلمين ومسيحيين. بعضهم من الأسرة الواحدة، علقوا اثنين اثنين، وبعضهم فرادى. "جمال باشا السفاح" هذا عرف مَن يرسل من الديوان العرفي لإجراء تحقيق يُرضي مأربه.

في زيارته المطران، سأله المحقق العثماني رأيه في الهجوم على طائفة الروم الأرثوذكس، وهذا أكّد له ما سبق وقاله نور الدين لقنصل فرنسا: قضية ثأر للشرف لا علاقة لها بالسياسة، لا من قريب ولا من بعيد. زمّ المحقق شفتيه وقال:

- يعجبني إجماع مثل هذا في بلدكم الآن. بلد لا تتفق فيه طائفة مع أخرى. بل ولا طائفة مع نفسها، ما الذي وحّد أجوبتكم الآن؟

- الحقيقة هي التي توحّد الإجابات يا حضرة القاضي.

- من المؤكّد أنّ البطريرك المارونى اتصل بكم. وكذلك المفتي.

- نعم، حصل. جاءا للاطمئنان ولتهدئة النفوس.

- جميل حرصهم على الوفاق. ومَن من السفارات ساعدت في الهجوم؟

- لا علم لنا بأية مساعدة. ثم إن تقرير القنصل الألماني يبرّئ الهجوم من الدافع السياسي. الألماني حليفكم وتثقون بكلامه.

- كيف عرفتم بمضمون التقرير؟ أنتم مطرانية أم "عين خفيّة"؟

- مطرانية بالطبع. والمطرانية لها رجال يسهرون على رعاياها.

- تقصد لديكم جواسيس ومؤسسة يمكن تسميتها "بالعين الساهرة؟".

- رجالنا لا يتجسّسون. رجالنا يعملون لحماية أبناء جلدتهم.

- يا نيافة المطران. أفهم أنّكم تردّون المعروف للأفندي الذي ساعد الهاربين من عندكم. لكن ما تعتبرونه من شِيَم الأخلاق يعتبرونه في الآستانة تهديداً سافراً لأمن الخلافة.

★★★

مِن سجنه في المستشفى، وصف جلال للقاضي حالة الجنون الذي جاءه

بها قريبه. صديق عمرى وقريبى انهار أمامي. ماذا تريدنى أن أفعل يا حضرة القاضي؟!

- أنا المحقق لا أنت يا سيّد جلال. أنا أسأل وأنت تجيب فقط. وتجيبنى عن سؤال محدّد: ماذا عن تورّط الأفندى نور الدّين فيما حصل؟

- تورّط نور الدين أفندي؟!

- نعم. تورّطه فى محاولة قتل أخته، وفى الهجوم على أحياء المسيحيين.

لسماعه السؤال، وعلى الرغم من أغلال تكبّل قدميه، ومن ذراع بُترت ولم تلتئم جراحها بعد، هبّ جلال من سريره يصرخ:

- لا يا حضرة القاضي. لا علاقة لنور الدين أفندى بأى شيء. بالنسبة لمحاولة قتل الشابة اسألوا خطيبها، فهو لا تنقصه الشهامة ولا الغيرة على الشرف! أما بالنسبة للهجوم، فأنا وحدى مسئول عنه. وحدى فعلتُ كلّ شيء دون علم أحد.

- وأيّ السفارات تدخل لإنقاذ الشرف، وزوّدتكم بالأسلحة والديناميت؟

- منذ متى كانت السفارات تُعنى بالشرف؟ ثم إن الأسلحة موجودة مع الناس كما الديناميت، يشترونها من التجّار وما أكثرهم!

- ومن هو التاجر الذى زودّك بها؟

- القبضاى يا حضرة المحقق، لا يذكر اسم التاجر الذى يشترىٰ منه.

- واضح أنك تراوغ يا سيّد جلال. لهذا الحدّ تخلص لقريبك؟ خسرت يدك وقد تخسر حياتك من أجله؟

- كلّ الخسارات تهون من أجل الشرف يا حضرة المحقق.

★★★

فى اجتماعه بنور الدّين أوضح له المحقق غايته: الاستفسار عن صحة الأقاويل التى يلهج بها الناس. يا أخي، من ناحيتى لا أصدّق، فأنت شخص موثوق بحكمته. بلغ الوالى "جمال باشا"، أن الأفندى نور الدين أمر رجاله بالهجوم على الحيّ المسيحى. فى هذا الوضع الدقيق والدول الأجنبية

تتربّص بالبلاد. ما الذى دعاه لذلك؟ يتساءلون فى الآستانة، هل نية الأفندى الانتقام لابن خاله؟

ـ الانتقام ليس من طبعي. فى حينه نشرت عدداً من المقالات.

ـ أجبنى يا صديقي، هل يوم الحادثة أبلغت الدرك؟

ـ لا .

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا ، لم أبلغ الدرك.

ـ أنت رجل قانون، كيف لم تبلغ الدرك؟

ـ تسأل كما لو كنت قنصل سويسرا! أنت تعرف تقاليدنا. أُبلغ الدرك لأشى بحفيد عمتي، وأفتح الباب على حادثة هى بنظر الناس فضيحة تدمّر سمعة العائلة؟ ألا تكفينى قطيعة خالى وآل صالح؟

ـ أوف!! ألم ينس خالك الحكاية بعد؟

ـ مسألة كهذه يصعب نسيانها.

ـ يا له من حاقد! وأنت؟ نأمل أن تكون نسيت. قلت إنك لم تبلّغ. فى لغة القضاء، تعرف ماذا يعنى عدم التبليغ.

ـ لغة القضاء هى أحياناً غيرها لغة الناس.

ـ اسمع يا صديقي، المسألة دقيقة وأريد أن أقف فيها على الحياد. هناك عدد من الإشارات تستوقف الصدارة العُظمى. بعضها يعود إلى الماضي. يقولون إنّك إبان وجودك فى مصر كنت على اتصال بكرومر وبحلمى عبّاس.

ـ أقاويل مضحكة. حلمى عبّاس معروف بميله للسلطنة، وبتودّده للمثقفين. قابلته مرّات قلائل فى احتفالات حضرها بعض رجال الصحافة. لكنى لم أرَ فى حياتى وجه كرومر.

ـ هكذا تذكر التقارير.

ـ هناك أيضاً لكم جواسيس؟

ـ رجال "العين الخفية" لا نحن. هؤلاء موجودون أينما كان، وتقاريرهم تطالنا كما تطالكم. كرومر من أخطر شخصيات بريطانيا علينا. وما "لورانس" سوى هديته "الثمينة" للمنطقة. درّبه على يده قبل أن يرسله إلى الحجاز!

ـ لست مولعاً بهذا ولا بذاك. دعنا كما قلت فى الحاضر.

ـ بالنسبة للحاضر، الجريمة وقعت فى دارك. وعلى أثرها هجم قبضاياتكم على أحياء المسيحيين. فهمت قصدي؟

ـ لا، لم أفهم.

★★★

بنتائج التقارير، نُقل القنصل الفرنسى من بيروت. وفى وزارات خارجية الدول الأقطاب، مالوا للأخذ بتقرير القنصل البريطانى الذى لا يختلف عن تقرير الروسى إلاّ بما يتعلّق بالطائفة التى استُبيح أمنُها. الهجوم فى ظاهره ينال من "الروم"، لكنّ هدفه كان أبعد من ذلك. المقصود، ليس ملّة بعينها، بل خلق الفتنة هو المقصود على غرار ما جرى فى القرن الماضى ومازال الناس يهجسون بفظائعه حتى اليوم. فالأفندى الغيور على أصوله، الحريص على مصالح الخلافة حرصاً جعله يضحّى بابن خاله، لن يتوانى، تمهيداً للحرب القادمة، عن تحقيق مآرب السلطنة التى يدين لها. حرب لا أحد يعلم إن قامت متى تنتهي.

★★★

أما المحقق العثماني، فقد استند فى تقريره، إلى عدد كبير من المقابلات، وإلى كمّ من الوثائق والبيانات واجه صعوبة فى الحصول عليها قلما واجهها محقق. ومقاومة قلّما بذلها متهم. مقاومة، إن دلّت برأيه على شيء، فإنما على تورّط سيّد البيت فى ما حدث.

يذكر التقرير، أنّ هناك فى الظاهر واقعتين خطّط لهما شخصان، واثنان نفذاها. أما فى الخفاء فالمسائل أكثر تعقيداً بما لا يقاس. شأنها شأن هذا

البلد الذى لا يتناسب صغر حجمه والقلاقل التى تحدث فيه. أربعمائة سنة من حكم السلاطين لم تنفع فى ترويضه!

الواقعة الأولى، فتنة عائلية.

محاولة قتل الخانم وردة شاه إسماعيل:

أظهرت الوثائق ودفاتر الحسابات التى دققنا فى تفاصيلها، أنّ المجنى عليها، هى من أكثر سيدات العائلة ثراءً. ورثت ثروة عن أمها التركمانية بوران مدنات وثروة أكبر منها عن أبيها الباشا عزمى إسماعيل. ولها على أرض الخلافة منزلان: منزل فى اسطنبول وبساتين فاكهة، ومنزل فى بيروت بكل ما يحتويه من مفروشات وتحف. فضلاً عن أراضٍ هنا وهناك. جمال الشابة إلى جانب ثروتها جعلاها محط أنظار العائلات الراقية التى تبحث عن عروس لأبنائها فى بيروت وبلاد الشام.

أخوها الأكبر نور الدين أفندي، مستشار سابق فى الخارجية العثمانية، هو الوصيّ عليها وعلى أملاكها. الفتاة تقترب من سن الرشد. السن التى حسب الشرع الإسلامى والقانون العثماني، تمنحها حرّية التصرّف بما تملك. إنْ تزوّجت خارج العائلة، فسيدخل غريب إلى منزل الباشا، ويقاسم إخوتها الأعمال والأملاك الكثيرة التى تدر آلافاً من مجيديات الذهب سنوياً. لذا فكّر أخوها بقريبها رشاد. وبدون علمها عقد وإياه الاتفاق. رشاد، قريب الخانم تحمّس للمشروع. قلبه مولع بالعالمة روزينا، لكنّه طموح ويسعى لتأسيس مصنع للغزل وشركة للتصدير. أملاك كثيرة، بزواجه من ابنة الباشا، ستغدو فى تصرّفه! لكن الفتاة المولعة بمدرسها، رفضت الخطبة. وإزاء ضغوط أخيها عليها لإتمام الصفقة، أدركت أنّه لا مفرّ لها إلاّ فى الهرب مع من تحب.

شبّان العائلة قرروا غسل العار. يطالبون بقتل الجانحة كما أفادت الخادمات. لكن الأخ الأكبر اعترض. وهى مسألة من السهل تفسيرها. فالأفندى المتمكن من القانون، يعرف أن أفضل منَ يقتلها وينال، قانونيا،

الأسباب التخفيفية القصوى لجريمته، هو خطيبها. بضعة أشهر فى السجن كما العادة وينتهى الأمر! هكذا أوعز لعمته وهذه أرسلت برقية إلى الجانى ليحضر من دمشق على وجه السرعة.

فوجئ الشاب، بأحلامه تتبخّر، وبسمعته تتمرّغ. جنّ جنونه وصار مستعداً لأيّ فعل ينتقم به لنفسه من الفتاة وعشيقها. فاندفع إلى المكان الذى تختبئ فيه لقتلها. لكن أختها عرقلت سيره. وبعد إخفاق المحاولة، انبرى الأفندى مظهراً نفسه بمظهر المنقذ، ونقل الجريحة إلى المستشفى. لكنّ هذه بهذيانها فضحت تورّطه.

الواقعة الثانية، فتنة سياسية:

طموح المدعو رشاد لا يقف عند حدود المال والأعمال. فأحلامه السياسية كبيرة كما أحقاده على الأتراك. لم يرث عن أبيه مالاً بل ضغينة جعلته يتنكّر للدم التركى الذى يجرى فى عروقه. ولا يكفّ عن الدعوة إلى فك اللحمة بين العرب والخلافة. أرسلتْه جدّته إلى مدارس اليسوعيين، فوجد فى سياستهم صدى لأهوائه. التقارير السريّة تؤكد أنّ اتصالاته بالقنصلية الفرنسية كثيرة. ومعلوم أنّ المؤامرات ليست بنت لحظتها. فالخطط الموجودة فى الأدراج تنتظر ظروفها المواتية. وفى فضيحة حب بين مسلمة ومدرّسها المسيحي، وجد المخططون الظرف الملائم. هكذا تقاطعت الخيوط ومهّدت لما سيجري: حين فشلت المحاولة وتلّوث اسم العائلة، صار سيدّها يتمنّى واقعة تغطى على واقعة. ابتكر مع الخطيب المهزوم حكاية الهجوم على الأشرفية لينشغل الناس عن الفضيحة العائليّة بواقعة سياسية، وتنطوى حكاية الفتاة الهاربة فى فصول فتنة إن بدأت لا أحد يعرف متى تنتهي.

هكذا، كان الهجوم على الحيّ المسيحى فى بيروت سيحقق أمانى الأطراف التى خططت له. وما نقل القنصل الفرنسى من بيروت بعد الحادثة، سوى روتين معروف يرمى لإظهار حسن النيّات بشأن ما حاكت يد

الدبلوماسى المحنّك فى الخفاء.

★★★

بعد دخول المحقق عتبة المدرسة، وجدت مسز سكوت نفسها فى موقف صعب. صحيح أنها لم تستجب لطلبه مقابلة زميلات وردة شاه، وأقنعته بأن يدوّن الأسئلة وتتولّى الناظرة نقل أجوبتها إليه... لكن الصحيح أيضاً هو أن الخوف مما كان سيحدث جعل بعض العائلات تسحب بناتها من المدرسة خشية حدوثه. ماذا لو باغت المحقق المدرسة واقتحم بابها مع عساكره وأجبر الإدارة على مقابلة التلميذات؟

فى تلك الفترة، والحديث عن خطر المدارس على البنات يزداد، اكتظ سجل الغياب بالأسماء، وخفّت حركة القيد للعام المقبل. عائلات كثيرة أعادت فتياتها إلى فصول القرآن. أو أحضرت لهنّ مدرّسات إلى البيت. "العلم" أفسد هذه الفتاة ذات الحياء البيّن على جبينها. كانت تخجل من النظر حتى إلى عيون النساء، فيحمر وجهها وتخفض بصرها إلى الأرض. الأقاويل اضطرت المديرة، ترافقها الناظرة اللبنانية، للقيام بحملة زيارات للأهالي: تطمئنهم بأن الأمريكان عموماً، والطائفة البروتستانتية بوجه خاص، هم رغم بعض الفروق، لا يقلّون محافظة عن أهل البلاد. فكيف لو كان الأمر يتعلّق بالأخلاق؟

كما اتخذت الإدارة عدداً من الإجراءات لحماية الفتيات من الأفكار المتهوّرة التى قد تضر بعقولهنّ، فأنشأت "مجلس الأمهات". وبالتناوب صارت إحداهنّ ترافق الناظرة والتلميذات فى الملعب أثناء استراحتى الساعة العاشرة والظهر. والتدبير الجديد الذى يعزّز مشاركة أولياء الأمر، كان يمكنه أن يغدو رائداً فى عالم التربية، لولا أنّه جاء أقرب إلى التجسس منه إلى نمط تربوى حديث. وفى الآونة ذاتها، برزت فكرة المحاضرات التى تتحدّث "بتربية الفتاة المثالية". نشأت جمعيات نسائية تؤكد أسماؤها على سموّ أهدافها. وظهرت مقالات فى الصحف تندّد بانجراف البعض إلى

شطحات القرن. أشارت إحداها إلى تلك التقليعة التى تكاد تصبح سابقة: الفتيات العازبات يذهبن بمفردهنّ إلى السوق! ما ضرّ لو اصطحبن معهنّ خالة متزوجة أو عمّة تقدّمت فى السن وتمرّست بالتقاليد؟

مثل هذه المقالات أثرت بشكل جليّ على حركة السفور التي، كانت قد بدأت بجرأة بين مسيحيات العاصمة وبخفر بين مسلماتها. تراجعت الكثيرات عن التفكير به، ومن سبق لها أن تجرّأت عليه، عادت ترمى البرقع على وجهها. وكاميليا، بعد سفور جزئى دام أكثر من عشر سنوات، هى طوال إقامتها فى بيروت، صارت تغطى وجهها حتى فى طريقها إلى القدّاس. وفى باحة الكنيسة، كان عليها أن تتحمّل وطأة النظرات والوشوشات. فأولياء الأمور هناك، لم يكونوا أقلّ هلعاً من أمثالهم فى الضفة الأخرى من المدينة. تتردّد فى خواطرهم العبارة المألوفة، أنّه ما من لقاء بين امرأة ورجل إلاّ وثالثهما الشيطان. رعاة الكنائس يشيرون بصورة لا يُخفى قصدها على سامع، إلى الصبيّة دون ذكر اسمها، كأمثولة على الاستسلام لإغراءات العصر. يطالبون العائلات بنبذ الأفكار المتدفقة من أوروبا والتى باتت تهدد التقاليد. تقاليدنا الشرقيّة التى ينعم الناس بها فى هذه البقعة من العالم، حيث مازالت الكنيسة هى المرجع. هى التى تمسك بمقاليد الصح والخطأ، وتُرشد المؤمنين إلى الطريق القويم. بعض الشعوب، بزعم التمدّن، بدأت تدير ظهرها للكنيسة. يدّعون أنّ فى وسع الإنسان تسيير حياته كما يشاء. يسمّون هذا حريّة! أيّ حريّة تلك التى يقطع بها الناس صلتهم بالله وبكلمته المقدّسة؟

انكفأت الطوائف على ذاتها. الطائفة اليهودية المتزمتة التى سبق لإحدى بناتها الطائشات أن هربت قبل ربع قرن مع رجل مسلم، عادت تضيّق أبوابها على معاشرة الطوائف الأخرى، كى لا تتسرّب إحداهن ثانية إلى هذه الجهة أو تلك فى زمن أُفلتت فيه الحدود.

وكادت الهاربة المسلمة، أن تُلعن فى المساجد لو لم يستبق المفتى الأمور،

فيكثّف لقاءاته بأئمتها، ويرسل رجاله إلى هواة الخطابة على المنابر. كثيرون يتربصون للانتقام من الأفندي: آل صالح لتخلّيه عن ابنهم، والمتحزّبون للأتراك لإعجابه بالغرب. عائلة اسماعيل هذه اختلط الحابل فيها بالنابل. ما عاد أبناؤها يَعرفون فى أيّ صف يقفون. وسيّدها استسلم لغواية أفكار جلبها معه من بلاد الأفرنج. يُشاع أنّ مجلسه صار منبراً يناقش فيه الحاضرون كلّ ما يخطر لهم بل ويناقشون وجود الخالق عزّ وجلّ!

★★★

وأعيد النظر فى مسلك العائلة: عائلة ابتلت بالعشق! تحمل جرثومته فى دمها الابنة رضعت كلامه مع قطرات الحليب. تنشقته مع أول الأنفاس. أبوها، وريث الجاه والمال واللقب، ابتلى به، عَشق زوجته التركمانية كما يعشق رجل امرأة ليست حلاله. ولم يحتمل فراقها فمات بعدها بقليل. يقال كان يصحو فى الليل، يبكى بكاء طفل فقد أمه. يقال إنّه ما عاد قادراً على تدبير شئون داره وملكه، حتى إن أولاده الرجال نوى البأس مثله تدخلوا وتمنّوا عليه أن يتزوّج من بعدها لينسى. لكن هوى التركمانية كان أقوى منه. اللعنة ذاتها لحقت بابنه البكر. عشق الأجنبية التى لا يُعرف لها أصل، على زوجته بنت الحسب والنسب. ولولا رأفة هذه لانهار. راح إليها يستعطفها أن تخطب له الأجنبية. إن كانت لا تريد أن تفعل هذا لأجله فلتفعله لأجل العائلة. حكايات، تغلغلت فى روح أخته، جعلتها تستحلى العشق وتَحلله لنفسها. وما زاد الطّين بلّة أنّ نساء العائلة، وغالبيتهنّ وافدات من حلب أو اسطنبول، حين يأتى المساء، تحمل كل منهنّ آلة الطرب التى نشأت عليها ويشرعن مداورةً فى العزف والغناء. موسيقى وأغانٍ تتحدث بلوعات النفوس ولقاء العشاق وفراق المحبين. ولطالما جلس الباشا معهنّ كما دأب على اصطحاب وردة شاه لتسمع وترى. ومنذ طراوة عودها، بدأت هذه تتدرب على يد زوجة أخيها الإسبانية . تصغى إلى الآلة العجيبة التى يسمونها الفونوغراف. فى وسطها اسطوانة تدور مثل صحن أسود

وينبعث منها أغانٍ باللغة الأجنبية. أجمل من صوت الشيخ رضى الإسكندراني. والبنت اليافعة وزوجة أخيها على الإيقاع ترقصان. تتقافزان على الأرض تقافز الشياطين وأذيال فساتينهما تتطاير فى الهواء فتبين ملابسهما الداخلية من تحتها. ويقال إنهما كانتا تعرضان الرقصات تلك فى خلوات خاصة أمام السيدات. و بعض هؤلاء صرن يسألن الأجنبية أن تعلّمهنّ إياها كى يرقصنها لأزواجهن فى المخادع. أمور كادت تفسد مدينة بأسرها. حتى إنّ المحصنات صرن يحلمن بالحب لبناتهن، ويحلمن بالعربة التى أُدخلت فيها الأفرنجية إلى المدينة. العربة المزينّة التى إن "قاتت أفراحهن" فلن تفوت أفراح بناتهنّ بإذن الله. ليت المسألة كانت تقف عند هذا الحد. ففى هذا الزمن الذى شُرعت فيه الأبواب، دخلت العالمات والغوازى البيوت واختلطن بالمحصنات والعذراوات! وهل لهؤلاء الدخيلات من أحاديث غير سير العشق وغرام الرجال والنساء؟!

"- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله! وكيف يدعون غازية تختلط بطاهرة؟!

- يسمحون بهذا كما سمحوا بالسفور. إن كانت كاميليا سافرة، فهى مسيحية، وقادمة من بلاد لا حلال فيها ولا حرام. أما أن تكبر الفتاة وتخرج فى الشارع كاشفة الوجه على مرأى من الناس، الكبير منهم والصغير يرى فمها وأنفها، وحين تتكلم أو تضحك، يرى أسنانها ولسانها، ففى هذا ما يدكّ أعمدة الدّين والأخلاق؟!"

★★★

انتشرت الحكاية انتشار النار فى الهشيم. وانشطرت بين واقع وأسطورة، لتلبس أخيلة الأماكن التى تصل إليها. من بيروت إلى طرابلس والشام ومنها إلى صيدا، وصور وحيفا. حكايات رمت الرعب فى قلوب السكان. يتحدثون عن حاكم تركى جنّد شاباً ليخطف له من بيروت ابنة الحسب والنسب ويتخذها خليلة لنفسه.

- "عجباً ما الذى يدعوه لذلك والعالمات والغوازى يملأن البلاد؟

- لا شرع عند هؤلاء ولا ناموس. يُقال، إن الحاكم هذا، يجلس في السهرة مع صحبه، ويُحضرون له ابنة الأصول لترقص أمامه الرقصات الشيطانية تلك. فيهز رأسه عجباً وإعجاباً! من أين تعلمت هذا، يسأل؟

- من زوجة أخيها الآتية من بلاد الفالانج".

وقيل، همساً والذمّة على الراوي، إنّ الخليفة نفسه يُرسل رجاله كلّ عام، يجوبون البلاد بحثاً عن فتاة جميلة. لا فرق عنده إن كانت مسيحية أم مسلمة. فقد عُرف عنه ما عُرف عن شهريار في ألف ليلة وليلة، يريد عذراء مطلع كلّ شهر. لا يقتلها بعد أن يقضي رغبته منها كما كان يفعل سلفه، بل يهبها لأحد رجاله الأثيرين لديه. وحفيدة الباشا هذه، بعد أن اختُطفت، أقامها الخليفة في قصر "ضولمة بهجة" خليلة له بالحرام. لم يستأذن إخوتها ولم يعقد عليها. وهؤلاء للعار الذي أصابهم أعلنوا الحداد، فدهنوا جدران منزلهم بالغار والفحم الأسود. "

كان بعض الفضوليين من الناس، والميالين إلى مشاطرة الآخرين الأحزان، حين يأتون إلى بيروت من سائر الأقطار يبحثون ليتفرّجوا على هذا البيت الأسود الذي لا وجود له.

الشائعات، أبلغ الرسل، بلغت الصدر الأعظم. وهذا، على الرغم من انشغاله بهموم السياسة ومواجهة بلدان تتحضّر لتنقضّ على "الرجل المريض"، لم يَستَخف بالمسألة. خشي أن يُلهب الخاص العام ويشعل البركان الذي تتربّع عليه السلطنة. هكذا أرسل إلى الولاة البرقية تلو الأخرى، يحثّهم فيها على إخماد الأقاويل. كان على مفتي الديار أن يرسل كبار مشايخ المسلمين، وعلى مطرانيات الطوائف المسيحية، أن تُجنّد من يمكنها تجنيده، ليقوم برحلات في طول البلاد وعرضها. السبب المعلَن للزيارات هو الاطمئنان إلى أحوال الرعايا وإحصاء النفوس لسجلات القيد وتذاكر الهوية الجديدة. إنّما الخفيّ منه هو إبطال الشائعات التي خرجت عن السيطرة حتى بلغت الآستانة.

الكوارث التى تتدخل فى الوقت المناسب لحل الأمور المستعصية تدخّلت هذه المرّة لتخفّف من وطأة الأحداث عن نورالدين. فى أوائل خريف ذاك العام فُتحت المغلّفات ودارت الطبول، وطاف المنادون فى الأحياء يعلنون للناس النبأ الذى طال خوفهم من سماعه: الحرب الكونية بدأت. والخلافة العثمانية أعلنت، على لسان أمير المؤمنين، الجهاد فى سبيل الله، حالياً للدفاع عن النفس. إنّما على الشبان فى كلّ مكان أن يستعدّوا إذ قد تُضطر الظروف لأكثر من الدفاع عن النفس.

ووجد نور الدّين الفرصة مواتية فأغلق مجلسه، منهياً الدور السياسى الذى يقوم به آل اسماعيل منذ مجيء الجد سليم باشا لإنهاض بيروت. هكذا يخلص من وطأة العين ومن جحيم النظرة. يريح جليسه من الارتباك. من المراوحة بين ظاهر مهموم بقضايا البلاد وخفيّ مأخوذ بقصة الفتاة الهاربة. مراوحة يفضحها سلوك المحدّث. تفضحها نظراته المواربة. ومبالغته فى الالتفات إلى هذه النّاحية وتلك. لكنّ المعنيّ بالأمر لا يفوته المغزى. لا الحرب الكونية ولا أية كارثة أخرى ستشغل هؤلاء عن حكاية أخته. يحاول أن يشرح لكاميليا أنه منذ الحادثة تبدّلت الموازين. ما عاد نور الدين فى نظر هؤلاء هو نفسه، وما عادت حجّته حجّة حرّ قويّ. يجدر به أن يُخضعها لرقابة من مُنى بالهزيمة. أن لا يشطح بعيداً. لو أعلن لهؤلاء الآن موقفه من الحروب، كل الحروب، لهزّوا رؤوسهم استخفافاً. لو قال لهم الشيء ذاته قبل أيام لجعلوه قديساً وحملوا دعوته فى البلاد.

بعد إغلاق المجلس، غيّر نور الدين مكان إقامته. وبدل الجلوس فى ديوانه المؤدى إلى الخارج، لجأ إلى الديوان العلوى فى طابق تستقبل فيه سيدات المنزل زائراتهنّ المقرّبات. وصار يؤتى له بالطعام. ولولا اضطراره لمقابلة المشرفين على الأعمال وإدارتها، لما رغب فى النزول. فقد أنس لمقره الجديد غير آبه لاعتراض كاميليا ولا يلوم السيدات. يلازم مكانه على الكنبة ويقرأ. ومن خلف المشربية يتناهى له خرير ماء النافورة الرتيب. تتراءى له البركة

المسدسة الأضلاع القائمة وسط الدار. يتأمل النافورة وأشجار الحديقة، ويلاحظ أن بعضها غدا شاهقاً. ويسرّح بصره إلى الخارج. من بعيد يظهر له البحر وقبله المقبرة. وفى رؤية شواهدها وتذكر بعض الراقدين فى ترابها، يزداد زهداً بالدنيا. ويغدو شديد القرب من نفسه، ومن الجوهر. هكذا، وفى عزلته استسلم سيد البيت إلى نعمة اكتئابه. الحقائق كشفت عن وجهها البائس وحل انسجام غريب أساسه الحرب المنتظرة! غول مجهول سيلتهم بنى البشر، يشغله قليلاً عن حاله، إنما ليعيده إلى ذلك السؤال: إذا ما كان فى الاستشهاد عزاء، وفى الموت حكمة هى المعروفة بين الناس، فما الحكمة مما حدث له؟ حين أُعدم ابن خاله، تمزّقت روحه لكن النفس ظلت أبية، والهامة مرفوعة ببطل تسلق حبل المشنقة هاتفاً ضد الظلم، داعياً للحرية. عشر سنوات والرجال فى المجالس يردّدون ما قاله الشهيد، والصبية فى الشوارع يهتفون بما هتف.

فى خلواته الطويلة أسئلة كثيرة وأفكار تطوف فى رأس نور الدين: أيّ قدر شيطانى تدخل ليفسد عليه أحلامه؟ وإذا كان ما حدث من مشيئة الخالق، فلم اختاره هو لهذه التجربة؟ هو، نور الدين الذى عُرف بالصلاح؟ من اختاره أبوه ليغدو أسير الأمانة؟ أربع عشرة سنة وهو يقوم بما أُؤتمن عليه. أرسل أخته إلى أفضل المدارس وعقد عليها الآمال. تخيّلها متعلّمة. شاعرة تجالس الشعراء. أو سيّدة ناشطة فى المجتمع تؤسس المدارس وتدعو لإصلاح المجتمع. وتغدو نموذجاً تتطلع إليه كل فتاة تصبو لنمط حياة مغاير. مسألة واحدة لم تخطر فى باله بصورة جادة، بشأن هذه الفتاة التى كانت فى خلده منزهة، زواجها. صحيح أنها لم تكبر على نحو كافٍ لتتاح له الفرصة، إنما من مرّة تخيلها متزوجة شأن جميع فتيات الدنيا. كيف لم يخطر له أن تكون أخته، "كاميليا" بالنسبة لرجل؟ والآن ماذا فى وسعه أن يفعل؟ يسافر؟ إن سافر فلمن يترك مسؤولية وردة؟ وفى جحيم تساؤلاته أدرك أنه هو نفسه بات أسيراً مثل وردة.

ومثلها يخلد إلى وحدته، أو يمارس رياضته الروحية التى درّبه عليها يوغى هندى التقاه فى ألمانيا. دلّه هذا إلى "الكرما". وبواسطته توثقت علاقته بها. وفيما أخته الآن فى المستشفى تهذي، صار يستعطف كثيراً هذا المتصوّف كى يحضر. كما يستعطف حضور عزمى إسماعيل.

الأب، عائداً كثيراً قبل أن يظهر.

كان هو مستنداً إلى حافة النافذة شارد الخاطر، ولعلّه قد غفا. وفى غفوته الخاطفة تراءى له عزمى إسماعيل! وانفعل هو وهمّ بأن يأخذ الميّت الحيّ فى حضنه لكنّه تريّث. وجه الباشا لا يبشّر بالرضا! وسارع هو للسؤال: يا أبت، ماذا علىّ أن أفعل؟

- دبّر لأختك ابن حلال يسعد قلبها.
- حاولت يا أبي، لكنّها رفضت، وهربت.
- أعرف.
- وكيف عرفت؟
- قلب الأب دليله.
- والآن؟
- حاول ثانية.
- لكن من سيرضى بعد هذا أن يتزوّجها؟
- شاب من دارنا. متعلّم.
- لكنّه يريد قتلها.
- لا. لا أظنّه يفعل.
- بلى يا أبي. ولولا...
- قلت لك متعلّم من دارنا؟!
- متعلّم من دارنا؟!
- نعم.

لغرابة ما سمع، فتح نور الدين عينيه.

كان لا يزال متكئاً على حافة الشباك. فإذا به يلمح "خالد" ابن جلنار يعبر الحديقة. عجباً! إن كان أبوه يأمره بأن يدّبر لاخته ابن حلال من الدار، لحظة مرور خالد فى الحديقة، فلا بّد أن يكون لهذه المصادفة من مغزى! وأن يكون للمغزى صلة بحادث سابق:

منذ سنوات جاءه رضوان لاستشارة: "ما هى الاستشارة يا رضوان؟ مستقبل ابنى خالد. نحن حاضرون لكلّ شيء. ماذا تريد؟ أريد له مستقبلاً مختلفاً. لا بأس، ماذا بالتحديد؟ يا حضرة الأفندى أسألك لتساعدنى فأنا نفسى لا أعرف. أتمنى أن يكون له شأن بين الناس غير ركوب الدابة إلى الحقل؟ إلى أين تريده أن يركبها؟ لا أدري".

فكّر نور الدين ملياً وقال: ندخله "دار المعلّمين". أفتُتح هنا فرع للدار تابع لاسطنبول. يقال إنّه ممتاز. "هكذا بعد سنوات تخرج خالد وصار يركب الدابة إلى المدرسة. معلّماً مميّزاً فيها". بلى، هذا هو الشاب المتعلم الذى ألمح له أبوه".

هل يخبر كاميليا؟ هل يستشير سيّدات البيت؟

أم يتخذ القرار بمفرده؟

لكنه ليس وحده وفى يده أوامر أبيه. هكذا عقد النيّة. الضربة الأخيرة التى من شأنها إنقاذ أخته. وإذا ذكّرته كاميليا بضرورة استشارتها رفض. كان موقناً أن عقل وردة شاه، بعد سجن طال شهوراً وحادثة رمتها ببارانويا تُصوّر لها أنّ حاميها هو نفسه قاتلها، لا شك قد تدهور، كما يتدهور عقله، هو الحرّ الطليق.

نعم، حسم أمره، ويقينه أن زواج أخته سيعيدها إلى الحياة الطبيعية. ومن جديد ستأنس إلى حريّتها وإلى معاشرة الناس. ولن تلبث أن تنسى أصول زوجها الذى سيصبح واحداً منهم. وشيئاً فشيئاً ستعرف السعادة طريقها إلى قلبها المثقل. وإذا ما رزقها الله أبناء وبنات، فستنسى تماماً

حكايتها وينساها الآخرون. التفت إلى كاميليا وقال:

- أخبرى السيدات أنى استشرت عزمى إسماعيل وأنه أشار علىّ. سأزوج وردة لخالد بن رضوان، وبنفسى سأزف الخبر إلى الرجال. أو مهلاً... ربما أنه من الأفضل أن نتريّث إلى حين ننتهى من مسألة التحقيق. أخشى أن يشغلنى القاضى الجديد بالطلبات المستحيلة التى شغلنى بها سلَفه.

عروس بالأسود

حين وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، وسارت الشائعات على الألسن سير الأساطير، ووردة يتردّى حالها وتهذى بالرحيل مع بشارة إلى جنّة أمّها بوران، كما تطالب بمجيء مربيتها... بعثت كاميليا بمرسال إلى رضيّة. وهذه جاءت لتنقذ ابنتها التى تولّت إرضاعها ورعايتها حتى اليوم الذى غادرت فيه آل اسماعيل وكان لوردة ثلاث عشرة سنة. يوم ودّعتها ذاك الوداع الأليم على مرأى ومسمع الحاضرات. رضيّة تبكى والابنة تمرّغ شعرها بمشطى قدميها وتستحلفها ألا تسافر. تستحلفها، إن سافرت فلتترك لها أخاها محمود! النسوة من حولها يبكين ورضيّة تشهق وتقسم أنها سترجع حال تدبّر أمر ولدها سعيد المقبل على الزواج.

لكنها لم ترجع.

بلغ المرسال رضيّة فجاءت بسرعة الطير. وركعت عند قدمى سيد البيت تقول له: والله إنكم تحاسبونها على ما لم تفعل. فأنا، بعد الله سبحانه وتعالى أعلم الناس بمن أرضعت وربيت. ما عصتْ وردة شاه وما هربت بل قرينتها هى التى فعلت.

- قرينتها؟

- نعم، وكان من عظيم كرمكم أنكم صفحتم عنها وفكّرتم فى تزويجها، لكن، إذا سمح سيّدى فلأمّها رضيّة رأى آخر.

- انهضى يا رضيّة وقولى ما هو رأيك؟

- لن ينفع أن تتزوج وردة الآن لا من ابن جلنار ولا من أمير الأمراء.

- لماذا؟

- لأنها الآن متزوجة.

انزعج نور الدين من الجملة التى تفوّهت بها رضيّة، رغم علمه بقدرتها على ابتكار الترّهات. قطّب جبينه وهو يسأل: متزوّجة؟

ـ نعم. إنما ليس بواحد من بنى البشر بل من معشر الجنّ هو فى واقع الحال سيدهم.

تنهّد نور الدّين وهو يعيد كلام رضيّة بصيغة السؤال:

ـ متزوجة من سيّد الجن؟

ـ نعم. وهذا ما أطاش صواب قريبتها. فهذه ما إن علمت بزواج توأمها التى تعبد بسيّد الجن، حتى جُنّ جنونها وهبّت من مرقدها عازمة على الانتقام.

ـ هكذا إذن!

ـ نعم! معشر الجنّ يا سيّد نور الدين يعيشون فى الفوضى. الأنثى منهم تعشق اختها ويعشق الذكر الذكر. لا حدود فى أعرافهم بين ما حلّل الله وحرّم.

ـ غريب!

ـ بالطبع غريب. وقرينتها، لفرط غيرتها، صمّمت على أن تنتقم فتقوم بالمثل وتروح إلى رجل من بنى البشر تحبّه وتَتزوجه. هكذا ففى الظاهر، وردة هى التى هربت، إنّما فى حقيقة الأمر، قرينتها هى التى فعلت. غير أنّ يقظة الأفندى أفسدت على أهل الجنّ إتمام غرضهم والحمد لله.

ـ الحمد لله يا رضيّة.

ـ إذن، كيف تزوّجونها وقرينتها لا تزال غيورة مهتاجة؟ الجنية يا سيّدي، إذا ما جُنّ جنونها، أمسكت بقرينتها مثل أخطبوط حتى يغدو من المستحيل على هذه الإفلات.

ـ وما العمل إذن؟

ـ هاتوها آخذها معى إلى حمص نقيم لها الزار لنخرج قرينتها من دخيلتها ونطلّقها من سيّد الجنّ.

ـ تطلّقونها من سيّد الجن؟!

ـ نعم. وبعد فك الاشتباك تعود إليكم سليمة معافاة كما كانت، وتتزوّج من يختاره لها ربّ البيت وتاج رأسنا جميعاً نور الدين.

رضيّة تتكلّم فيما نور الدّين يتأملها كأنه يراها للمرة الأولى! ويتحسّر كيف أفلت الأمر منه وترك أُخته فى رعاية هذه المرأة الخرقاء التى ما زالت تستعطف: إن كان سيد البيت يعارض ذهاب أُخته إلى حمص فسأحضر مقيمى الزار إلى هنا لتخليص وردة من مخالب قرينتها.

ـ كفى عن هذه التفاهات يا رضيّة.

طأطأت رضيّة رأسها، وبعد برهة خرجت عن صمتها لتقول: يا سيدي، اسمح لى بشيء آخر... جلنار التى تثقون بها ما زالت مستمرة فى غيّها.

ـ فى غيّها؟

ـ نعم. كتابة "الكتب" لنساء آل إسماعيل.

ـ ثانية تلصقين بها التهم؟ إياك أن تأتى لذكر جلنار.

قالت رضيّة "حاضر" فيما هى تتساءل عن السرّ الذى يجعل عائلة نور الدين تجلّ على هذا النحر، جارية اشتروها من السوق! ويغلقون عيونهم عن "أعمالها". وهى رضيّة، لا يغشنّها كلام جلنار عن تأنيب الضمير. "يا رضيّة أنا امرأة تخاف الله، ولا تنسى فضل سيّدها عليها. عقلى محتار وقلبى ممزّق. لا أدرى إن كان عليّ، رداً للجميل، أن أزوج وردة لابنى خالد، أو أن أبعده عمّا يُذل عائلة الباشا الذى أخرجنى من ظلمة العبودية إلى رحاب الإنسانية! ارحمينى يا رضيّة، قولى لنور الدين أن يبحث لأخته عن ابن أصول مقامه من مقامها. ابن أصول لا يُزعل زواجه من وردة تاج راسنا وسيّدنا جميعاً عزمى إسماعيل"!

جلنار، أول ما فاتحها رضوان بشأن زواج خالد من ابنة الباشا، أصابتها الصدمة! من تلك الصدمات التى تفقد السيطرة على النفس

وتسرق من الفم الكلام. وكما حدث لها يوم أُخذت إلى سوق الجواري، ويوم خرجت منه، صارت تثأثئ. لا ريب فى أن مساً أصاب زوجها لتخطر له الفكرة! كيف ستجرؤ على خيانة الباشا الذى قال لها ذاك النهار: "أنت منذ اليوم حرة ونسلك كلهم أحرار إلى يوم الدين" ؟

رضوان يؤكد لها أن الفكرة فكرة الأفندي. والشرح الذي، غايته طمأنة جلنار، زعزع فى واقع الأمر كيانها. وجعلها تهرع إلى الداخل وتفرش سجادة الصلاة وتبدأ تصلّي. صلوات تختلط فيها التركية بالعربية والبكاء بالرجاء، تتضرّع فيها إلى العلى القدير أن يهدّئ روعها! أن يردّ عن خيالها نظرات الباشا الغاضبة. وخطر لها أن تنهى صلاتها وتقصد نور الدين. نعم تتجرأ وتعترض. رآها زوجها تذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً مرددة بإيقاع هستيري: يا رب ألهم الأفندى حلاً آخر. حلاً يرضى عنه الحيّ والميت! يا ربّ احمِ ابنى خالد من غضب الباشا. يارب...

ثم خطرت لها فكرة أخرى: أن تستعطف كاميليا كى تتدخّل لدى نور الدين. لكن تلك بيأس أجابت: "لا فائدة يا جلنار. حاولت".

★★★

إزاء رفض نور الدين خطر لرضيّة أن تدبر أمر الزار محلياً. واسترحمت الأفندي، أن يسمح لها بذلك، وسمعت منه الجواب متقتضباً واضحاً. يا رضيّة، إن أردت العودة ورؤية وردة فأهلاً بك، البيت بيتك والفتاة ابنتك. أما حكاية الزّار، فهذا ما لا يمكننى السماح به أبداً.

★★★

قبيل المغيب، جلس نور الدين كعادته خلف النافذة المطلّة على الحديقة، يستعرض الأفكار، تحت وطأة الشعور بأن القدر تعامل معه بلا رأفة. وفى غمرة تساؤلاته عن السبب غير المفهوم، الذى جعل وردة تقوم بما قامت به، لام نفسه كيف ترك أخته فى رعاية امرأة خرفة تؤمن بالزّار وبزواج الجن

بالإنس وما إلى ذلك... ولولا المصيبة التى هو فيها لضحك. وإذ دخلت عليه كاميليا وجدته يضحك. يضرب كفاً بكف ويقهقه. وقفت تنتظر، وتوقف هو عن الضحك ليسألها بكامل وقاره المهزوم أن تذهب إلى رضيّة وتؤكّد لها على لسانه... إياها أن تحدّث وردة بالترهات، مثل زواج الجنّ والإنس وغيره القرينة والقرين. إيّاها! مفهوم؟

قال هذا ليفلت الأمر من يده، فينهض رافعاً سبّابته بوجه كاميليا مهدّداً بالصراخ: وليكن مفهوماً لديها أنّها لو فعلت فلن تدخل البيت ثانية!

كاميليا غادرت الغرفة وعاد نور الدين إلى لوم نفسه. أتكون أخته قد رضعت من رضيّة الأوهام مع الحليب؟ أتكون روحها تشرّبت الخرافات مع أوّل الأنفاس؟ ماذا لو أنّ وردة، لفرط ما سمعت عن ترّهات مثل هذه، انتهت إلى الاعتقاد بأنّ لها قرينة من معشر الجنّ تأمرها فتطيع، وتندفع إلى تصرّفات متهورّة مختلّة مثل التى قامت بها؟ هذا يعنى أنّ أخته واقعة تحت سيطرة جنّية. لا همّ إن كان هو نفسه يؤمن بمثل هذه الترّهات أم لا؟ يعنى أن الجنّية تلك تعبث بإرادة وردة وتدفعها إلى سلوك مضطرب تُرجم بمغادرة البيت! لابدّ أنّ أخته منذ طراوة عودها تعايش أطياف المخلوقات الوهميّة التى ابتدعتها لها رضيّة! وما سؤالها ذاك اليوم عن الجنّية الصغيرة ذات الجدائل الطويلة والشرائط، وإصرارها على اللعب معها، وما انطواء الصغيرة التى تخبره به كاميليا، إلاّ براهين على ذلك. نعم، فى غمار انشغال أفراد العائلة الكبيرة، كانت رضيّة تبنى أعمدة العالم الخيالى الأخرق الذى أدخلت فيه وردة. حيث معشر الجنّ يسرح ويمرح، يتزوّج من الإنس ويطلّق. يعشق مثيله أو مخلوقات مغايرة لا فرق... فالعالم الجنّى كما تصفه رضيّة الخرفة تسوده الفوضى. لا ريب فى أن الصغيرة المتعطّشة للحنان، وفى لهفتها على الحب العظيم الذى تمنحها إياه رضيّة، صارت تتلهّف على أيّ شيء يمتّ إلى عالم هذه بصلة. هكذا وفى غياب مربيتها باتت وحيدة فى مواجهة تلك المخلوقات المتعسفة.

لا حول ولا قوّة إلا بالله! لابدّ إذن من العمل على تخليص وردة من شباك العالم الوهمى الذى تعيش فيه. لا هم إن كان هو يؤمن بالترهات هذه أم لا. هكذا وبعد فورة غضبه استدعى كاميليا ليقول لها ما سيصيبها بالذهول: اذهبى إلى رضيّة. قولى لها أن تُحضر وبأسرع ما يمكن فرقة الزّار، لتخليص الفتاة من سيطرة الجنّ عليها.

★★★

أحضرت رضيّة الفرقة.

الشيخة "أم البدور" واثنين من ضاربى الطبول ونافخى المزامير. صاروا يأتون لإقامة وصلات الزار فى ملحق البيت الذى سكنته رضيّة وولداها أعواماً طويلة. ضجيج الموسيقى حين تصدح يصل إلى أطراف المدينة ويجذب فضول القريب والبعيد. والناس يتوافدون للفرجة، مما اضطر أصحاب البيوت إلى إقفال بابه الخارجي.

أقاموا للصبيّة سبع وصلات على مدى أسبوعين.

وكانوا حسب أصول الطقس، يُجلسونها فى منتصف الدائرة، ويحيطون بها: عاملو الزار، الخادمات، وبعض سيدات آل إسماعيل. تشرع الفرقة بضرب الطبول فى إيقاع هادئ متكرّر ودؤوب. وشيئاً فشيئاً يبدأ نافخو المزامير بالنفخ، والمنشدات بالإنشاد. الشيخة لا تلبث أن تدخل الحلبة وتدور حول وردة دوراناً خفيفاً، يراوح ما بين الرقص والندب. إيقاع الكورس يحمى ويشتد، ثم يخف. وفى لحظة الهبوط تدندن "أم البدور" بالحداء بكلامٍ مفهوم وغير مفهوم، يطالب الجنّية بالخروج من روح أختها والجنّ من تطليق زوجته. وإذ يتسارع الإيقاع ثانية وتضج الطبول، تتحوّل لهجة الاستعطاف إلى أمر وزجر. يا سيّد الجنّ اخرج. يا قرينة الروح انسلخى. تصرخ بهؤلاء، فيما رضية تستحلف ابنتها أن تحذو حذو الشيخة فتؤدى الحركات التى من شأنها مساعدة الجسد على طرد ساكنيه. فلترقص وتتلوى وسط

الكورس، تطوى نفسها وتنفض شعرها وتلوّح بذراعيها. إنما لا فائدة. رجاء رضية وإلحاح الشيخة، يزيدان وردة عناداً، فتتكوّر على نفسها وتسد أذنيها بكفّيها ولعلّها كانت تصرخ ولا يسمعها أحد. وبقيت على هذا الحال حتى دب اليأس فى قلب "أم البدور". وصارحت رضيّة بأنّ القرينة لا تزال فى الطور الصعب. ذاك الذى لا تصغى فيه الجنّيات إلاّ للسان حالها. وأنه لابد من مواصلة الزار إلى أن تستسلم تلك ويفرّ سيّد الجنّ. أن تستمر ربما لشهور...لسماعها ذلك، هبّت وردة عن الكرسى وهجمت على الشيخة، شدتّها من شعرها وأنزلت رأسها إلى الأرض، بصقت عليها وراحت ترفسها. اندفعت النسوة يخلّصن الشيخة من يدى الشابة الهائجة، فانتقلت هذه إلى مربيتها، تضربها وتشتمها: يا خائنة، يا كاذبة... وتلك استسلمت منشغلة بالاعتذار من أم البدور. ولعجبها، بدت الشيخة منشرحة مستبشرة! ترى فى الثورة التى أصابت "المسكونة" مؤشراً إلى دخول هذه فى معركة حامية الوطيس مع قرينتها. نعم، يا رضيّة، جلسات الزار بدأت تعطى ثمارها. فالجنيّة تتزحزح من المكان الذى رسّخت طويلاً موقعها فيه.

منشرحة الأسارير ومعها بعض السيدات، أعادت رضية وردة إلى غرفتها، منهكة، منفوشة الشعر، تتصبب عرقاً وكأنّها على حافة الإغماء. كان نور الدين نازلاً من ديوانه العلوى ليستفسر عمّا يحدث... وهاله منظر أخته، فأمر بإيقاف الوصلات، التى فى زعم القضاء على القرينة تكاد تقضى على الفتاة نفسها.

رجعت رضيّة إلى حمص كما جاءت حزينة مهزومة.

لم يتغير شيء. سوى أنّ المقرّبين اعتبروا أنّ الصدمة أصابت صديقهم شيخ السياسة نور الدين بمس، وأن الزار الذى لم يكن شائعاً فى بيروت بدأ ينتشر، وصار له أتباع وشيخات وفرق، تجوب بلاد الشام، تجنى الربح الوفير وتروى حكاية ابنة الذوات التى لولا الشيخة "أم البدور" لظلت زوجة سيّد الجنّ، تسكنه وتأتمر بأمره إلى الأبد.

★★★

بعد ذلك، وفى فصول حكاية انشطرت بين واقع وأسطورة، غدا كلُّ شيء معقولاً مثل أن تكون جلنار هى التى حبكت... مستعينة بشيوخ السحر حتى كسبت المعركة. ومثل المنامات الغريبة التى صارت تحضر نور الدين، وفيها ينهال بالضرب على أخته وردة، مرّة "فلقه"، بشوبك العجين، ومرات على رأسها بقش المكنسة. أو يحبسها فى كيس الطحين، فلا يظهر منها سوى ذراعيها ورأسها! كل شيء غدا معقولاً، مثل أن يكون ما رَوَته فريدة ابنة الماشطة سعيدة، قد جرى بالفعل على ذاك النحو...

"حين ضجت البلاد بحكاية وردة قرّر أخوها تزويجها ممن سيرضى بعد الفضيحة أن يسترها. وبعد اليأس من طول البحث، راح إلى الجيناتى رضوان يطلب منه يد ابنه خالد لأخته وردة:

- يا أخى رضوان، منذ خمسة وعشرين عاماً وأنتم فى ديارنا. لم نَر منكم غير المسلك القويم والعمل الجميل. وَولدكم شهم، وابن مدارس، وقد ترعرع فى ديارنا. ما رأيك أن نزوّجه ابنتنا وردة فيصبح هو منّا وأولاده من نسلنا"؟

"قيل، إنّ الرجل لم يصدّق أذنيه، فانحنى يقبّل يدى سيّده، وكاد يقبّل قدميه، لولا أن الرجل استكبر واستغفر. وانفجر رضوان بالبكاء وهو يردّد آيات الشكر والامتنان على الشرف العظيم الذى منحه سيّده إياه. ولما أعطاه الأفندى مهلة أياماً ليستشير فيها ابنه، أجاب أن شرفاً مثل هذا لا يستلزم المشورة. "لكنّ نور الدين أصرّ. غاب رضوان ساعات رجع بعدها إلى سيّد الدار مؤكداً أنّه كلّم زوجته وابنه فامتنّا هما أيضاً للخبر. الشاب سيأتى حال يأمر الأفندى باستقباله . وجلنار سجدت تقبّل الأرض وتحاول أن تصلّي.

- تحاول؟

- نعم، كلّما شرعت بالصلاة شهقت بالبكاء. تمسك المسبحة "لتستخير" ربّها فتسقط تلك من كفّها! تخشى أن...

ـ قل لها إنّ الباشا هو الذى أمر بذلك".

وقالت فريدة:

"وفى اليوم التالى أعلن الأفندى تعيين خالد بن رضوان، مسئولاً عن جميع أملاك العائلة، الزراعية منها أو غير الزراعية. الموجودة منها فى بيروت أو خارجها. وفى المساء، زُفّت البشرى لرجال العائلة ونسائها. وأمر أخوها فحضرت أمهر خيّاطات بيروت لتخيط لأخته الجهاز. تنافست لولا الإيطالية وفاطمة التركية على تصميم الملابس التى ستُفرح قلب العروس. ملابس للنهار وأخرى للّيل. فساتين للمناسبات وأخرى للبيت. ووقع الخيار على لولا لترافق كاميليا إلى حيفا، تشترى من فلسطين الثوب الأبيض والطرحة، والتّاج وكلّ ما يلزم وما يستورده التجار هناك من انكلترا، لتتزين به العروس وتجلس على المرتبة يوم عرسها جلوس أميرة!"

وذكرت فريدة أن أمها الماشطة والسيدات وقعن فى الحيرة. يتساءلن إن كنّ سيأخذن السجينة إلى الحمام فى حوض الولاية مثل سائر العرائس، أم لا؟ سألن أخاها فأجاب: افعلوا كل ما يدخل البهجة إلى قلب وردة شاه.

رافقت وردة السيدات إلى الحمّام. لا أحد يعلم إن هى فعلت ذلك طوعاً أم إلزاماً. الشرط الوحيد الذى طلبته هو ألا تتعرّى، هى أو أيّ من النسوة فى البركة. كما وللمرّة الثانية والأخيرة فى حياتها أبَتْ أن تخرج كاشفة الوجه. لبست ثوباً طويلاً أبيض وألقت على رأسها وشاحاً يغطى وجهها وينسدل إلى ما تحت كتفيها. وحدها فى الملابس البيضاء وحولها النسوة بالأسود. سارت مطأطئة الرأس لا تكلم مرافقاتها ولا تلتفت إلى الناس وقد اصطفوا على جانبى الطريق يراقبون ابنة النوات فى دربها إلى حمّام العرس، بعد سجن دام شهوراً بين البيت والمستشفى. يتساءلون إذا ما كانت مختلّة كما زعم البعض، أم أنّها بكامل عقلها؟ إن كانت سعيدة فى زواجها أم بائسة مرغمة عليه؟

رافقتهن، والحمّام حُجز ذاك النهار لسيّدات آل إسماعيل.

وتمّ تزيينه وإضاءة ممرّاته وزواياه ومراياه بالشموع. كانت ظلال النساء شبه العاريات، فى الرواح والمجيء، بين البركة والقاعات شبه المظلمة، تنعكس على الجدران، ليظهرن مثل أطياف يفاقم وجودها من الدوار الذى تعانيه وردة، ومن عبث عالمها الوهمي. كما أن زغاريد الحاجة أم العُلا، واستجابة الخادمات والمرافقات لها، تزيد من جور كائناته. أما ضرب الصبية على باب الحمّام ليُفتح لهم كى ينالوا نصيبهم من الحلوى والمكسّرات فقد جعل أوصال وردة ترتعش، خشية أن يدخل عليها هؤلاء ويروها شبه عارية!

تركتهن يُحمّمنها إنّما متشبثةً بملابسها الداخلية. وحدها كاميليا لم تنزل إلى البركة، بل جلست مع الحاجة أم العلا تراقب. فى خضم تشاؤمها كانت تحاول العثور على ما يدخل التفاؤل إلى القلب: فى وقت قريب ستتجاوز وردة محنتها وتنسى بشارة. الدنيا هذه كريمة ومثلما أحبت ذاك ستحبّ خالد. ما يُطمئنها أن وردة، حين رأت ثوب العرس الذى جلبته لها، بدت لفرحها غير مصدّقة!. ابتسامة عريضة أضاءت وجهها! راحت إلى المرآة ووضعت الثوب على جسمها، ووقفت تتفرّج وابتسامتها تزداد إشعاعاً. وإذ أبدت رغبتها فى أن تجرّب الثوب، ساعدتها كاميليا على ارتدائه. وعادت تقف أمام المرآة وهى تمسك الطرحة بيد وذيل الفستان باليد الأخرى. ولفرط انفعالها غطت عينيها بكفها وأخذت تضحك. ثم راحت تقبل زوجة أخيها ممتنّة لذوقها الرفيع، قبل أن تجهش بالبكاء. وبعد هنيهة أعادت الثوب ومستلزماته إلى كيس التافتا الذى جاء به ووضعته فى خزانتها وهى تقول: لا أريد لأحد أن يراه. فى حينه، أجابت كاميليا ما كان عليها أن تجيب به، "لا أحد يا حبيبتى يرى ثوب العروس إلا عندما تزف العروس وتدخل على الحاضرين."

كاميليا الآن تسترجع تفاصيل الموقف، فيما النسوة يفركن جسم وردة ويندبن فى سرّهن هزالها. وبالأناشيد المعروفة يعدّدن محاسن عريسها.

"ابن مدارس. بهيّ الطلعة طويل القامة عالى الهامة حسن السيرة شديد الطاعة، لم يشعل في حياته نارة ولا سيجارة. أما المحرّمات من خمر وميسر فلم تلمسها كفة البتّة. مستقيم، يقبّل يدى والديه صباح كل يوم. مؤمن لا يقطع فرض صوم أو صلاة. وفيما عدا وجه أمه لم ير وجه امرأة! يخفض بصره قبل أن تخفض المرأة بصرها. عفيف النفس لن يتخذ يوماً خليلة من العالمات أو الغوازي. والأفندى نور الدين، إنّما لتعليمه وسموّ أخلاقه اختاره ليكون زوجاً لأخته. فإن شاء الله سينجبان صبياناً أقوياء وبنات جميلات مثلها ومثله، ويدخل على قلبها سعادة تتمنّاها كلّ زوجة على وجه الأرض".

خلال الساعات التى استغرقها حمّام العرس لم تنطق وردة بكلمة. وفى ما عدا الزغاريد التى تمزّق روحها لم تبد اعتراضاً على شيء، وإن رفضت مشاركة المستحمّات فى تناول الطعام من جبن وعسل، ومكسرات وفاكهة مجفّفة، وغير ذلك. فقط الزغاريد أخرجتها عن طورها، فهّبت صارخة فى وجه الماشطة تلوّح بسبابتها قائلة: إياك. إياك والزغاريد!

★★★

تقول فريدة:

"صباح العرس، جيء "بسعيدة"، أمهر ماشطات بيروت، لتحضر العروس وتزينها. و كعادتها، صحبت الماشطة معها ابنتها التى كانت تتعلّم الكار على يدها. تُناولها مكواة الشعر والأمشاط والفراشى والمشابك والدبابيس والورود. وراحت المساعدة، وركبتاها ترتجفان من شدة الانفعال، تفك جدائل العروس، وتسرّح خصلات الشعر تمهيداً لكيّه ولفّه: كنتُ أنا فريدة ابنة الماشطة سعيدة، اصطحبتُ أمي. لم يخيّل لى من قبل أنّى سأدخل منزل هذه العائلة الوجيهة، وأُمضى ساعات الصباح برفقة هذه العروس التى لطالما سمعت بها، وأمتّع النظر بالفرجة على غرفة نومها التى هى أشبه بغرف الأميرات اللاتى نسمع بهنّ. أمضيتُ ساعات فى ذاك المكان الذى يخلب

العقل، أتأمل جمال عيني تلك المخلوقة، التى رغم جلوسها بين يديّ، تظهر وكأنّها من كائنات الأساطير! وعيناها الزرقاوان، كلّما التفت إلى هذا الصوب أو ذاك تبرقان بشكل غريب! أتأمّل يديها الطريتين وبياض بشرتها الحليبي. يا سبحان الخالق! وأمى تقول: "استعجلى يا فريدة. استعجلي". دسستُ أصابعى فى خصلات شعرها وأنزلتها على كتفيها العاجيتين. ولفتني، رغم حداثة سنّي، أنها كانت تبتسم ابتسامة غامضة، غريبة! ظننت أن العروس هكذا تبتسم يوم عرسها، فكيف لو كانت من بنات الباشوات؟ ولشدة انفعالى طفر الدمع من عيني. "لا تبكى يا فريدة لا تبكي"، تقول أمي، والدموع تنهمر غصب عني. أتمنّى لو كنت أنا الأميرة بين يدي الماشطة. أتمنّى لو كنتُ أنا وردة شاه. وحين خرجنا أخذتُ أشهق. شدّتنى أمى إليها وهى تؤنّبني: "ماذا يبكيك يا مجنونة؟ أن نحضر أجمل الأفراح؟ أو أن يعطونا فى ساعات ما لا نكسبه فى عام؟ انتظرى يا فريدة، لم ينته بعد كل شيء. فى العصارى خلال العرس وبعده سيغدقون العطاء". أمى تردّد هذا فيما أنا أفكر بالابتسامة الغريبة تلك، وأفكر فى السرّ الذى تخفيه العروس! وقبل أن أنام، حاولت أن أخبر أمى بذلك، فنهرتني: إياكِ أن تفتحى فمك، قالت، إياك إن تذكرى شيئاً".

وقالت فريدة:

"بعد الظهر، عدت مع أمى لتزيّن العروس وتُلبسها وتجلوها. دخلنا هذه المرّة إلى جناحها الخاص. كانت زوجة أخيها الأسبانية قد فَرشَته بأجمل الأثاث والستائر والسجاجيد. المائدة كانت مُعدة بانتظار أن يأتى العروسان بعد الزفاف لتناول العشاء. وفى غرفة النوم نُصب سرير النحاس الذى كان يبرق كالذهب. أما غطاؤه الموّشى بخيوط الحرير والفضّة فلم ترَ عينى مثيلاً له قط! نعم، هذا هو الجناح الذى سيكون مسكن العروس، إلى حين أن يتأكد أخوها من قوام مسلكها وينقلها إلى البيت الذى ورثته عن الباشا. وقفنا أمام الباب مكتومات الأنفاس. وقَالت أمّى "تحضّرى يا فريدة.

فأمامنا شغل كثير". لما دخلنا، كانت وردة جالسة على الكنبة الشرقية ذات الأصداف العاجية جلسة أميرة ذليلة حزينة. ألقينا عليها السلام فردّت بالإبهام. قلنا السلام عليك يا وردة شاه، فأجابت: "لا سلام على القادمين إلى أن يُزفّ لبعض وردة وبشارة وكلّ المحبّين".

وقالت فريدة: "كنتُ في العاشرة من عمري، فأمسكتُ بثوب أمي التي، رغم وَجَلها، راحت تمشط العروس. الفتاة لم تقل نعم أم لا. كان شعرها طويلاً طويلاً... وما إن تناولت أمي خصلة منه حتى طارت هذه من بين يديها طيران ريشة في الهواء. أمسكتْ خصلة غيرها فحدث الشيء ذاته. كلّما تناولتْ واحدة جرى ما جرى لسابقتها حتى أصبح شعرها منفوشاً وكأنّه شعر جنّية، بسم الله الرحمن الرحيم، هبّت من باطن الأرض!".

"وقالت أمي ساعديني يا فريدة لنثبت الطرحة بالدبابيس. حاولت، فغار الدبوس بين خصلات الشعر وسقط. الدبابيس تتساقط وأمي تقول لي، لمّيها عن الأرض. وأنا، رغم خوفي، ألمّها. والدبابيس تتبعثر وأنا ألمّ، حتى أصاب اليأس قلبي، فنهضت. وقالت أمي كفى يا فريدة. وقالت للعروس: كان الله بعونك يا ابنتي. ما أنا سوى عبدة مأمورة وماشطة مأجورة. ماذا تريدين أن أفعل؟ وبكل حزم أجابت وردة شاه: "اتركوني أزّين نفسي بنفسي".

"خرجنا. وركضت نحونا زوجة الأخ الأجنبية تسأل. أخبَرَتْها أمي بأنّ العروس أصرّت على أن تلبس وتتزّين بنفسها. فانقبض وجه المرأة، خشية أن تكون القرينة قد عادت توسوس للفتاة وتدفعها للقيام بما يخذل أخاها وعائلته أمام الناس والشيخ. بعض المقرّبين نصحوه بأن يفعل كما سائر الناس، فيكون هو وكيلاً عن أخته في عقد قرانها، لكنّه أبى، وأصرّ على أن يأخذ الشيخ بنفسه وكالتها ويسمعها تجيب بكلمة، "نعم". لم يفهم الحاضرون مغزى الإصرار. العارفون بالأمر قالوا إن الأفندي اتفق مع النسوة على ترتيبات تنقذ الموقف. إذا ما تحرّكت الجنّية ونطقت بدلاً من قرينتها بكلمة "لا"، عندئذ ترتفع الحناجر بالزغاريد، والمنشدات بالأغاني

والعازفات بالعزف، ويعلو إيقاع الطبل والدفوف وسائر الآلات، فيختفي وسطها الجواب. والشيخ الذى هو على علم بتفاصيل الحكاية، سيفهم مغزى التدبير، فلا يكرّر سؤاله سبع مرّات، أو حتى ثلاثاً، كما يليق بفتاة من نسل سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، بل سيكتفى "بنعم" واحدة، بلا دوشة ولا إحراج".

"لكن العروس لم تقل "لا"، ولا "نعم".

كنتُ أقف مع أمى وراء باب الغرفة، ننتظر منها إشارة لندخل ونأخذها وتبدأ الزفة، ومعنا الفرقة التى تضم أشهر عازفات بيروت. سلاّمة الحلبية وعاتكة الشامية وعازفة العود التركمانية والمنشدات، كلهنّ سيشاركن فى زفّ ابنة الباشا إلى الصالونات الواسعة. ويرافقنها وهى تصعد إلى مرتبتها تنتظر الشيخ الذى سيأتى ليعقد القران. هناك كانت المدعوات المتلهّفات للفرجة على العروس، قد بلغ عددهنّ ثلاثمائة سيّدة وأكثر. "أخيراً أعطت وردة الإشارة وهمهمت بالعبارة وشقت الباب. وما إن همّت أمى بالدخول، حتى تراجعت! وفى تراجعها كادت تأخذنى بطريقها: "ابتعدى يا فريدة، ابتعدي"، تهمس مذعورة، فابتعدت، إنّما لأرى العروس فى مشهد يخلع القلب من الصدر. خارت قواى وكاد يُغمى عليّ! أميّ تجرأت واقتربت منها، لكنّ وردة شاه دفشتها: "اتركوا وردة تخرج علىٰ الحاضرات كما هي، ليرى الناس كيف تُزف عروس إلى غير محبوبها!".

قالت وهذا ومشت وحدها إلى الدار، ودخلت على المدعوات، لا بالفستان الأبيض الذى تسامعوا به، بل بفستان أسود وعلى رأسها طرحة سوداء من التول منفوشة مثل شوك القنفذ. تتقدّم نحوهنّ بذراعين عاريتين مطليتين بالفحم، ووجه مدهون بالكحل، وعينين زرقاوين تبرقان فى سواد وجهها. بريق رمى الهلع فى نفوس المدعوات. فتمسكت الواحدة منهنّ بكتف الأخرى، والعروس بالأسود، تسير بينهنّ، تهمهم بكلام غير مفهوم. وإذ تأكد لهنّ أن الجملة غير المنطوقة، لا بدّ وأن تكون العبارة الرهيبة ذاتها التى توقع

الرعشة فى الصدور، والتى تقول فريدة إنّها قد سمعتها بأذنها: "أنا هى الجنية.. أنا هى الجنية، وردة الجورية"، هبّت الحاضرات من أماكنهنّ ولذن بالفرار."

"نعم، انتصرت القرينة على قرينتها كما حذّرتهم من ذلك رضيّة والشيخة أم البدور سعدية. كان هذا هو السبب الذى من أجله أودعت ابنة الباشا المصح. يُقال: أول مصح للمجنونات فى لبنان، تابع لدير الراهبات، ساهم سراً فى تمويله، المسلم نو الأصل التركي، الأفندى نور الدين".

فى مكان آخر من بيروت، جلس قاضى القضاة المتقاعد عزّت باشا، على شرفة فندقه يرشف قهوته. "الطعم ذاته الذى تسعى إليه كل يوم! يخذلك أو تنتشى به، إنّما أبداً لا يتكرّر!" راح يدوّن بعض الخواطر ويتأمل المدينة بانتظار أن يحين الوقت وتأتى الصبية التى سيحقق معها. حكاية معقّدة بدأت بقصة حبّ وانتهت بحادث يُخشى أن يتخذ منحى خطيراً! مهمّتُه أن يتحقق من صحة ما وَرَد فى التقرير الجهنّمي، الذى خطّه سلفه، والذى يعرّض الأفندى نور الدين إسماعيل لتهمتين: الأولى تدمّر سمعته والثانية حياته ذاتها!

عزّت باشا، حين طُلب إليه القيام بالمهمة رفض. سنوات مضت على تقاعده، كُلّف خلالها بعدد من القضايا الاستثنائية. لكنّه هذه المرّة، ورغم إلحاح الديوان عليه، اعتذر متذرّعاً بالمرض. ولعلّها ليست ذريعة، إذ يشعر حقاً بأنه مريض. يائس ويتمنّى أن يقضى ما بقى له من أعوام متأملاً فصول حياة باتت وراءه. منذ سنوات وهو يأمل بأن يحقق حلم شبابه. يترك سلك القضاء ويتفرّغ للشعر. كان بودّه أن يفعل هذا فى مطلع شبابه، لكن والده قرّر بدلاً منه فدرس القضاء. وبعد التقاعد وجْد نفسه يعود إلى الشعر. كقارئ على الأقلّ! شأنه شأن غيره، فما الكتّاب سوى قرآء يبتكرون قراءاتهم. وهل هناك وسيلة أخرى لإنقاذ نفسه؟ تلك النفس المنهكة، ما إن تبشّره بالتصالح مع الدنيا حتى تنذره بالقطيعة معها. ما هكذا وعده الزمن، وما خيّل له أن ترميه الشيخوخة بغير السكينة! لكنها خذلته، كما خذله العصر. حرب كونية تهدد النوع البشرى بأن يكون ضيفاً على الأرض. بأن يتحوّل أبناؤه وقوداً لنيرانها. الشيطان نفسه سيؤول معها إلى الفناء، ولا أحد يعلم ما الذى سيحلّ بعد ذلك. أو يتكهّن بالفاصل الزمنى الذى يتطلبه التطوّر الطبيعى لترجع الحياة ثانية إلى الكوكب، إذا ما سمحت مشيئة الخالق بذلك، أو كان صاحب نظرية النشوء والارتقاء على حق. إلى أن يحدث ذلك... ستنقرض هذه المدينة كما انقرض غيرها فى أتون الحروب.

ستتحول معالمها إلى ركام، كما سبق أن تحوّلت في المكان عينه معالم تحكى بعظمة العصر الروماني. فما جدوى أن يخرج من هدوء اكتئابه ليفك اشتباكاً بين أطراف سيؤول وإياهم قريباً إلى العدم؟ ليس هو من سيصلح نفوساً أُخذت بشهوة التفوّق. ليس هو من سينقذ الخلافة الإسلامية في طورها الأخير، ولا النوع البشرى من شغفه المدمّر. ويزداد يأساً بسماعه بما يجرى في بلاد الشام. ما عاد في وسع أحد أن يرأب الصدوع. في الآستانة قدّموا له حجته ذاتها: بعد ازدياد النفور بين العرب والأتراك، يجدر بالسلطة أن تحسب ألف حساب كي لا تستعدى حليف الداخل، فكيف لو كان الحليف من آل إسماعيل، وبريئاً من التهمة؟ هكذا عاد وقرأ خلاصة التقرير، ليصيبه الذهول الذى أصاب الصدارة العظمى: رؤية شيطانية تُلبس الوقائع حقيقة لا تشبه أصحابها. لطالما سمع بهذا الأفندى وعرف بعض زملائه، وقرأ مقالاته عن ترميم الصدوع بين أبناء السلطنة. يا له من حرّ! كان على حق، "لا الجرح التاريخى ولا الشخصي، يساعد على فهم الماضي، أو يحلّ معضلات الحاضر".

★★★

تأخرت السيدتان في الوصول. والقاضى ملؤه الفضول لأن يقابل "كوجك خانم" تلك، المسلمة التى في عصر لا تجرؤ فيه زوجة على المجاهرة بحبّها زوجها، هربت لتلحق بحبيب لها من غير دينها! كان يجدر به أن يبدأ التحقيق مع الهاربة تلك، لكن الطبيب نصحه بالتريّث. فالفتاة متعبة. والهواجس، منذ رحيل محبوبها، عادت تسكن روحها. وهى بين هذيان بوقائع تحدث وتخيّلات مستحيلة الحدوث قد تُدخله في متاهات لا طائل منها. كذا وبانتظار أن يصفو ذهن المريضة، قابل سائر المعنيين بالحادثة: الأفندي، صورة لسليمان القانونى تأخرت في الظهور! والمطران الذى أكد أن لا علاقة للسياسة بما حدث. ووالد القتيل الذى يذنّب نفسه، فابنه هرباً من قسوته، لاذ بحياة الشقاء. وجلال الذى سيفاخر بذراع بُترت حتى آخر

يوم من عمره.

وجلنار.

يا لها من امرأة! كان يجدر بها أن تجلس على سُدّة الحكم، كما بعض النساء العظيمات.! والشيخة أم عبد الله التى تلعن الحروب ومخترع الديناميت وكل أدوات الشيطان. صانعها وناقلها والآمر باستخدامها. وابنها عبد الله الذى يحاول إسكاتها: "يا أمي، مخترع الديناميت هذا عالم عظيم يُدعى "نوبل". عبقريته كانت سبّاقة على مقاصده النبيلة. لذا، تكفيراً عن ذنب محتمل يسيء فيه البشر استخدام ما اخترع، أنشأ جائزة بألف من ريالات الذهب لكل...

ـ لكلّ مَن يستخدم الديناميت؟

ـ لا يا أمي! لمحبى السلام.

رفعت المرأة حاجبيها وهى تسأل: جائزة لمحبى السلام؟! تكفيراً عن اختراعه الديناميت؟!

ـ طبعاً يا أمي.

ـ طبعاً! قالت المرأة وهبّت من مكانها ضاربة كفاً بكف. يا للعجب! إن كان هذا عالماً عظيماً وغيوراً على أهل الدنيا، فلمَ اخترع ما اخترع؟ ولمَ بعد ذلك لم يتراجع عن اختراعه؟

ـ يا أمي، لا يمكنه التراجع. فما وُجد قد وُجد ولا سبيل لإلغائه. مثلما بعد أن نولد يستحيل إلغاؤنا من سجل الحياة.

ـ اسكت يا ولد، اسكت. هذا كلام سفسطة. كُفر. الرب العظيم هو الذى يخلقنا. أما أدوات الحروب فمن صنع الشيطان.

قالت المرأة هذا ورفعت يديها تتضرّع:

ـ يا ربّ نجنا من كلّ شرير. يا ربّ اهدِ أبناءنا وأحباءنا. يا رب اهدِ أعداءنا! يا رب اهدِ العلماء ولا تتركهم لغوايةِ إبليس.

ثم قابل روزينا.

كلٌ يرى الأمور من زاويته.

الرجل الذى تمقته فتاة إلى حد يدعوه لقتلها، تراه أخرى جديراً بالعبادة. تركع تحت قدميه تتوسل إليه ألا يتخلّى عنها وإن تزوّج بمن يحبّ. تعده بأن ترعاها له بنفسها. تعطّر جسمها بالطيب وتنقش قدميها بالحناء وتزين شعرها بالورود وتقدمها له. لا لشيء إلاّ لأنّها تعبده فالمسألة أقوى منها. إن أرسلوه إلى السجن فليرسلوها معه. وإن كانوا سيأمرون بإعدامه فهى على استعداد لأن ترافقه إلى حبل المشنقة.

فى المقابلة الثانية جاءته روزينا بآراء فلسفية! تقول، لا خلاص للروح سوى بذاك الشعور الكونى ـ الأونيفرسيل ـ الذى ما من محظوظ فى الدنيا إلاّ يختبر لوعته ولو مرّة واحدة فى العمر: الحب!

قد تكون على حق. فما الحادثة التى يحقق بها سوى حادثة حبّ، يحاول بعضهم إعطاءها تفسيراً آخر. حبّ نازلى حفيدها وحبّ هذا خطيبته وحب روزينا رشاد وحبّ الأفندى أخته وحبّ هذه بشارة. وجلنار أيضاً حدثته بالحبّ: "يرفعك إلى أعالى النجوم أو يرميك إلى أسفل السافلين. يهزّ العروش ويكلّل بتاجه ابنة الحطّاب. والحبّ الذى فاض فى قلب الباشا فى تلك اللحظة هو الذى حرّر عبدتك جلنار. لكن لا مشيئة فوق مشيئة الله. لو كان فى وسع الحبّ إنقاذ ابن آدم، لكان حبّ بوران وردة شاه، ردّ عن وحيدة أمها ملاك الموت".

وبعد أيام ستأتيه ابنة الباشا تلك، بكلام شعرى كتبته وآخر حفظته، يتحدث بالحبّ: "كل الطاقة الروحية التى وهبنى إياها الخالق تسيّرنى إلى جنّة قدري". عجباً لأبناء هذه الدنيا! إنما كانوا يتلهّفون على ما يوحّد الضد والضد، فلم يتقاتلون إذن؟ لمَ لا يعقدون صلحاً أبدياً يلغى الحروب؟ أو يحرّمون القتل مرّة واحدة وإلى الأبد، كما حرّموا أكل لحم البشر؟ كما حرّموا زواج الأب من ابنته والأخت من أخيها؟ يا لهذا المخلوق الذكى كم هو أحمق! يلزمه ملايين أخرى من سنين الفتك، مئات الملايين الأخرى من

ضحايا النوع الراقى ليكتشف ما من شأنه أن يميّزه مرّة واحدة من سائر الأنواع!

★★★

قطع الحارس على عزت باشا تأملاته حين طرق عليه الباب ليعلمه بوصول الزائرتين. ودخلت المجنى عليها مع أختها. شابة صغيرة، لعلّها أُخذت هى أيضاً بوعود الزمن الجميل. جلوسها أمامه الآن يبدو له من ضروب الخيال! سبق أن حقق مع آلاف المتهمين والمجنى عليهم، لكن مهمته هذه المرّة لا تشبه سابقاتها، ورغم استعداده يجد صعوبة فى أن يبدأ.

كيف يبدأ؟ يهنّئ "الخانم" بسلامتها وبالسؤال التقليدى عن حالها. ويسألها رأيها بما حصل. حسناً! لقد فعل! وهو الآن يبحث عن أسئلة أخرى أكثر دقة، فتسبقه هى إلى القول أنّها فى موقف حرج.

طبعاً!

وأختها التى تجلس بجانبها ممسكة بيدها تهزّ رأسها تأكيداً على ذلك، وهو يوافق: "طبعاً أقدّر موقفك يا خانم!" وتضيف هى غير آبهة لتعليقه، أنّ عمتها نازلى تريد منها أن تزعم مالا ترغب هى به. تريدها أن تلفق كذبة!

ـ وَلَم الكذب يا خانم؟

ـ لمساعدة رشاد.

من ناحيتها، لا مانع لديها على الرغم مما حصل. لكن، كيف ستزعم أنها أحبتّه، وَروحها متّيمة ببشارة؟!

ـ ولم طَلَبتْ منك صاحبة العصمة هذا يا خانم؟

ـ كى لا تعلّقوا حفيدها على حبّل المشنقة كما سبق وعلّقتم ابن خالى شوقي، وفيليب وفريد الخازن، و...

وكاد يقاطعها بالقول: "أنا يا آنسة لا علاقة لى بتلك القصة". لكنّه لم تمنحه الفرصة، فهى تستعطفه بألاّ يفعل:

ـ أرجوكم لا تشنقوه. أرجوكم، إن كنتم لا تشفقون عليه فأشفقوا علي.

إن أنتم أعدمتموه فأعلموا أنّكم تعدمون بعضاً مني.

وكاد عزت باشا يقول: "القاضى الذى هو أمامك يا خانم لم يرسل أحداً فى حياته إلى المشنقة. لذا أحالوه على تقاعد مبكر. قالوا لا ينفع من لا يملك الشجاعة. لا يسألون ما هى الشجاعة! القاضى هذا مثلك يا خانم، روحه تمقت تلك الآلة المتوحشة، وتمقت مستخدميها والآمرين بذلك. لو كانت مقاليد الأمر والنهى طوع يده لأبطلها مرّة واحدة وإلى الأبد. لمحا اسمها من ذاكرة الناس. نعم" . والصبية تؤكد أنها تغفر لرشاد كلّ شيء ما عدا تلك المسألة.

ـ محاولة قتلك بالطبع.

ـ لا، بل شتمه نساء التركمان. شتائم بذيئة لا يسعها تكرارها، ولا حتى كتابتها. شتائم لا ينطق بها سوى السفلة. لم يوفر بها أياً من سلالة التركمان من قديم الزمان حتى اليوم. إن غفرتُ، يا حضرة القاضي، فمن يؤكّد أن بوران ستغفر؟

ـ ومَن هى بوران، يا خانم؟

ـ بوران هى أمي.

ـ وهل يمكننى مقابلتها؟

اتسعت عينا الأخت للسؤال وعلا حاجباها فيما الشابة تجيب: لا يا حضرة القاضي، فأنا نفسى لا أستطيع. بوران ليست هنا. إنها فى مكان بعيد عن الذى نحن فيه. بعيد جداً وأجمل منه بما لا يقاس.

★★★

بعد أيام، جاءت الأختان لمواصلة التحقيق، تصحبهما سيّدة مُسنّة. جدّة تتلهف على إنقاذ حفيدها، تقدمت منه وقالت: ابنة سليم باشا، تتوسل إليكم أن ترحموا حفيدها، فهو ليس من طينة المجرمين. رشاد قال ما قال، وفعل ما فعل تحت وطأة الصدمة. كانت تلك ساعة شيطان!

ـ انهضى يا خانم، أرجوك.

تراجعت المرأة والتفتت إلى وردة تسألها ما الذى تطلبه من رشاد لتصفح عنه؟

ـ الاعتذار عن شتائمه.

ـ يا حبيبتى وردة، رشاد الآن هارب ولا نعرف مكانه. كتب لك رسالة اعتذار عما فعل وغابت عن باله مسألة الشتائم.

ـ نعم، لكن المطلوب رسالة أخرى تؤكد أنّ كاتب الرسالة الأولى هو رشاد.

تدخل القاضى ليضع حداً للجدال، فألقى على ورد شاه السؤال الذى أصفرّ له وجه العمّة وألقى الرعب فى قلب الأخت:

– وموقف نور الدين أفندي، يا خانم؟ هل شجع رشاد...

ـ بالطبع يا حضرة القاضى شجّعه. وكاميليا، والكل أيضاً شجعوه، حتى أختى ملك أيضاً كانت موافقة. وحين أصرّوا على موقفهم هربت.

ـ عمّ تتحدثين يا آنسة؟

ـ عن هربى إلى بيت بشارة. ألم تعلم به؟

ـ علمت. لكن أخبريني، بما جرى بعد ذلك؟

ـ أعادونى وحبسوني.

ـ وهل ضايقوك؟

ـ طبعاً. صارت النسوة يتلصصن علي. لكن كاميليا إنسانة طيّبة، صارت تأتينى بمذكراتها، التى اختلستُها فى الماضى منها، فعلتْ هذا لتروّح عني، لولا ذلك لُت من الضجر. الدفاتر هذه...

وقاطعتها أختها بالقول: وردة... هذه مسائل خاصة. عيب! سأزعل منك لو عدت إلى ذكرها .

ملّس القاضى على شاربيه وذقنه فيما هو يتأمل الفتاة متردّداً فى الحكم عليها، ووجد نفسه يسألها:

ـ وماذا عن سائر السيدات يا آنسة؟ كيف بعد...

ـ بعد الحادثة، صرن يتمنين موت وردة شاه! كلّهنّ ما عدا ملك وكاميليا، صرن يتمنّين موتي.

ـ وكيف عرفت بذلك؟

– العيون يا حضرة القاضي... العيون تفضح ما يخبئه اللسان.

من ناحيتى اغفر لهنّ هذا الحقد فما واحدة منهّن عرفت الحبّ!

ـ ومن منهّن يا خانم كَرهتك أكثر من غيرها؟

ـ عمّتى نازلي، هذه الجالسة أمامك. كانت تتمنّى ألف مرّة أن ترى وردة شاه ميتّة قبل أن تهجر حفيدها.

ـ غير صحيح يا حبيبتي. قالت العمة. لا أحد يكرهها يا حضرة القاضي! إنّها واهمة.

ـ اتركيها تحكى يا خانم. أكملى يا آنسة، وهل حاولت عمّتك أو غيرها أذيتك؟ أقصد...

ـ طبعاً! كاميليا صارت تجبرنى على شرب زيت السمك. أرجوك كلّمها يا حضرة القاضي.

ـ وهل فى هذا الزيت ما يضرّ؟ أقصد...

ـ طبعاً. رائحته، يا إلهي... تجعلنى أتقيأ، فأضطر للذهاب إلى الحمام، وتلحق بى عجائز البيت بأسئلة غريبة. يخجلنى يا حضرة القاضى أن أخبرك بالاسئلة التى يلقينها علي.

ـ يا خانم، أرجو منك إجابتى عن سؤال محدّد. هل حاولتْ إحدى سيدات البيت أذيتك بالمعنى المعروف؟

ـ المعروف؟

ـ نعم مثل أن تسمّم طعامك أو...؟

لسماعها السؤال، بان الاستهجان على وجه وردة. وبالاستهجان ذاته سألت:

ـ تسمّم طعامي؟! ومن منهنّ تجرؤ على ذلك؟

ـ ومم يخفن؟

ـ من نور الدين طبعاً! يبدو أنك يا حضرة القاضى لا تعرف من هو أخى

نور الدين!

- إذن، كيف أبرّر للآستانة، ما ذكرت فى المستشفى عن تورطه بـ...؟

- فى المستشفى؟ آه... تلك كانت هلوسات. هلوسات المرض. يا إلهى حين تعصف بالرّوح، حين تتغلغل فى خلايا الدماغ... أرجوك يا حضرة القاضى لا تذكّرنى بها. أرجوك قلّ لهم فى الآستانة أن لا شيء فى الدنيا يجعل نور الدين يؤذى أخته وردة.

فى المقابلة الأخيرة قالت المجنى عليها : أخى نور الدين، يا حضرة القاضي، وجد الحلّ. عزمى إسماعيل فى المنام، أوصاه أن يعلن بشارة إسلامه، وينطق بالشهادة فيصبح حلالاً أن أتزوجه. بشارة من ناحيته لا يمانع. فكل الأديان برأيه واحدة. كلها تسعى لصلاح البشر.

- فعلاً.

- وأخى استجاب لمشورة أبينا ووعدني... كما، رافقنى بنفسه لوداع بشارة.

وبدا للقاضى أن الخانم الكبرى غير راضية عن كلام أختها. ترفع حاجبيها استنكاراً. تقوم بإشارات لتفهمه أنّ كلاماً مثل هذا من ابتكار الخيال. وتقول، أختى يا حضرة القاضي....

- لا همّ يا خانم، دعيها تحكي. اطمئني، لن أكتب هذا فى التقرير.

"نعم دعيها، فلكم فى الملمات يشبه المرضى الأصحاء. ويقترب العقلاء من المجانين. هنا وهناك الأمر ذاته. الشيء الوحيد الذى يمنح السكنية لبنى البشر، أو يشتت أرواحهم، هو ما حكت عنه روزينا. ما همّ إن كان هذا "الكوني" من بيّنات الواقع أم من ضروب الوهم، ولا إن خرجت أختها بالفعل، بصحبة أخيها لوداع حبيبها. ولوّحت له بكفها، كما فعلت حبيبات أخريات، شقيقات وأمهات، يفارقن فلذات أكباد قد لا يرينهم ثانية. يبكين الفقدان الذى تبكيه الشابة الآن فيما تصف مشهداً يتكرر كل يوم: شبان رائعون يسيرون فى طابورين، أحدهما يتجه إلى الآستانة والآخر إلى

باريس. .وفيما هى تنتحب تتساءل، لم يصنعون الحرب؟ لا بدّ أنك يا حضرة القاضى تعرف أشياء كثيرة. قل لى إذن لم يصنعون الحروب؟

تسأله هذا فيما تلقى عليه نظرات سيلزمه دهر لنسيانها. "فى هذه المسألة يا خانم من الصعب على أن أفيدك بشيء".

وبرفق أبوى قال:

- انهضى يا خانم. عودى إلى البيت. فقد أنجزنا التحقيق.

★★★

بعد خروج المجنى عليه، تناول عزت باشا ورقة وراح يحرر برقية إلى الباب العالي.

صاحب الدولة والفخامة،

بالنسبة إلى المسألة التى كُلفت بها:

الخانم وردة شاه عزمى إسماعيل باشا، هى فتاة وُلدت لزمن غير زمنها. أحبّت أستاذها حباً صوفياً، جعل بينها وبين الحلاج والمعرّى وعمر الخيام...

دَوّن عزّت باشا هذين السطرين ثم مزق الورقة، وراح يكتب غيرها:

صاحب الدولة والفخامة،

بالنسبة إلى القضية التى كُلفتُ بها، محاولة قتل الخانم وردة شاه إسماعيل والهجوم المسلّح على الأشرفية الوقائع التى وردت فى التقرير السابق كلّها صحيحة التفسيرات والتعليلات كلّها خاطئة مشوّهة، الحادثتان وتبعاتهما هى فقط فصول حكاية حبّ بين شابة مسلمة وشاب مسيحى القصة أدّت إلى جريمة عاطفية كانت تستهدف المجنى عليها وإلى هجوم مسلح ضدّ منزل المدرّس فى الأشرفية ولا علاقة للحادثة بالسياسة الأفندى نور الدين بريء بالإجماع انتظروا تقريرنا المفصل مع كل الاحترام والأمر والإرادة لحضرة من له الأمر القاضى المكلف عزت باشا".

أميرة إسبانية وكابتن فرنسى

فى الطابق العلوي، من أحد أديرة الجبل، ترقد فى السرير فتاة ذات شعر كستنائى وعينين زرقاوين وجمال منهك وملابس نوم أميرة. وبين الصحو والإغماء تهلوس بما لا يدع مجالاً للشك فى الحكاية التى ترويها "الأخت إليزابيت" لمن حولها، بمن فيهم الطبيب الذى يتردّد على الدير لمعاينة المريضة:

"فى إحدى مناطق أرمينيا حيث تجرى المذابح، وعلى ضفاف نهر أراكس، اختارت عائلة من النبلاء الأسبان العيش. ولسوء حظّها، مرتْ بها إحدى المجموعات المهاجمة، فلمح قائدها من النافذة أيقونات للسيدة العذراء والمسيح مصلوباً، فأمر بمهاجمة المنزل وإحراقه. والفتاة التى جاء بها أحد الوجهاء الأتراك راجياً الدير أن يؤويها، لا تزال تحت وقع الصدمة، عاجزة عن استعادة ما جرى، أو سرد حكاية متماسكة. جلّ ما تتذكره، ألسنة النار تلتهم البيت. أما المصير الذى انتهى نووها إليه فلا علم لها به. لعلهم هربوا مع مَن هرب وتشتتوا فى البلاد. أو لعل النيران داهمتهم وتفحموا فى الداخل. أو لعلّهم، كما حدث لكثير غيرهم، قد ذُبحوا وسالت دماؤهم فى النهر الذى يقال إنّ ضفافه بقيت أسابيع مخضّبة بالأحمر.

المنقذ الكريم الذى جاء بالفتاة إلى الدير، ترك لها مبلغاً من المال، هو، كما قال، مستحقات عليه لأعمال تجارية كانت له مع والدها. ورجا الرئيسة أن تعتنى بالفتاة المتعبة، إلى أن يعثروا على أحد من عائلتها. الأمر الوحيد الموثوق به، الذى تذكره الفتاة هو اسمها واسم الرجل الذى خبأها مع آخرين من الأرمن ممن لجأوا إليه. وكذلك، آثار رصاص فى فخذها يجعلها فى سيرها تتمايل تمايل مغناج.

وما يزيد الرواية اضطراباً أنّ الغارقة فى عرق الحمّي، كانت تهذى بحادثة أخرى، تتقاطع مع تلك. وشأن تلك كادت أيضاً تؤدى بحياتها. لكنّ المُنقذ فى هذه الحكاية، شاب شهم غير الكهل التركى ذى القلب الرحيم:

"وجدت نفسها فى النهر مع مئات من المستغيثين. يغالبون المياه وهذه

عالية الموج، والنهر كبير مثل بحر وكثير الطحالب. فروع الأشجار الممتدة ما بين السطح والأعماق تعترض تقدّمها. الكلّ بطريقته يقاوم، وهى أيضاً، وخوفها على أشدّه أن يلتف شعرها الطويل حول الأغصان وتخسر آخر فرصة لها بالنجاة. الموج يعلو وينخفض والتيار يشدّها وهى معه تنهض وتغوص. وفى لحظة التلاشي، تناهى من عمق أعماق الدوامة إلى مسمعها صوتٌ يناديها: يا أختي، يا توأم روحي، انتظرينى فأنا قادم إليك.

لسماعها الرجاء بدأت تقاوم. تحاول أن تسبح كما علّمها فى صغرها أخُ لها بالرضاعة. ترفع رأسها فوق الماء تأخذ نفساً عميقاً قبل أن يعيدها التيار إلى أسفل القاع. كانت على حافة الإغماء حين أحست بيد قوية تمسكها بشعرها وتنتشلها. وتراءى لها المنقذ، طويل القامة عريض الكتفين ذا شارب رفيع. وضعها على كتفه وراح يسبح بها حتى أوصلها إلى الضفة. هناك على العشب أجلسها وجلس بجانبها. خلع سترته ووضعها على كتفيها وهو يقول: لا تخافى يا أختي. لن يلحق بك أذى ما دمتُ على قيد الحياة.

كلامه العذب، أدخل الطمأنينة إلى قلبها. ووَجدت نفسها تخلد إلى النوم، ولما صحت لم تجده. السترة التى تركها على كتفيها هى الأثر الوحيد الذى يشير إلى هويته. إنّها سترة قبطان. لكن ما علاقة القبطان هذا بالمنقذ الكريم؟ لا تدري.

بعد ذلك، أنت إلى الدير زائرة أجنبية طويلة أنيقة تطلب رؤية قريبتها، ازداد الحاضرون ثقة بما تقوله الأخت إليزابيت. فقد رأوا بأم العين، السيدة الغريبة تحتضن الفتاة الناجية وتبكي. وتحكيان أشياء بلغة غريبة تشبه الفرنسية لكن لا أحد يفهمها سوى إليزابيت.

★★★

فى تلك الفترة، كان الطبيب يزور الفتاة يومياً. يكلّمها بالفرنسية التى لا تعرف منها سوى القليل فتجيبه بالإسبانية وتقوم الأخت بمهمّة الترجمة. يعطيها العلاجات والإرشادات، ثم ينصرف. لم يخطر للراهبة أن الترجمات

التى قامت بها فوق سرير المريضة، بين اللغتين اللاّتينيتين، ستؤتى ثمارها، وأنّ المريضة حين ستنهض من هلوساتها بعد شهور، ستضيف الفرنسية إلى اللّغات الأخرى التى تلم بها.

الرجاء الوحيد الذى طلبته المضيفة من ضيفتها أن لا تتحدّث بالعربية أمام الآخرين. بالنسبة للتركية فلا بأس. كان يمكن لإليزابيت أن تعفى نفسها من ذاك الطلب، فالمريضة التى ترفض مقابلة أحد تبدو غير راغبة فى الكلام مهما كانت لغته. وفى ما عدا بعض الإشارات والعبارات التى تتبادلها لماماً وإياها، والتى تختلط فيها لغات كثيرة، كانت تمضى يومها نائمة أو ساهمة. تسترجع أحداثاً ومشاهد وأصواتاً، كلّها باعثة على الألم. مشهد وحيد، فى ومضات الوعي، يبعث فى روحها التفاؤل، ويجعلها تتساءل: أين سبق لها أن رأت وجه هذه المخلوقة التى تُدعى الأخت إليزابيت؟ إن كان خيالها المتعب يصوّر لها أموراً مشوّشة، وغير قابلة للتصديق، فومضات الوعى تُحضر لها من الذاكرة وقائع، لا ريب فى حدوثها. لكن أين ومتى؟

ويخطر لها أن تسأل الراهبة، إنما تعوزها الطاقة على الكلام. تسألها هل تعرف شيئاً عن فتاة صغيرة، ذات جدائل، تراءت فى مشهد لا هو بحلم ولا بواقع ولا شاهد عليه فى دار آل إسماعيل سوى فتاة أخرى:

"إنهم يضربون الباب. والعم سليمان تأخّر فى فتحه. الدنيا ظلام، وهى غافلت رضية ومحمود، وتركتهما غارقيْن فى النوم، شقت باب الغرفة ووقفت تتفرج. هناك فى مدخل البيت رجل ظنتّه للوهلة الأولى نور الدين، لكنّه غريب. الرجل يدنو من العم سليمان ويهمس فى أذنه شيئاً. وقبل أن يفسح له سليمان الدرب دفع هو الباب بنفسه ونفذ إلى الدار! الزائر الليلى لم يكن بمفرده. كان يمسك بيد فتاة مرقت هى أيضاً بسرعة. اضطرب العم سليمان، وراح إلى نور الدين الذى كان يقف عند مطلع الدرج و همس فى أذنه شيئاً. ونور الدين هرول إلى المدخل لملاقاة الزائر مرحّباً به. نعم،

صافحه، أمسكه بذراعه وداعب شعر الصغيرة، ثم مدّ كفّه راجياً منه الدخول. وفى ظلمة الليل رأته يرافق الزائريْن إلى الطابق العلوي. وإذ خافت أن يكتشف أخوها تلصصها،توارت فى الغرفة وراحت إلى سريرها مأخوذة بما رأت!".

وفى اليوم التالى أمضت الوقت فى البحث. تصعد إلى فوق وتنزل وتتأمل وجه رضيّة لتكتشف إن كانت هذه كعادتها تخبّئ شيئاً.

لكن لا يبدو عليها أنّها تخبّئ أيَّ شيء!

أياماً قضتها بين مكذّب منام ومصدّق يقظة، إلى أن لمحت الفتاة ثانية. أخبرت مربيتها بذلك وصارت تتفاوض معها لتبحثا معاً عن جنّية صغيرة ذات جدائل طويلة، لكن رضيّة تقاوم. أنت واهمة يا حبيبتي. هذه رؤيا. فللنهار منامات كاذبة مثل الليل.

وبعد أيام، حدث ما يقطع الشك باليقين! فالفتاة ذات الجدائل تراءت لها هاربة بين الغرف قبل أن تسرع وتتوارى خلف الباب! طوال سنوات ستبقى هذه رفيقة لها فى الخيال، محرومةً من التفكير بها، فكيف لو طالبتْ باللعب معها؟ إنّها شبيهة هذه التى تقف قبالتها الآن تبتسم. نعم، شبيهتها، بقدر ما يشبه الكبار صورهم وهم أطفال!

منذ أن دخلت الراهبة عليها، فى منزل أخيها، تقنعها بأن تأتى معها إلى جناح للمرضى فى الدير، ورغم التشوّش، راودها إحساس غريب بالالفة. سبق أن رأت هذا الوجه! من مكان ما من كواليس ذاكرتها المُرهقة تخرج شبيهة هذه المخلوقة التى تعرض عليها ما سبق أن عَرضتْه على نور الدين.

- تعالى آخذك معي؟ قالت،

- إلى أين؟

- إلى الدير.

- وماذا فى الدير؟

- جناح خاص بالمتعبين.

- وهل أنا مجنونة؟

- لا يا عزيزتي، لست مجنونة، بل متعبة. النفس حين تيأس من البشر تعوزها مشيئة الرّب. وحده يرعى حيث لا ينفع علاج.

- لكنى خائفة.

- لا تخافي. كاميليا ستأتى معنا، وإن لم تعجبك الإقامة يمكنك العودة معها.

لم ترجع!

كاميليا وحدها عادت إلى البيت، تاركة أخت زوجها فى رعاية راهبة تودّدت كثيراً لتفى دَيْناً عظيماً لنور الدين، لا يضاهيه سوى الدَّين الذى على ابن آدم تجاه من وهبه الحياة. وسوى النذر الذى وفته هى بدخولها الدير، والذى أخذته على نفسها آنذاك: إن تحققت المعجزة ووصل أبوها بطرس الفاضل سالماً إلى المكان المنشود، فستكرّس حياتها لخدمة الرب والمظلومين. دخلته فى الرابعة عشرة تلميذة. ومن ثم رُسِمت راهبة، لتغدو بعد سنوات، أوّل ريّسة دير لبنانية فى بلاد الشام.

★★★

- انهضى يا عزيزتي، تقول الراهبة لرفيقة الطفولة التى حُرمت طويلاً من يقين لقائها. وبصوت شديد الوَهن تجيب المريضة:

- لا أستطيع. بشارة فى طريقه إلى الجبهة. السفر شاق. الثلوج تغمر الأرض. لعلّهم فى جبال الآلب. سيسيرون مسافات، يهبطون وديااناً ويصعدون مرتفعات قبل أن يصلوا. ماذا لو أحرق وهج الشمس عينيه؟ فى أيّ الفصول نحن؟

- أواخر الشتاء.

- الصقيع يقتل الدببة فكيف سيصمد؟

- صلّى له. أنا أفعل كل يوم وأضيء له الشموع.

- وأنا أيضاً أصلّى فى قلبي. كل الصلوات التى أعرفها. كلّ الصلوات التى علّمتنى إياها أختى صافيناز.

- حسناً! ماذا لو نهضتِ لتصلّى بالفعل مثلما علّمتك صافيناز؟ هل أحضر لك سجادة الصلاة؟

- أحضريها ولك الشكر يا أخت إليزابيت.

- عليك أن تتوضّئى أليس كذلك؟

- طبعاً.

- سأساعدك كى تفعلي.

- أنا اليوم منهكة. غداً أصلّي. أو ربما بعد غد.

★★★

أسمع أصوات استغاثة، تقول المريضة للراهبة. أصوات نساء ورجال. وأصوات أطفال. هل ما أسمعه من هلوسات المرض؟

- لا.

- ولمَ يستغيث الناس؟

- يطلبون المساعدة.

- أيّ نوع من المساعدة يطلبون؟

- يريدون طعاماً.

- طعاماً ؟

- نعم.

- جياع ولا أحد يطعمهم؟

- البعض يفعل ما فى وسعه.

- لم لا يطعمهم الدير؟

- ليس لدى الدير ما يكفي. نتناول وجبة واحدة فى اليوم لنوفّر ما نستطيع توفيره. وكذلك يفعل مؤمنون غيرنا.

- ما الذى يجرى يا أخت إليزابيت؟

- إنّها الحرب. الجراد يلتهم الزرع. لا قمح فى البلاد، لا حبوب، لا خضار، لا فاكهة. ما يأتى من الخارج قليل ويتأخر فى الوصول. وإن وصل

فثمنه باهظ.

ـ وماذا عن مزارع آل إسماعيل؟ هل سمعت شيئاً من هناك يا أختي؟

ـ لا لم أسمع.

ـ أسألوا نور الدين. أطلبوا منه المساعدة.

ـ طلبنا ولم يبخل. هنا وهناك، لم يبخل المؤمنون. لكن أعداد الجياع تزداد. والمرضى أيضاً.

ـ والأطفال؟

ـ مثل الكبار.

ـ ستوزّعون عليهم الطعام والدواء؟

ـ قدر ما نستطيع. انهضي. هل تريدين مساعدتنا؟

ـ طبعاً.

★★★

ـ أخت إليزابيت أنت هنا؟

ـ نعم.

ـ أقفلي النوافذ أرجوك.

ـ إنها مقفلة.

ـ لكن أصوات الاستغاثة تصل.

ـ نعم يا حبيبتي .

ـ مدى يدك أمسكها.

ـ الله يمد يده للجميع.

ـ الأعداد تزداد؟

ـ نعم للأسف!

ـ ماذا ستفعلون؟

ـ يُقال ستصل إعانات.

ـ متى؟

ـ قريباً. إعانات من فلسطين . من البقاع ومن بيروت. الناس فى كلّ مكان يحاولون جلبها. سيأتون بها حتى من مصر. أو من بلدان أبعد. من أمريكا.

ـ حسناً، وهل أرسل نور الدين المال الذى وعد به؟

ـ نعم. وقال سيرسل مثيله كلّ فصل.

ـ خذى المال يا أخت إليزابيت واشترِ به ما يحتاجه المساكين. خذى المال كلّه، فلا حاجة لى به.

ـ كيف لا وأنت مريضة ونحن فى حرب؟

ـ لكن نور الدين وعد...

ـ حسناً، سآخذ بعضه يا عزيزتي. أمدّ الله بعمر نور الدين. هذه ليست أول مرة يُنقذ فيها من التهلكة من جارت عليه الدنّيا.

★★★

ـ يا عزيزتى وردة، هل تنهضين؟

ـ ليس الآن. العاصفة تنثر الثلج، تحجب الرؤية عن الماضين إلى خط القتال. أراهم يسندونه وهو يلقى برأسه إلى كتف زميله وخيوط دمه تنساب فوق الجليد. عليهم الاستعجال كى يصلوا قبل فوات الأوان. أخشى أن يضلّوا الدرب. قولى يا أخت إليزابيت، لمَ يذهب الشبان إلى الحروب؟!

ـ صلّى لهم. صلّي. لعلّهم وصلوا إلى حيث يقصدون، بأمان.

ـ أين هو الأمان يا أخت إليزابيت؟

★★★

كان بشارة قد قطع المسافات التي، فى حمى الهذيان، عبرت خيال محبوبته. مشى طويلاً مع رفاقه قبل أن يستقلوا القطار، وقوفاً لساعات طوال، وينزلون فى محطات ويصعدون فى أخرى، يواصلون بعدها السير، فى غاباتٍ موحشة وأراضٍ خالية، ووديانٍ سحيقة، وجبالٍ جرداء وأخرى تغطيها غابات خضراء سوداء أو تتراكم عليها الثلوج. بعض الجنود سيموت من البرد وبعضهم الآخر يصل. يقاتل. يَقتل أو يُقتل. يأمل العودة إلى نويه أو يبقى مجهول المصير. ومن بين هؤلاء حبيبها بشارة.

كان قد غادر المدينة سراً بلا الموكب الذى تراءى لوردة. ولا الوداع المؤثر المجيد الذى يمشى فيه الذاهبون إلى جبهات القتال، رافعى الرؤوس، من ساحات بلداتهم إلى الثُّكنات. تسلّل من البيت خلسةً وركب الباخرة التى كان عليه أن يركبها، منذ شهور، مع وردة عزمى إسماعيل، ووصل إلى المدينة ذاتها التى كان سيصلان إليها، مرسيليا، إنّما ليدخل الجيش الفرنسى باسم مستعار.

فى وداعه المدينة عرّج على بيت محبوبته.

كان ذلك بعد منتصف الليل، وسكان المنازل غارقون فى النوم. نزل بطقمه الجديد الذى اشترته له أمه والذى لن يلبسه ثانية خلال السنوات القادمة. تسلق السور وانزلق على الحائط، وتسلل نحو الغرفة التى تسكنها حبيبته ودسّ الرسالة فى شق النافذة. فى الداخل سمعت وردة خشخشة ظنّتها نقر حمام على الزجاج. لكن ما هكذا ينقر الحمام! حفيف أقدام على أرض الحديقة ينبئ بوجود من يمشى عليها! ماذا لو كان هو ؟ إنّه هو وهذا وقع أقدامه!

من الشق رأته يتسلق السور عائداً فخافت أن يقع. لكنها سمعت قفزة على الأرض من الناحية الأخرى وعرفت أنه وصل ومشى. تناولت الورقة وراحت تقرأ القصيدة التى تحكى بلسان حاله وحالها.

★★★

نصرة، التى لم تجرؤ على اصطحاب ابنها إلى المرفأ، وحدها كانت تعلم بسفره. وضعت له "الكلبك" فى الكيس الذى سيحمله بيده كى لا يفاجئه البرد فى الباخرة ويصيبه بالنزلة الصدرية وهو فى طريقه إلى باريس، مدينة العلم والنور كما قال، لمتابعة الدراسة العليا التى يحلم بها. ونصحته أمّه، فى ما نصحته، أن يضع جريدة تحت «كنزة» الصوف التى لا شيء مثل ورقها يحمى الصدر، إذا ما اشتدّ الصقيع. كانت قد جمعت له بعض الأعداد التى اشتراها شكر الله هذا العام. وسهرت ليالى تحوك له شالات الصوف، وكرّت كنزتين قديمتين من كنزات أبيه لتنسج من خيوطها واحدة سميكة، وباعت سوارها الوحيد وقرطيها الفلمنك واشترت له بثمنها سراويل داخلية وصدارى وطقماً من الجوخ الإنكليزي. كانت تعمل ليل نهار خفية عن زوجها. فإذا ما باغتها خبّأت ما بيدها تحت الكنبة. وكادت الملعونة "نرجس" أن تفضحها حين تسلّلت كعادتها ودفعت بكرة الصوف من مخبئها وراحت تضربها بمخالبها وتقفز! وأسرعت هى إلى إنقاذ الموقف زاعمة لزوجها بأن الجارة "وداد العمّورية" نسيت "أشغالها" هنا. وأخفت عنه أنّها توضب لدى الجارة بعض المأكولات التى ستعوّض لابنها عن الأطباق الطازجة: القورما بالدهن مع الكشك للشتاء. لبنة الماعز المجفّفة. الزعتر الذى يقوّى الذاكرة ويساعد على حفظ المعلومات الكثيرة التى يتطلبها العلم العالي. زهورات اللويزة والبابونج للوقاية من نزلات البرد وعلاج السعال.

فى تلك الفترة، كَذَبتْ نصرة كثيراً على زوجها شكر الله والرّب الرّحيم سيغفر. خاصة وأنّ بشارة هو الذى استحلفها أن تزعم جهلها بسفره "وتُفاجأ" برسالة الوداع التى تركها لوالده تحت المخدّة. وفيها طلب منه الرّضى والبركة متمنّياً أن يلتقيا، لا يعلم بعد كم من الوقت. فالعلم بحر يمكنك أن تغرف منه ما استطعت. لكنّه، إن شاء الله، سيعود.

لا يدرى متى.

فالذاهب إلى الحرب مفقود والعائد منها مولود. إذا كُتب له البقاء وعاد

فسيطلب المغفرة من أبيه. يقبّل يده ويعتذر عما اضطُر للقيام بذلك. وإن لم يُكتب له فسيغدو فى عداد شهداء أبوا ظلم الدنيا. ماذا بقى له بعد خسارته حبيبته. ورفض الأب حنين مناولته القربان المقدس، سوى التماس ذاك الشرف وتكريس حياته لنصرة الحرية والعدل؟ إن عاد فسيحمل ثانية دعوة طانيوس شاهين حتى وإن لقى المصير نفسه! وإن لم يرجع فليعلم الناس بحقيقة أفكاره: التغيّرات العظيمة التى حدثت فى فرنسا لابدّ أن تعمّ الأرض. لا بدّ وأن تنزع الغلالات عن العقول، والتسلّط من النفوس. تسلّط البابوات والسلاطين والباشوات وكلّ من يّدعى حقّ التحكّم الإلهى أو الدنيوى على الأرض. نعم، ستُقلع جذور الغطرسة مرّة واحدة وإلى الأبد ويبدأ العصر الجديد الذى دعا له فلاسفه عظماء: عصر التنوير.

أمضى وقتاً فى تدبيج الرسالة. وبدأها بالعبارة التى ستُدخل الرضى إلى نفس أبيه. "سيّدى الوالد حفظك الرب رأساً للعائلة. أقبل يديك الطاهرتين وأدعو الله أن تتسلّم كتابى وأنت وسيدّتى الوالدة فى أتمّ الصحة".

وسار فى رسالته خطوات، الواحدة منها تمهّد للأخرى، وعرّج على أحداث مضت وأخرى ممكنة الحدوث. وفى خاتمة الرسالة أوصى بشارة أباه أن يهتم بنفسه. وبأمه، وأن يغفر لابنه كلّ خطأ ارتكبه أو ذنب.

طوى الرسالة ودسّها تحت المخدّة.

كان ذلك يوم الأربعاء. الخميس، وفيما نصرة تبدّل أغطية المخدّات، ستكتشف وجودها. لكن شكر الله سبق زوجته إلى ذلك حين أحس، فى الليلة ذاتها، بشيء "يتكتك" مثل عقارب المنبّه، تحت رأسه! قَلَب المخدة ليجد ما سيجعله يقفز من الفراش. نعم، ما إن رأى الورقة المطلوبة فهم.

رسالة!

الرسالة التى أتاحت للأمّ رفاهية البكاء فى العلن، وللأب شتم ابنه، فيما صار ينتظر على أحر من الجمر أن تصله رسائل أخرى من هذا العاق أو

أخبار شفوية مع قادمين من فرنسا. أخبار، بات يؤرقّه تأخر وصولها. بعد قراءة الرسالة، خطر للأب أن يقوم ويضرب زوجته على الدور السلبى الذى لعبته فى حياة ابنها. هذه الأم الخانعة المستكينة بالغت فى تدليله لحدّ بات لا يطيق فيها أن يؤمر بشيء! وهى ماضية فى مبالغتها، تندب كيف حُرم ابنها من محبوبته. تتمنّى لو كانت هذه مسيحية. لو كانت كذلك لأفرحت قلبه بها. لعلّه كان قبل سفره، زرع فى أحشائها الثمرة الغالية، وبرّد قلب أبويه بولد يؤنس وحشتهما بانتظار عودته سالماً. أو لعلّ الشابة كانت ستسافر معه لتؤنس وحشته فى بلاد الغربة.

نعم، البلهاء تحلم بذلك! بل بأكثر من ذلك! أن تراجع العائلة التركية موقفها فُتنصّر ابنتها وتزوّجها بشارة! تدخل وإياه الكنيسة، تتناول وتعترف، قبل أن يقوم الكاهن بمراسيم الزواج! يا إلهى من ترّهات عقول النساء كم هى مستفزّة! وكم تجعله يمقت نصرة. حتى ودون أن يعلم أنّها من ناحيتها، تحسده أيّما حسد على أنّه تعرّف بمحبوبة بشارة، وتتمنى أن تسأله عن هيئة تلك؟ عن الصورة التى صورّها فيها الخالق لتحتل هذه المكانة فى قلب ابنها. تسأله أن يصف لها تقاسيم وجهها، ورنّة صوتها، ومخارج ألفاظها وكيف تفتح فمها وتتكلّم. وتكاد تتجرأ... لولا أنّ نظراته الرادعة توقف الكلام فى حنجرتها. لكثرة ما خامرت ذهنها الأفكار، صارت تتخيل نفسها ضاربة بعرض الحائط أيّ اعتبار، مستفسرة عن أى شيء يتعلّق بتلك الفتاة التى سلبت عقل ابنها واحتلّت عرش قلبه! لكنها لا تجرؤ.

جُلّ ما تمكنت منه، التظاهر باللّوم. لوم ابنها المخبول على وقوعه فى هوى فتاة يُقال ليس لديها من ميزات الجمال أو الجاذبية شيء. وإذ رفع زوجها حاجبيه، غمغم بكلام غير مفهوم، أدركت أن عكس ما تفوّهت به هو الصحيح. وحين خرج عن تحفّظه قال ما سيزيدها فرحاً: الفتاة تلك هى أجمل ما رأت عيناه من نساء! أجمل من بنت القنصل الفرنسى ومن ثريا البستانى وعبلا بنت الحكيم افتيموس. أجمل منهنّ، وأكثر جاذبية وعذوبة.

طبعاً، فالشيطان فى إغوائه ابن آدم، لا يعجز عن العثور على الضالة التى تؤدى له الغرض.

تَعبُر نصرة عن تعليقات زوجها وتسأل: معقول أن تكون أجمل من ابنة القنصل وهذه شقراء الشعر زرقاء العينين؟

ـ لكن تلك زرقاء العينين كستنائية الشعر. ألوان قلّما اجتمعت! وإنْ حدث، فإنّما لتميّز صاحبتها بفتنة ما بعدها فتنة. الشيطان فى إيقاع ابن آدم، يلوّح بأشهى ما تصبو إليه العين، وأعذب ما يدغدغ السمع. وتلك الفتاة، التى سلبت عقل ابنها المخبول تملك كل أسباب الغواية: جمال الشكل وعذوبة اللسان. يا إلهى احفظنا من الشرير! قال الكهل، فيما زوجته تهتف فى سرّها: الله جميل ويحبّ الجمال. وفيما صورة المحبوبة ترتسم فى خيالها، كما لو أنّها ذاك النهار، حين فتح عليها شكر الله الباب ووقف قبالتها كانت هى معه، وسمعتها تنطق بالقصائد التى علّمها إياها أستاذها النجيب بشارة.

نعم كأنّما رأتها!

حتى أنّها، حين عثرت مصادفة فى طيّات الكتاب تحت السرير، على الصورة التى نسيها العاشق المسافر، ما كان لديها أن تضيف شيئاً إلى هيئة المخلوقة البديعة التى رُسمت فى خيالها، سوى الألوان النادرة التى لا تُظهرها تلك. وبعد سنوات، وقفت أمامها وجهاً لوجه، كانت كأنّما لا ترى جديداً! يا إله السموات الذى إذا ما أعطى أدهش! المجد لله فى السماء وفى الناس المسرّة!

لحسن الحظ أن "أبو بشارة" ليس على علم بأفكار زوجته المتهوّرة أو بمراوغات لسانها. لولا ذلك لأنزل عليها جام غضبه! فقط الشفقة والخوف عليها لضآلة حجمها وهشاشة عظامها ما يمنعانه من ذلك. الخوف إن بدأ بضربها أن ينسى نفسه كما نسيها حين أنهال على بشارة! لذا، وبعد قراءته الرسالة مرات اكتفى بالقول: فليرحل هذا المتمرّد. فليبتعد من شَتَم القديسين

والكهنة فى باحة الكنيسة غير آبه لإذلال أمه وأبيه. ولا لمكانة أخته الراهبة فى الدير. فليرحل من رفض الاعتذار واضطُر الكاهن لحرمانه! نعم، ما لم يتراجع عن شتائمه فى العلن، ويكذّب الأقاويل التى أغواه بها الشيطان. يهدد بالتحوّل إلى البروتستنتية؟! فليقتلوه كما قتلوا ابن الشدياق الذى جاهر وفعل. عجباً لأبناء هذه العائلة! فارس، المخبول، تحوّل إلى الإسلام ولقّب نفسه "أحمد"، وأخوه جاهر حتى دفع دمه ثمن النكران! فليبتعد من كان مثلهما، إلى فرنسا، المكسيك، أو حتى إلى مجاهل الأمازون، يا للوقاحة، ويَحلم ببطولة طانيوس شاهين!

التفت إلى نصرة وقال: بشارة ابنك مجنون. هل تعرفين كيف انتهت عامية طانيوس شاهين؟ اقرئي.

ـ لا. لا أعرف. اقرأ لى لأعرف كيف انتهت؟

ـ نكّلوا بجدّه وقتلوا أباه. وأمه ماتت من الغمّ. وابنك ماضٍ فى طيشه وفى كتابة الرسائل التى تمجّد فرنسا. ما لنا ولفرنسا!

يا لغرور هذا الشاب! لولا استعطاف أبيه، كان سيحضر مع أولاد الذوات، مؤتمر باريس للمعارضين، ليطالب وإياهم باللامركزية! لا مركزية قال... كلام فارغ! ما له وللمؤتمرات والمؤتمرين؟ مغرورون يوقعون أنفسهم فى الأوهام وما تذكره الصحف عن الإخاء العربى الفرنسي. جيل متهوّر، يسير بملء إرادته إلى حبال المشانق! أيّ كبرياء زرعها إبليس فى قلوبهم حتى ليعجز الواحد منهم عن إخفاء كراهيته، أو تمويه معارضته لأصحاب السلطان؟ وهل كلّ ما يصبو إليه أن آدم مُتاح، وهل الدّنيا، المكان الملائم لتحقيق الأحلام أو لاستتباب العدل! تفه!

سيمضى والد "المغترب" شهوراً قبل أن يعلم بحقيقة الجهة التى راح إليها ابنه. سيعرف ذلك من الحاج نقولا المختار الذى أرسل فى طلبه ليهنّئه بنجاة بشارة من المعركة الرهيبة التى قُتل فيها على حدود فرنسا وألمانيا نسيب ابن "أيوب" الساعاتي! هكذا، وفيما هو يتقبل تهانى لا ينتظرها، كان

يشهق بالبكاء. مسح دموعه ومن جديد سحب الرسالة من جيبه وقرأها للمرة الخمسين، إنّما قراءة طازجة!

★★★

نصرة التى ترتاح فى العادة إلى غياب زوجها عن البيت، وتتمنى أن يطول، قلقت هذه المرّة لتأخره! صارت تروح وتجيء من الشباك إلى المطبخ. انهكتها المراوحة فدخلت إلى غرفتها واستلقت علىٰ السرير. وحين أفاقت وجدت شكر الله فى الصالة فى هيئة لا تبشّر كثيراً بالخير.

ـ ماذا يريد منك الحاج نقولا؟

ـ يريد أن يطمئننى إلى بشارة.

ـ صحيح، وماذا قال؟

ـ التقاه شاب فى باريس. قال إنّه يحاول أن يجد عملاً، وأنّه سيدخل جامعة السوربون.

ـ جامعة السوربون، المجد للّه!

ـ وما أدراك أنت بجامعة السوربون؟

ـ أسمع بها.

ـ كادت الأم تزعرد لولا أن عبوس زوجها أوقف الزغرودة فى حلقها. عجباً، إن كان ابنه سيدخل تلك الجامعة العظيمة، فما..

ـ يا نصرة، الحاج نقولا أخبرنى شيئاً آخر.

ـ يا رب السموات، ماذا قال لك؟

ـ نسيب ابن أيوب الساعاتي...

ـ ما به؟

ـ مات!

ـ مات؟

ـ نعم قُتل.

ـ قُتل؟

- على الجبهة وهو يحارب إلى جانب الفرنسيين.
- يا حسرتى على شبابك يا نسيب!
- وأبو نسيب...
- مات أيضاً؟
- لا. موقوف. أوقفوه للتحقيق.
- وما ذنب المسكين؟!
- ذَنْب الابن هو ذَنْب أبيه.

راحت نصرة تندب "نسيب" كما تبكى فراق ابنها، فيما يراود زوجها إحساس قاتل، بأن المسائل أفلتت تماماً من يده، وأنّ تربيته ابنه باءت بفشل ذريع، وأنّ التحاق هذا العاق بالجيش الفرنسى دمّر آخر أعمدة "الناموس" بينهما، وأنّ فرنسا هى السبب. نعم، تحت وطأة شعوره بالغدر، يشعر بأنّ فرنسا، والأفكار التى نشرتها، عدوتّه اللّدود. هبّ من مكانه، وسألته زوجته إلى أين هو ذاهب، فلم يردّ عليها، وفى نفسه قال: أحمدى ربك على أنّى فاعل.

من ناحيتها، ولفرط ما بدا لها شكر الله متهالكاً، غمرتها الشفقة عليه. والخوف من أن يصيبه العارض الذى كاد يودى بحياته ذاك النهار. إن كان ضربه إياها يريحه فليفعل. الآن وبعد أن ظهرت الحقيقة، صارت تغفر له كل شيء. وفى تلك اللحظة التى تراوح فيها الرؤى، بين شفافية عظيمة وغموض رهيب، لأمٍّ يسبق حدسها علمها وأب مكلوم ومخذول، عاد شكر الله عن عتبة الدار. أمسك بكفى زوجته وراح يبكى بكاء طفل ثم انهار على الكنبة فيما تحاول نصرة تعزيته بأن ابنهما على مقاعد الدراسة فى ألف خير. لسماعه ذلك نهض شكر الله وأسرع بالخروج متوجهاً إلى المطرانية ذاتها التى سبق أن التقى فيها أنبه ذاك اللقاء المريع. يحكى للمطران أشياء، كان هذا قد سمع بها. يبكى بين يديه، ويستعطفه أن يتدخل لدى الأب حنّين ليغفر لابنه لاويل طائشة هى من صنيعة الشيطان، خرجت على لسانه فى لحظة طيش

وتَخلَّ. والمطران يعده خيراً بما يبلسم الروح. روح أب تتراءى له.أفظع الاحتمالات: أن يلاقى ابنه المصير على الجبهة والكنيسة غاضبة عليه!

★★★

فى تلك الواقعة التى قيل لوالده إن ابنه نجا منها، كان بشارة قد أصيب بالجرح البالغ الذى تراءى لوردة فى هذيانها. لكنّ الرصاصة لم تخترق ظهره، لتنفذ من الأمام عند الصدر، بل أصابته فى أعلى فخذه واستقرت فى العظم، لولا أنملة لأصابته فى المكان القاتل. على الطبيب أن ينزع الرصاصة ويطهر الجرح كى لا يقفل على الجراثيم، ويصاب الجريح بالغرغرينا. عليهم وبأسرع وقت إجراء العملية لينجو من الموت الكابتن الجريح الذى تحرص الكتيبة على حياته حرصها على نفسها. إن نجا فسيغدو أعرج بالتأكيد. لكن، من الخسائر أهونها! و لياقة المشى ليست ضرورة لهندسة الاتصالات العظيمة .

وضعوه على الحمّالة وراحوا يهرولون به فوق تلال الثلج. إنهم فى سباق مع الموت والثلج هش وأقدامهم تغوص. لا يعرفون إن كانوا يدوسون على أرض صلبة أم على حفر مموّهة بألغام قد تحوّلهم إلى أشلاء؟ فى محيط الثلج هذا الذى لا يترك معلماً لتائه، لا يعرفون الجهة التى يهرولون نحوها. ولا إن كانوا يلحقون برفاق الكتيبة أم يقودون أنفسهم إلى أحضان العدو! طلعات الطائرات، التى يرونها لأول مرة فى حياتهم، تتعقب خطاهم. يتساءلون هل هم الهدف، أم الكتيبة التى تخلّفوا عنها؟ لكنّ الجريح، رغم الإعياء لا يتساءل. يعرف أنه هو المقصود، وأنّ ترويض الحمام هو السبب. لم يخطر له يوماً أنّ ما يمقته أبوه سيفتح له باب المجد. لطالما أنّبه شكر الله على معاشرته كشاش الحمام خليل السمّان، وحظّر عليه ممارسة هوايته "الحقيرة". وفى ساعات اللّين كان يقول له: يا ابنى عيب! برضى الله ورضى أبيك عليك، لا تتردّد على منزل هذا السابق.

لكن صديقه خليل لا يسرق. يهوى المنافسة على جذاب الحمام واليمام

لكنّه لا يسرقها، بل يرجع الغريبة منها إلى أصحابها. يربّت ريشها برفق ثم يطيّرها فى الوجهة اللازمة لوصولها. بأمان الله يقول لها. وتحلّق هى عائدة. شغف صديقه بلغة الطير يفوق ألف مرّة رغبته فى اقتنائه. ما أتفه الطامعين بذلك كان يقول. الكائنات هذه لم تُخلق لتُسرق أو تُسجن، بل لتقرّب بين المتباعدين. هكذا، بعيداً عن التملّك، كان يعقد صداقات مع هواة مثله قد لا يرى لهم يوماً صورة وجه. يراسلهم ويراسلونه والطير هى الواسطة. يربط حلقة المعدن فى الساق ويعلّق بها الوريقة التى تحمل تحيّاته. قيَمُ صديقه خليل هى ذاتها قيَم أبيه، لكن أباه يرفض الإصغاء ويحسم الجدال بمنعه من معاشرة ابن السمّان. وواظب هو فى السرّ على ذلك أتقن الهواية اتقاناً أقرّ به خليل نفسه. اتقاناً وضعه فى دائرة الضوء والخطر، وتطارده لأجله الطائرات الآن.

فى الكتيبة، حين اكتشفوا مهارته، ابتهجوا بهجة من اكتشف منجماً من ماس. إنّه بالنسبة إليهم كذلك، وإلاّ لما قامت الحكومات منذ إعلان الحرب بجمع الحمام الزاجل وغير الزاجل من أطراف البلاد، وحرّمت على الناس اقتناءها وهددت المخالفين بعقوبة الإعدام. ولَما، رفعوا رتبته وغدا "كابتن" متخصصاً، ومعاوناً لرئيس شبكات الاتصالات، القومندان سيرج، يتبادل وإياه الخبرات. القومندان الفرنسى يدرّبه على السلكية واللاسلكية وهو يدربّه على الزاجلة. وحين قصف العدو الكابلات والصناديق عَظُمت مسؤولياته، وتمكّن من كشف خطة الأعداء. ولولا أنّ هؤلاء عادوا واكتشفوا ما اكتشف، لما كانت الطائرات تطارده الآن. جريح ورغم الإعياء، موقن من هذا. ومن باب الأمانة سيطلب من رفاقه أن يتركوه وينجوا بأنفسهم. يحاول أن يفتح فمه ليتكلم، فلا يجد الطاقة الكافية لذلك. يضع كفه على جرحه اللّزج ويحاول أن يرفعها ليرى، لكن الحمّالة تهتز وجسمه يهتزّ معها ورأسه يميل إلى هذه الناحية وتلك. هكذا تمكن من رؤية خطوط دمه على الأرض! ليما رفاقه يهرلون، مثل فزّاعات عصافير بيضاء. تستمر الحمّالة بالاهتزاز،

ويشعر أنّه خفيف ومرتاح. ولشدّة راحته غفا. يا إلهي، والحمّالة ترتفع به، ومثل بساط الريح، تعلو فى الفضاء. الله ما أعذب هذا! حتى لو اجتاح ضجيج الطائرات وعيه وبعثرت قذائفها الثلج وغمرت أجساد رفاقه، وغشت الأبصار، فبساطه مستمرّ فى الارتقاء ورفاقه تحت يهرولون، وفضاء أزرق يغلّفه وشمس دافئة. وحده الآن فى هذه السكينة البيضاء وهدوء أساسيّ ورحيم يسود. وفى غمرة الرحمة يجد نفسه مدعوّاً لأن يغفر لكل من أساء إليه. لأبيه وللأفندى الذى حبس وردة فى الغرفة، وللخورى حنين الذى رفض أن يناوله القربان المقدس. مسكين كان أضعف من أن يقدمه لمشكك. مسكين، ابن آدم قاصر حملوه مسئولية إلهية. نعم يغفر لهم...

لكن عجباً!

لمَ خيمة بيضاء بدأت تغلّفه من جميع الجهات؟ ولمَ رفاقه انكبوا عليه كأنّهم ينقّبون فى أحشائه عن كنز؟!

ما هذا يا رفاق؟ أعلام النصر؟ نعم، انتصرنا. مبروك يا شباب. بأمان الله عودوا إلى الوطن.

طلعات الطائرات تتزايد والقصف أيضاً. الطيور البيضاء ترافقه، وتصفيق أجنحتها يدغدغ السمع. صديقه ومعلّمه خليل يُطلقها... روحى إلى صحبك بأمان الله. نسى أنّه هو بشارة صاحبها. ها هى تحلّق كما جسده الخفيف، وهو مستسلم للنوم اللذيذ. لولا ذلك لمرّ بمنزل وردة ثانيةً لوداعها كما فعل ليلة سفره، وسلّمها الرسالة التى منذ رحيله شرع بكتابتها: "حبيبتى وردة. المستحيل هو الممكن. سأعود برتبة مهندس كابتن. مع الحمام الزاجل تصلك رسالتي. بشارة".

البساط الطائر يغيّر اتجاهه. يدور، ولعلّه يتجه نحو الأرض. لابدّ للرحلة من أن تنتهى ولا فرار من العودة إلى نقطة المركز. وسأل رفاقه عن كاهن يساعده على الصلاة. لكنّهم استمهلوه. حسناً! لا مانع لديه من التريّث، إذ لا يمكن لطانيوس شاهين الثانى أن يرحل قبل تحيّة مناصريه. بساط الريح

يتـأهب للنزول. سيـحط فى أرض بيـروت غيـر بعـيد عن سـاحـة الحـرية. المستقبلون يترقبون هبوطه شاخصى الأبصار نحو البطل. رهبان الأديرة وراهباتها. تلامذة المدارس وتلميذاتها، شيوخ المسلمين وخطباء الجوامع، كلّهم يهتفون له. نعم، انتصر الحلفاء! والحرب انتهت. سيعمّ السلام كلّ مكان. والده يتقّدم المستقبلين، ومعه الأب حنين. ها هو يلّوح له بالترحيب وبيده القربان ووالده معه يلوّح أيضاً.

لكنّه لا يرى نصرة بين المستقبلين؟

لابّد أنّها ذهبت لتأتى بوردة، وأنهمّا باتتا على وشك الوصول.

كاميليا التى يؤرقها ابتعاد زوجها عنها، صارت تمضى غالبية أوقاتها فى منزل أبيها، أو فى الكنيسة. تحضر ليس قداس الأحد فقط بل قداديس كل يوم. تركع أمام تمثال السيدة العذراء، وبكل الإيمان الذى زرعه الله فى قلبها، تتضرع إليها، بأن تأخذ بيد هذه العائلة النبيلة التى لا تستأهل محنتها. تصلّى أن يكون لهذه الحادثة مغزىً آخر غير ظاهرها المخادع.

جرجى يلاحظ أنّ ابنته بدأت تفقد شبابها قبل الأوان، وفيما تحدّثه بانهيار زوجها، تبدو له هى أيضاً على حافة الانهيار. تبكى على كتفه وتأتى لأول مرة منذ رحيلهم على تلك الحادثة... تقول إنّها تغفر لشكرى ضعفه ولعائلته تآمرها. أبوها يلح عليها أن يحذوا حذو غيرهم ويهاجروا. هناك بعيداً عن الألسن ومآزم الحروب، من شأن الجراح أن تلتئم. ولا عجب أن تستعيد هى وزَوجها البهجة التى فقداها.

نور الدين يرى أن حماه على حق. من الأفضل أن يرحلوا. لا إنقاذاً لنفسه أو لحب تزعزع، بل من أجل الصغيرين. يقلقه أن يريا أباهما على هذا الحال. ولما حسم أمره أخيراً تاركاً الترتيبات العملية لوالد كاميليا، كانت دائرة الحرب قد اتسعت وأحوال السفر تتردّى. الدول ماضية فى تعنّتها، والمعارك البحرية فى ازدياد، وكذلك قطّاع الطرق. شتى الأخطار تهدّد المسافرين. هكذا نزع الفكرة من رأسه، وصار يمضى غالبية أوقاته فى منزل قريب له فى "بشامون". يلوم نفسه على إهماله زوجته الشابة التى منذ أشهر خلت كانت بهجة روحه. عقله لم يفكر بهجرها أو تطليقها، لكن روحه هى التى طلّقت. ليس فقط كاميليا بل كلّ مباهج الدنيا. وإذ جاءت تفاتحه فى مسألة تقول إنها مهمّة، بدت له كل الحلول معقولة: إن كانت تبغى أن يحرّرها من رباط الزوجية فهو حاضر. وإن كانت تفضل البقاء على ذمتّه دون واجب العشرة الزوجية فهو حاضر أيضاً. كادت العبارة تخرج من فمه لكنه سكت. وَسبقته هى إلى الكلام، موضحةً أن المسألة تتعلّق بأخته ملك. إنّ قابلها فستحكى له بنفسها.

★★★

ما راع كاميليا، ليس فقط ابتعاد زوجها عنها، بل ابتعاده عن الله. راعها شعوره بأن القدر قد سدّد له ضربة لا يستأهلها، وأنّ الرب لم يتدخل لمصلحته. تحس به مكلوماً حانقاً وفارغ القلب. صحيح أنه بات يؤدى فروض الصلاة كما نصحه الشيخ يوسف، إنما لا يرقى إليها شك، هى التى تعرفه كما نفسها، أنه لا يفعل هذا كما المؤمنون. فى السابق كان يصلّى فى الأعياد وبعض المناسبات، أو فى لحظات صفاء تختاره هى لذلك. إنّما حين يفعل، كان يستغرق فى صلاته ويرتقي. وينهض عن المصلّى نقيّ الفؤاد. والآن تشعر أنّه يؤدى واجباً ليس إلاّ. حرصاً أخيراً على أبنائه كما نصحه صديقه: إذا ما كان الخالق يشاركنا فى رعاية أبنائنا، فلمَ نحمل وحدنا هذه المسئولية الصعبة؟

وعبّرت كاميليا للشيخ يوسف عن قلقها، فأجابها بأنّ إيمان الإنسان فى المحن قد يهتزّ. لكن من الثواب للممتحَن أن يسعى. أن يواجه الكوارث بالتوجه إلى الخالق عزّ وجلّ. ليت نور الدين يذهب إلى الحج. لعلّ ملامسة الحجر الأسود تعيد السكينة إلى نفسه. لعل إشراقاً يحدث فيدرك مغزى ما يجرى بعيداً عن الظاهر. ليته "يجاور" زمناً فى الكعبة الشريفة، كما بعض المتعبّدين، فتتجدّد الروح ويعرف قلبه ثانية الدرب إلى الرحمن.

نور الدين يستمع إلى كلام صديقه الشيخ ويهز رأسه. فى ودّه أن يجيب بشيء. فى ودّه أن يذعن. أن يحج ويجاور ويلمس الحجر الأسود، لكنه يأبى الغش. يأبى أن يفعل هذا فعلاً إجرائياً، أو بحثاً خالصاً عن ملاذ. كان فى ودّه الاعتراف بأنّه أضعف من أن يعبد، وأضعف من أن يسعى، وأضعف من أن يحبّ كاميليا. جلّ ما يمكنه القيام به الاهتمام بعائلته وانتظار الأيام لمغادرة هذا العالم الكريه! حيث كل شيء إلى انهيار. هذا القرن الذى عُقدت عليه الآمال سيؤول بأهله إلى الوبال. وتلك الأحلام كانت كلّها خدعة. والسعادة التى عاشها كانت لوناً من العزاء السابق على المأساة. ما هذه الحرب الكونيّة سوى مؤشر لانهيار أعمّ وأكثر صلافةً. إن كان له من عزاء

فلأن والده ينعم بالراحة التى ينعم بها الصالحون من الموتى. كلما لاحت منه التفاتة إلى الصورة على الجدار حمد ربه على أنّ عزمى إسماعيل لم يشهد من هذا الزمن سوى رغده، ومن حياة ابنته إلاّ عذوبتها

فى تأملاته حسم نور الدين أمره: لن يذهب إلى الحج. وإن أصرت كاميليا على الرحيل مع أبيها، فلتترك له الولدين. لا لأنّها غير أهل للتربية بل لخوفه عليهما من مخاطر السفر. وإن كانت وردة ستمضى بقية حياتها فى المصح أو الدير فلتفعل. كثيرون أخطأوا الدّرب واعتزلوا رفاه الدّنيا. أخوه شوكت، اختار المجد فوجد نفسه فى جحيم الحرب. وأرباب تلك سيمضون قرناً آخر فى كرّ وفرّ. كلّما انتصر فريق عاد وخسر. وهكذا إلى ما لا نهاية، كما منذ البداية. منذ قابيل وهابيل والأخوة يتقاتلون. منذ يوليوس قيصر وبروتوس ابنى الإمبراطورية الواحدة. منذ الحسين ويزيد ابنى القبيلة الواحدة. منذ الأمين والمأمون ابنى الأب الواحد. ومن السلف إلى الخلف يتوارثون الأحقاد. وهذه الإمبراطورية التى يُقال إنّها شاخت، قد لا يُحسم أمرها باليسر الذى يتصوّره البعض! أوروبا ضربها الغرور، وجنحت عن المبادئ التى أسكرت الناس بها. معجبوها سيصيبهم اليأس الذى أصابه. نعم، ما جدوى أن يسعى ونفسه تعوزها الثقة. نفسه تبلّدت حتى ما عاد يهزّه شيء.

نعم، لا شيء بعد الآن يهزّه!

لكن ما هذا الطرق الثقيل على الباب؟

قبضة حديد تكاد تطيح الخشب! ومن يكون الضارب الآن؟ الضارب الذى يحمل له ما لا يرغب فى سماعه؟ ما لم يتحضّر إطلاقاً له؟ ما سيرافق روحه حتى آخر العمر؟ طيلة حياته سيتراءى له العم أبو سليمان داخلاً عليه ينحنى ويقبّل يديه. الاثنتان معاً. عجباً! ما المناسبة؟ لسنا فى عيد وقد رآه البارحة! وسليمان يقول: السيدة سنيّة تطلب رؤيتك.

★★★

دخل عليها فوجدها راقدةً فى الفراش، واهنة الجسم ضعيفة الأنفاس لكأنها شرعت فى الرحيل. انحنى على سريرها وأمسك بكفّها وقبّلها فالتفتت إليه وفتحت عينيها وتمتمت: سأرحل يا نور العين.

ـ لا تقولى هذا يا سنيّة، الطبيب سيحضر حالاً.

ـ لا تتعب نفسك... حان الوقت.

ـ كيف حان وقد وعدتنى بأن نذهب معاً إلى الحج، ووعدتُ نفسى بذلك. هل نسيت؟

ـ لا، لم أنسَ يا نور عيني. لكنّى لم أعد قادرة على السعي. إن كانت الجنّة من نصيبنا فلقاؤنا هناك.

ـ لا تقولى هذا يا سنيّة.

ـ أقول ما أحس به.

ـ وتتركينى وحدي؟

ـ لست وحدك والله معك.

ـ لا تتركينى قبل أن نحقق الحلم.

ـ هذه الدنيا يا نور عينى ليست لتحقيق الأحلام.

طلب نور الدين من سيّدات البيت أن يخرجن. أحضر لها كوب ماء، وجلس بجانبها على السرير، فألقت برأسها على كتفه، وذراعها الرّخوة على صدره. سقاها فشربت وهى تتمتم: "سَلمت يداكَ يا نور الدين".

قالت هذا وغفت قليلاً. وأحس بجسمها خفيفاً مثل يمامة تطير. وسمعها تحكى بصوت ناحل فأنصت. قرّب أذنه جيّداً من شفتيها ليسمعها تحدّثه بأشياء سيمضى بقية حياته يتذكرها.

خفيفة ماتت كما عاشت!

حملها ومشى فى الدرب الذى سار فيه يوم ودّع أمّه وأباه، يشعر أنّه يسير وإياها فى الدرب الصحيح. ولما وصلوا اكتشف أنّهم جهزوا الحفرة. ولما انحنى على نعشها يبكى خاف الحاضرون عليه وأنهضوه. وعندما أهالوا

عليها التراب، جعلوه يتكئ عليهم، وكذلك فعلوا فى طريق العودة. سار منهكاً وجه سنيّة، ذاك النهار، لا يبارح خياله! سيمضى فى تعذيبه حتى نهاية العمر! وجهها يوم خرج من البيت، قبل عشر سنين، ممسكاً بيد الطفلة. الطفلة يومذاك لم تكن أخته وردة التى غادر وإياها مستعجلاً اللّحاق بكاميليا . الطفلة يومذاك كانت المرأة التى تلاحقه بعيون لهفى، ووجه مخذول. الطفلة فى ذاك الموقف كانت زوجته سنيّة!

★★★

فى إجراءات العزاء ونور الدين يستقبل الناس، لاحت منه التفاتة إلى الحوش فرأى "ملك" تتحدّث إلى العم سليمان. وتذكّر ما قالته كاميليا قبل أيام: "المسألة تتعلّق بأختك ملك".

ماذا تريد ملك؟!

ووجد نفسه يتساءل: ترى كم تبلغ من العمر ملك؟

وفى غمرة انشغاله باستقبال ابنه، الذى لم يحضر دفن أمه والوفود القادمة من الخارج، نسى الحكاية ولم يتذكّرها إلاّ بعد شهرين.

ـ ما حكاية أختى ملك؟ سأل كاميليا.

ـ لا أعلم إن كان الوقت مناسباً لذلك؟

ـ جميع الأوقات مناسبة لما تطلبه ملك. طَمْئنيها أنّ حساباتها مضبوطة على آخر "بارة". أظنّ ان والدك يطلعها دورياً على الكشوفات.

ـ صحيح. لكن هناك مسألة أخرى الآن.

ـ أنا حاضر. تُرى، ماذا تريد ملك؟

ـ ملك شديدة القلق.

ـ أفهم موقفها طبعاً. تقلق وأختها بعيدة عنها. قولى لها أنّى فعلتُ هذا لحمايتها، وأحوالها على ما يبدو فى تحسّن.

ـ لا. هذه المرّة تبدو قلقة على نفسها.

ـ على نفسها؟! تقول، على مستقبلها.

- ولمَ الخوف؟

- تقول، بعد أن حصل ما حصل، لم تعد تأمل بفرصة للزواج. مَن سيتزوّج فتاة تجاوزت الثلاثين. ولم يمنحها الله الجمال الذى وهبه لنساء آل إسماعيل.

- هى قالت هذا؟!

- نعم، تقول ما تقرأه فى عيون الآخرين. وحدها من بين هؤلاء بلون الشوكولاته وقريباتها بلون الحليب.

- وممَ تشكو الشوكولاته؟

- لا أدري. تقول ينظرون إليها ولا يفهمون كيف يكون لها عينان خضراوان ووجه أسمر؟ لكأنها من سلالة هجينة والأخريات من نسل الملوك.

- هى قالت هذا؟!

- نعم.

- وماذا تريدنا أن نفعل؟

- أن نفكّر فى زواجها.

- بالطبع، لكن لمن؟ هل تقدّم لها أحد؟

- تقريباً.

- إحدى الأمّهات خلال العزاء...؟

- لا.

- ماذا إذن؟

- الحقيقة، قبل ذلك، حدث أن...

- صحيح؟

- تقريباً.

- تقريباً؟

- ملك تسأل هل من المناسب أن تزوّجوها خالد بن رضوان.

- هى التى سألت؟

- تقول إن كانت وردة لا تريد الزواج منه تأخذه هي.

- هى قالت هذا؟!

- الفكرة لم تكن من قبل فكرتها.

- فكرة رضوان؟

- لا.

- فكرة مَن إذن؟

- فكرة الشاب نفسه.

- غريب!

- نعم . عرضها على أمّه فنهرته، وعلى أبيه فاستمهله بانتظار الوقت المناسب. جاء الشاب إلى لأتوسط له. ثمّ حدث ما حدث.

- حسناً.. حسناً لنسأل ملك إذن؟

- سبق وفعلتُ، فصارحتنى بأنّ الشاب نفسه كلّمها.

- كلّمها بنفسه؟

- خاف أن يأتى إليك فتطرده، فبادر إلى مفاتحتها. قال إنّه لا يفعل إلاّ ما يرضى الله وعبيده.

- وما كان جوابها له؟

- قالت، إذا وافق أخى نور الدين أوافق.

- وما موقف رضوان؟

- يبدو متحمساً. يقول، البيت جاهز وكلّ شيء... ولا فرق بين أخت وأختها. كلتاهما ستسعد ابنه وتنجب له أولاداً صالحين.

- وماذا عن جلنار؟

- ما زالت خائفة أن يُغضب مشروع كهذا الباشا.

- آه، سبق أن ذكرت شيئاً من هذا القبيل.

وقال فى نفسه: مسكين الباشا أو لعلّنا نحن المساكين. لحسن حظّه أنّه ودّع هذا العالم قبل أن يشهد بؤسه.

استدعى ملك وقال لها:

خالد شاب ممتاز. نشأ عندنا وأرسلناه إلى المدارس التى خرّجت أفضل شباب بيروت. إنّه ابن هذه الدار، وسيبقى فيها.

قال هذا فيما هو يتأمل أخته ليصدقّ ويتساءل كيف إنّه لم يفكر من قبل فى مستقبل ملك؟! تنهّد وسألها:

- ومتى ترين أنّه من المناسب أن نعلن الخطبة؟

- ليس الآن، أجابته. على أن أقابل وردة. لديّ سؤال ألقيه بنفسى عليها وبعد ذلك أقررّ بشكل نهائي. على أيّ حال فأنا مشتاقة جداً لرؤية وردة.

ابتسم نور الدين وقال: مبروك يا ملك.

نعم ابتسم! كاميليا ستخبر أباها أنّ نور الدين اليوم ابتسم! يا إلهي! ستتحرّك الأشياء على نحو غير الحزن الذى يخيّم على هذه الدار منذ أكثر من عام. ابتسم لتحقيق الحلم الذى يراود ملك: أن تسكن فى بيت مع خالد، وتحيا معه، يعيشان، بالثبات والنبات ويخلفان الصبيان والبنات. ثمرة الزواج التى هجست بها طويلاً رضية، والتى ستراها بعد سنوات، حين ستأتى لزيارة آل إسماعيل. الثمرة التى ستؤكّد لها مكائد الساحرة جلنار! فهذه ستستقبلها مع كنتها ملك، ومع حفيديها التوأمين، عزمى ورضوان!

بعد برقيته التى لاقت صدى حسناً فى الآستانة، طلب عزت باشا من الصدارة العظمى تمديد المهلة لإكمال مهمته. يفضل كتابة التقرير فى المكان عينه الذى وقعت فيه الحادثة والذى غدا هو جزءاً منه. لم لا، فالمدن العثمانية هذه، كلّها، فى مصيدة الحروب واحدة.

هكذا أمضى أياماً فى بيروت يكتب آخر تقرير له قبل الاعتزال.

نور الدين، الذى لن يقرأ التقرير كاملاً إلاّ فى نهاية الحرب، كان الوحيد الذى سعى القاضى لوداعه. تمازحاً مثل صديقين قديمين وتبادلا الآراء فى شئون السلطنة وشجونها. الظروف، تسير من سيء لأسوأ. بريطانيا خرجت عن حيادها المزعوم وتمكنت من الضغط على إيطاليا. وهذه بعد تردّد حسمت أمرها، فانسحبت من حلفها القديم وانحازت إلى دول الاتفاق. وكذلك فعلت بلجيكا.

- غول الحرب وحده يا صديقى سينتصر.

- لكن المراهنات على قدمٍ وساق. إبليس هنا تركى وهناك إنجليزي. كيتشنر الذى أباد آلاف المهديين فى السودان، يتلهّف البعض هنا على استقباله. وأنت يا صديقى نور الدين كيف برأيك تسير الأمور؟

- لا رأى لمن لا يُطاع. جلّ ما يملك من كان مثلي، عين ترى وأذن تسمع. نسمع بالرشاش الآلى الذى استخدمه جيش كتشنر لأول مرة فى تاريخ الحروب.

وسأل القاضى المستشار عما يود عمله، وأين يجد فى هذه الأزمة مكانه؟

لا يدري. لديه أُسَر يعليها وأخرى يردّ عنها شبح المجاعة. الجراد تجاوز جبل لبنان إلى حدود فلسطين وصار فى طريقه إلى الخزّان الكبير: سهل البقاع. الخزان الذى كان الأباطرة الرومان يحسبون له أكبر حساب ليطمئنوا إلى أنّ امبراطوريتهم بخير! خرج نور الدين عن صمته بالقول

– من ناحيتى يا صديقى، اعتزلتُ السياسة والكتابة عنها. ولا عجب أن آخذ عائلتى وأهاجر إلى أمريكا.

- ترى، كم ستصمد هذه لتدخل الحرب؟

- لا أحد يعلم.وإن بقيتُ هنا فالمهام معروفة. البحث عن طعام للجياع. إيجاد المأوى لليتامى والعجائز، والدواء لمن لمّا يمت منهم بعد.

- وماذا عن المحتكرين؟!

- حتى جمال باشا يشكو جورهم. يهدّد بإعدام بعضهم لتربية الآخرين.

- أليس لديه وسيلة أخرى للعمل؟

- على ما يبدو، لا.

- ومتى سيُعلق لهؤلاء المشانق؟

- قيل يؤجل ذلك مقابل أن يمدوا جيشه بالمؤن.

- لا تنقصه المداهنة.

- أبداً. نحن أيضاً يا صديقي، مضطرون للتعاون معه. أنشأنا مؤسسة لاستيراد القمح وبيعه بأسعار الكلفة. لكنّه اشترط. الجيش أولاً. هكذا وقبل إنزال الحمولة من المرافئ يُصادر نصفها! ولولا أن المحسنين يوزّعون حصصاً مجاناً، لَفاق عدد الموتى الأحياء. وأنتَ يا صديقي عزّت ماذا ستفعل؟

- أنا مسافر.

- أتمنى لك الوصول بالسلامة.

★★★

- انهضي. تقول الأخت إليزابيت لضيفتها، سنغادر الجبل. إلى بيروت.

- وما السبب.

- لا تقلقي. عُيّنتُ مسئولة عن الدير هناك. الريّسة سافرت لتدرس اللاهوت. سأتولّى الإدارة فى غيابها. ألا ترغبين فى العودة إلى بيروت؟

- الأماكن كلّها يا أخت واحدة.

- بالطبع. كلّها لمن آمن، تؤدّى إلى نور الرب.

كانت تلك المرّة الثانية التى تنتقل فيها وردة خارج الجدران. مرهقة،

يائسة، ومشتاقة للخالة سنيّة. وفى وصولها إلى الدير كانت الحجرة جاهزة لاستقبالها، فى الطابق الثانى بجوار غرفة الأخت إليزابيت. وحين سئلت الأخت اليزابيت عن اسم ضيفتها فكرت هنيهة وقالت: اسمها بهية.

★★★

ـ انهضى يا عزيزتي، تقول الأخت لأختها. لديّ مهمّة أكلّفك بها. فتاة صغيرة تركتها أمها فى رعايتنا.

ـ كم يبلغ عمرها؟

ـ ست سنين. اسمها زينة.

رفعت وردة رأسها ونظرت إلى الفتاة. فبان الخوف على وجه تلك والتصقت بالراهبة وهى تقول : خذينى معك.

★★★

تذكر وردة، أنّها ذات مرة، أحست فى الصباح الباكر بيد انثى، تمتد وتضع على الطاولة قرب سريرها شيئاً. وتذكر، أنّها رفعت رأسها لترى، فلمحت رسالة. نعم رسالة. ولعلّها من بشارة. فتحت عينيها جيداً. لم يكن فى الغرفة أحد غيرها. وتذكر، أنها بذلت جهداً لتقاوم تأثير العقاقير وتتناول الرسالة. وأنّها نجحت فى ذلك، ولشدة إعيائها وضعتها تحت المخدّة وفى خلوتها الليلية، راحت تقرأ:

"أختى الحبيبة بهية،

عرفتُ أنك نجوت ولجأت إلى الدير. أتمنى أن تكون رسائلى السابقة وصلتك. أعرف أنه يستحيل عليك مبادلتى الكتابة، لكن الروح كى تتصل بأختها لا تحتاج إلى واسطة. من ناحيتي، بدأت أتعافى. أشهر مرّت وأنا أغلى بالحمّى. ولشدّة إعيائى أجد نفسى غير قادر على الكتابة مطوّلاً، لذا أرسل إليك قصيدة لشاعر ألبانى هاجر إلى مصر هرباً من الاضطهاد. كأن القصيدة تتحدث بلسان حالي.

"أيّها السنونو
ها قد حلّ الربيع،
اذهب بالسلامة،
من مصر إلى البلدان الأخرى.
اذهب إلى ألبانيا
وإلى مدينتى شكودرا.
بلّغ سلامي
إلى البيت العتيق الذى فيه ولدتُ
وإلى أماكن شبابي
واسترح قليلاً فى السهل.
استرح وأطلق بصوتك الرخيم
أغانيك الحزينة!
لى هناك قبران،
قبر أمى وقبر أبي.
مضى على زمن طويل خارج ألبانيا،
فابك، أيها السنونو المتّشح بالسواد،
بدلاً منّي.
ابكِ بصوتك الشجيّ، أغانيك
الحزينة".

رسالة تقرأها وردة بانفعال عظيم، وفرحة أعظم، ستنتقل إلى الأخت إليزابيت وإلى كاميليا. من جديد سيتراءى لهذه التعبير الغريب الذى كان يلوح آنذاك فى عينى وردة قبل مجيء مدرّسها إلى البيت.

إنما عجباً، كيف عرفت محبوبها باسمها المستعار؟!

★★★

- انهضى يا وردة. أولاد جدد. زلفى ستهتم بنظافتهم. تفكر فى أن نفتح

لهم فصولاً ليتعلّموا. هل تساعدينا؟

ـ حبذا لو أعمل شيئاً مفيداً.

– انهضي إذن. الصغيرة زينة ستأتي يومياً إلى الدير لحين عودة أمها. ذهبت تلك إلى بعبدا لتأتي بالمؤونة. في الليل تبيت عند الجارة وفي النهار، تأتي إلينا. على أن أخرج، فباخرة الحبوب وصلت من الإسكندرية. استدعاني نيافة المطران للإشراف على إفراغ حمولتها في المرفأ. سآخذ الفرس "تلجة" معي والعربة. المهاجرون في كلّ مكان هبّوا لمساعدتنا. يقومون بحملات تبرّع واسعة، ليشتروا الأطنان من الحبوب والملاءات والأدوية.

ـ حفظك الله يا أختي.

ـ وحفظ من يسهّل أمورنا. حقاً نسيت أن أخبرك، كاميليا أيضاً جاءت وكنتِ نائمة. وقد تأتي كلّ يوم خلال هذه الفترة. سنبعث برسائل إلى أخواننا في أنحاء العالم، ومنها بالإسبانية إلى بعض بلدان أمريكا.

★★★

تنهض وردة. تلملم أغراضها قبل الدخول إلى الحمّام. الفتاة الصغيرة تلاحقها بنظراتها. ترى كيف تبدو في نظرها كي تتأملها هكذا مستغربة؟

ـ أنت جنّية أم أخت حقيقية؟ سألتها الصغيرة.

ـ أنا آدمية مثلك. لست ساحرة ولا جنّية.

ـ إذن لمَ شكلك هكذا؟

ـ لأنّي مريضة.

ـ وهل ستموتين؟

ـ ذات يوم بالطبع مثل كلّ الناس. حالياً بدأتُ أتعافى. الأخت إليزابيت طلبت منّي تدريسك، ما رأيك؟

ـ هل إذا درست أصبح متعلّمة، أقرأ وأكتب؟

ـ طبعاً.

- وأصبح راهبة حين أكبر؟
- هذا من مشيئة الله.
الصغيرة تعد على أصابعها: يوم، ويوم ، ويوم و...
- ماذا تعدّين يا زينة؟
- كم يوماً غابت أمي؟ خمسة ...
- حسناً أنت شاطرة فى الحساب.
- نعم. وأظنّ أنّ أمى ماتت.
- لا تقولى هذا.
- ماتت أمي. من المؤكد أنّها ماتت.
- لا يا حبيبتي، سترجع إن شاء الله.
- لن ترجع فقد اكتشف العساكر أمرها، خاصة وأنّها لم تلبس التنورة.
- أيّ تنورة؟
- التى خاطتها لتخبئ فيها الحبوب. تنورة داخل تنورة...
- إن شاء الله ستعود بتنورة ملأى.
- مارون ويوسف لم يرجعا أيضاً. أخى مارون مات وأخي...
وطفقت الصغيرة تبكى أخويها مارون ويوسف ووردة تهدّئها: سيرجعان. صلّى ليرجعا.

★★★

فى المرحلة الأولى، كان من الصعب أن يُسمح لوردة بتدريس اللغة العربية، فى مكان تدلُّ فيه لهجتك على الزقاق حيث ولدت. هكذا اكتفت بتدريس البيانو بفرنسيتها المكتسبة. وإذ بعد ذلك، فعلت المعاشرة فعلها، التأمت الوافدة مع المكان الذى جاءت إليه وقاربت لغتها الفرنسية الإتقان، اتسعت دائرة نشاطها المدرسي. وحين نهضت وتبيّن أنها ذات صوت بديع، فى الغناء على الطبقة العليا، انضمت إلى الكورال. وغناؤها حين تصدح، ave Maria ترتعش له القلوب. ويسألون عن هذه التى يتوغل غناؤها فى

أعماق الروح. يقال لهم إنها من أصل إسباني.

كانت وردة، فى رسالتها إلى الشيخ يوسف، حدّثته بالسكينة التى تشعر بها حين ترتل، فأذن لها بأن تشارك فقط فى ما يمجّد الله دون أن تتعارض معاينة مع دين الإسلام.

أسبانية!

وفى الصباح الباكر وفى المساء، مسلمة، ترتدى ثياب صلاتها الطويلة، الناصعة البياض التى خاطتها لها أختها صافيناز. كان من الصعب عليها أن تنفرد خمس مرات فى غرفتها لتصلي، فتكتفى بمرتين تؤدّى فيهما الفروض مجتمعة، أداءً يمنحها السكينة. وفى ختام كل مرّة، تدعو ربّها أن تلتقى خطيبها بشارة، وأن يرحم روح والديها بوران وعزمي، وأن تقابل أخاها محمود ومربيتها رضيّة. وتخص بالدعاء، والدموع تنهمر من عينيها، خالتها سنيّة. تشتهى لقاءها وتقبيل يدها، لتعتذر عن سلوكها الرهيّب، ذاك النهار، يوم أمسكت بيد نور الدين واستعجلت مغادرة البيت لتلحق بكاميليا.

فى الزيارة الأخيرة سألت ملك أختها وردة عن رأيها النهائى بالنسبة إلى الزواج من خالد. وتلك التى لم تفهم قصد السؤال أجابت: قولى لأخى نور الدين إنى مرتاحة فى الدير ولا أريد شيئاً إلا "تلجة". إنْ كان عثمان لا يرغب فى المجيء، يمكن للأخت إليزابيت أن تعثر على سائس آخر.

هكذا، التحقت "تلجة" بسيدتها فى الدير، ووُضعت فى تصرّف الأخت إليزابيت، تُيسّر الأعمال الكثيرة التى تقوم بها. توزيع المؤن. إنقاذ منازعى الموت فى الطرقات. الزيارات التى تسجل فيها أسماء العائلات المحتاجة. الإعانات ستصل وسيأكل الجياع. ووردة، فى مناخ العَوَز وخروج الراهبات بدأت تساعد فى الداخل. تدوّن الأسماء، تستقبل الجائعين لتناول وجبة اليوم، وتتولّى تعليم الصغار، أو تبتكر الحجج لتخرج ومعها زينة. هذه تبحث عن أمها وهى عن شيء آخر. وبعد الظهر، تشارك كاميليا وجورجيو فى كتابة الرسائل التى تدعو المهاجرين فى أطراف الدنيا إلى إنقاذ ضحايا

المجاعات. رسائل كثيرة بُعثت فى تلك الآونة. ورسائل أكثر منها كُتبت إلى بشارة ولم تُرسل.

★★★

فى خروجها من الدير، تلتقى وردة امرأة عجوزاً. ضئيلة الحجم شديدة النحول، تطوى عظامها تحت تنورتها السوداء، تمشى ببطء وتكاد لا تتقدم. تتوقف المرأة، ومن على الرصيف المقابل تشخص إلى وردة. عينان غائرتان، وتعابير وجه تراوح ما بين تعبير طفلة وعجوز طاعنة فى السن. ومِن بعد، تسألها شيئاً بالإشارة. أو هكذا يخيّل لوردة.

هل تسألها عن طعام؟

لا يبدو عليها ذلك. وإن كان هزالها وشحوب عينيها يوحيان بأنها جائعة. ها هى تجتاز الطريق وتقترب منها، وبالإشارة وبعض الكلمات تسألها عن اسمها، والصغيرة زينة تتطوّع للردّ:

ـ اسمها الأخت بهيّة.

هزّت العجوز رأسها ومضت.

★★★

منذ قدوم "تلجة"، صارت وردة تطلب من السائس أن يمرّ بالحيّ الذى يقع فيه بيت بشارة. تدور حول السور. تبحث وتنصت. لكن لا شيء ينبئ بشيء! على الأرجح أن أهل البيت كما سمعت هجروه. وتمرّ ببيت الجارة أمّ عبدالله وقلّما تلمح أحداً من النافذة فيه. لا تجرؤ على التوقف، إنّما فى المرّة الأخيرة حدث شيء: استوقفها شاب، وبالفرنسية قال لها:

ـ لديكم رسالة يا أخت بهية.

ـ ماذا؟

وبالعربية أضاف:

ـ لائحة بأسماء محتاجين.

تناولت المغلّف وخطر لها أن تسأل الشاب عن اسمه، لكن السائس كان أسرع منها. همز جنب حصانه وانطلق.

★★★

بشارة فى السنة الأولى على الجبهة، وقبل التحاقه بمكتب الاتصالات، كتب عدداً كبيراً من الرسائل لوردة ولأهله. لكن، بين صرامة الرقابة من جهة الحلفاء، وصرامة تضاهيها من جهة المحور، لم يصل من تلك شيء. الرسائل التى يكتبها الجنود، تُجعل وقوداً للتدفئة، والقليل منها يذهب إلى ملفات المراقبين. وحين أصبح مهندساً لخطوط "الزاجل" والهاتف، صار من المستحيل على بشارة إرسال كلمة أو إشارة لأيّ مخلوق فى الدنيا. تعليمات، لا أحد يخرقها، إلاّ وَجزاؤه الإعدام. لكن تلك وصلت! وبالبريد. غير الأولى التى لا تحمل أثراً لختم. رسالة، لفرط ما شوّشت أفكار وردة، ظنتها من ضروب الهلوسة.

"أختى الحبيبة،

كلما استطعت سأكتب و كلّما أذن لى البشر سأرسل. وإن كنت هذه المرّة أفعل والحزن والقلق ينغّضان على بهجة التواصل. ولولا أنّ البوح ضرورة للنفس كى لا يصيبها الفناء بعد الموت، لما فعلت، نعم، لا يسعنى أن أموت وأقرب الناس إلى روحى يبقى جاهلاً علّة مصيري. لقد حدث ما يصعب تصديقه. ما لا يمكن حدوثه إلاّ فى ترّهات الحروب. فقد شاءت تلك أن أمرّ يوماً بالعربة العسكرية، فألمحُ طيفاً جمّده البرد، حتى بات غير قادر على أن يلفظ روحه. كان الثلج يغطيه من الرأس حتى القدمين، وذراعاه المتصلّبتان تطلبان من العابرين النجدة. ولولا همس مكتوم، لظننته ميتاً وتابعت السير لأنجو بنفسي. لكن خيوط الضباب التى كان تتسرّب من فمه وفتحتَى أنفه جعلتنى أوقف السيارة وأنزل. خلعتُ معطفى وألبسته إياه. أركبته العربة وطرت به إلى المعسكر. وفيما كنتُ أنزله، وقعتْ من جيبه محفظة تناولتُها وخبأتها بين ملفاتي.

لازمتُه أياماً. أسهرُ عليه مع الممرّض أو أقوم برعايته إذا ما انشغلوا عنه. ونشأت بيننا من تلك الصداقات التى تربط الروّح بالروّح! وبعد أسابيع تذكرتُ المحفظة. وكدت أعيدها له دون فتحها، لولا أن نظرى كان سبّاقاً.

فتحتُ الأوراق، وعرفت أن زميلي، أدّعى ما أدعيتهُ: فرنسى من الجنوب، واسمه المعلن غير اسمه الحقيقي. أحسست بالخطر، وعلى الفور، دخلت على رئيس القومندان وطلبت نقلي».

★★★

فى الطرف الآخر من الكرة الأرضية، فى بلدان الأمريكتين، بدأت الرسائل تصل، تحث الجاليات على إغاثة أبناء وطنهم فى بلاد الشام . كان لواحدة من تلك الرسائل وقع مختلف، إذ عادت تشغل أبناء الجالية فى "بوينس آيرس"، بحكاية ظنّوا أنّها طويت فى صفحات الماضي. الرسالة كغيرها وَرَدت من الدير فى بيروت، تنقل تحيّات سيّدة تدعى كلاوديا إلى أقارب لها وأصدقاء. وإلى، يا للعجب، عائلة تعرفها جيداً هى عائلة شكري. كلاوديا جرجى التى يعرفونها، إنّما أضيفت إلى اسمها عبارة للإيضاح وُضعت بين قوسين (كلاوديا نور الدين إسماعيل!).

الخط خط كلاوديا والكلام كلامها لكن الاسم تغيّر.

عجباً، كيف تغيّر زوجة السلطان اسمها؟ كيف تقيم فى الدير، وتكتب رسائل لصحبها القدامى؟

كان شكري، أسوة بغيره، قد سمع آنذاك بالشائعات التى تخص المحبوبة التى حرمه أبوه الزواج بها وهرّبها جورجيو إلى ما وراء البحار يقال غدت بسعى من ذاك المحنّك، زوجة السلطان العثماني. تعيش فى قصره فى اسطنبول مفضّلة على سائر نسائه. القصة التى منذ سنوات أطارت صوابه وجعلته، حتى قبل أن يفكّر بالهرب، يُضرب نهائياً عن الزواج. أمضى السنوات السبع الأولى فى عزوبة مطلقة يلوم نفسه ويلعن الجبن الذى زرعه والده فى روحه وحال دون لحاقه بكلاوديا. لو فعل، كما يجدر برجل، لغفر له جرجى نذالته وزوّجه إياها. لكان وطئ مرفأ بيروت عريساً يتأبط ذراع عروسه. لكن الجبن، أرذل الصفات لرجل، أدّى بخطيبته إلى مخدع السلطان. والآن تكتب لهم من بيروت باسم مستعار! لا يدرى هل

تفعل هذا سراً عن السلطان، أم أنّ هذا قد هجرها كما فعل بكثيرات غيرها، وصارت من ثم حرّة وسيّدة نفسها؟

مهما اختلفت التكهنات، فالرسالة ملأت نفسه زهواً. لا يمكنه الزعم بأنّ حرية كلاوديا جاءت بعد فوات الأوان. لا. فهو قد دخل الدير بملء إرادته لأنّه أدار ظهره لمباهج الدنيا وامتثل الدعوة التي كانت تنتظره، كما يمتثل الآن رجاء المستغيثين. أقام الدنيا وأقعدها ليملأوا بُطون البواخر بكل ما يحتاجه مُعدم. وها هم الناس يتجاوبون ويجمعون المُؤنّ. بارك الله بمبتكر الهاتف الذي هداه لتيسير التواصل بين المؤمنين. كلّم سنترالات الأرجنتين كلها، أوصلته بأبناء جبل لبنان وبلاد الشام أينما وُجدوا. والآن سيرافق بواخر النقل العملاقة إلى بيروت، بمعيّة اللجنة المكلّفة بالمهمّة.

نعم، رغم تأفف أبيه.

ثانيةً يعترض هذا طريقه! ثانية يتدخل لحرمانه من تحقيق أغلى أمنية على قلب مؤمن: إنقاذ الضعفاء. "مجاناً أخذتم مجاناً تُعطون، ومعنى حياته الآن يتبلور".

هكذا، وبإشراف الكاهن الجديد ذي الأصل اللبناني، شُحنت، من مرفأ "بوينس آيريس"، باخرتان مملوءتان بكل ما من شأنه أن يردّ عن الضعفاء الجوع والمرض. وعبرتا الأطلسي تشقّان الدرب إلى مسقط رأس الأجداد. الدرب ذاته الذي سلكته كلاوديا قبل عشر سنوات. الآن وهو في عرض البحر بعيداً عن تفاهة الشأن العادي، تتضح له الرؤية ويدرك مغزى ما حدث له منذ عقد من الزمن:

في تلك الليلة الثقيلة التي أمضاها ساهراً منتظراً بزوغ الفجر، كان يرتب في خياله الخطة ويستعيد تفاصيلها: قبيل الشروق، سيتسلل من البيت على غفلة من أهله، ويتوجّه إلى المرفأ ليلحق بكلاوديا. يفاجئها ويفاجئ أباها بحضوره، ليؤكد لها حبه ولأبيها استحالة التفرقة بين المحبيّن. كانت الأمور بالتأكيد ستسير على هذا النحو، لولا أنّ الطبيعة تآمرت عليه، وتحت وطأة

الطقس الحار والرطوبة غطّ فى نوم عميق، ليفاجأ بأشعة الشمس تلسع جفنيه. مبلّلاً بالعرق، هبّ مثل مجنون! متأخراً عن موعده ساعات، فالباخرة صارت فى عرض المحيط!

ذاك اليوم المشئوم الذى بلغ فيه الندم مبلغاً رهيباً فى نفسه، عزا استغراقه فى النوم إلى التكاسل المتأصل فى روحه، وإلى دخان البخور الذى تشعله أمّه كلّما انتهت من قلى السمك. لكن لا. الآن، وبعد مرور سنوات، وهو بين زرقة الماء والسماء، تنجلى الأسباب الجوهرية للتأخير، كما تنجلى معانى كلّ الأحداث السابقة عليها. كلّها تتصل بمغزى واحد يتجاوز البخور والرطوبة وتعسف الوالد وجُبن الابن. ولجميعها مبرِّر عظيم كان يقوده إلى الدّرب الذى اهتدى إليه. الهدى الذى جعله يغفر لأبيه موقفه، وللكاهن أماديوس تقصيره. كانت كلاوديا، على كرسى الاعتراف، قد باحت للأب بأن شكرى لثم يدها ووجنتيها وكاد يلثم فمها، لولا أنّها أسرعت إلى الهرب. ورجته أن يقوم بالوساطة بين الوالدين المتخاصمين. وهو، شكري، عاد بدوره واعترف. وحمد الله على الشجاعة التى منحها لخطيبته كى تقاوم الغواية. نعم،

الحمد للّه، فوحده يعلم بالمغزى الخفى للدوافع. كلّها تجارب
عابرة مهّدت لملابس الكهنوت. والدنيا، التى لا تبخل على
أبنائها، ما زالت تغدق عليه. نعم، تمنحه بعد سنوات غفران شابة أحبته وخذلها. وتحفزه لخدمة الضعاف . فها هو يرأس الرحلة التى ستنقذ الآلاف من المجاعة.

★★★

خرجت الباخرتان من الأطلسي، لترسو بعد أسابيع على الضفة الشمالية للبحر المتوسط فى مرفأ مرسيليا. وينزل ركابها القليلون، ومن بينهم الكاهن شكري، فى المرفأ ذاته الذى نزل فيه منذ عقد من الزمن العم جورجيو وابنته. فى ملابسه الأنيقة الفضفاضة ذات الأكمام الواسعة، تسير

عربة الكاهن فى شوارع المدينة بحثاً عن الفندق الذى سمع به من العم جورجيو. إنّهم يقتربون، يقول السائس، وها هو يصل، وينزل ويقترب من الفندق ويقرع الباب ويُفتح له. ويطلب غرفة ويصعد السلّم الخشبى متهيّباً ويدخل. يركن أغراضه جانباً ويستلقى على السرير. يا إلهي! فى الغرفة آثار نفس يعرفها. النفس الدافئة، العطوفة سبقته لا ريب إلى هنا. لعلّها الغرفة ذاتها وذات...

هكذا وعلى إيقاع أفكاره السامية غفا. وفى صباح اليوم التالى نزل، وعيناه تبحثان عن صاحب الفندق "جاك رو".

فى الجلسة الفريدة التى جمعت الرجلين، وتبادلا فيها الأحاديث، كان على الطرف المحنّك، أن يبذل جهداً كى لا يدع جليسه الكاهن يستشف شيئاً من فواصل كلامه. فى خاطر الكاهن انتهت الجلسة إلى لا شيء، وبقى الحوار المُشتهى فى سجلّ المتخيّل:

ـ"هل مات السلطان وتَرملت زوجته؟ وماذا، بعد أن يموت السلطان يحلّ بنسائه؟ أيصبحن حرائر أم يُوَرّثن إلى من يأتى بعده؟".

ـ " يا حضرة الكاهن المتيَّم...مَن جاء بعد تلك الحكاية هو المستشار نور الدين. والمحبوبة أنجبت منه طفلين: شوقى وعلية".

بقى السرّ سراً. وزوجة السلطان، بين بيروت واسطنبول، تراوح فى خاطر الراهب مكانها. لكن دروس الفلسفة الطازجة تؤكّد له استحالة ذلك! إذ لا يمكن للسرّ أن يكون سراً خالصاً، فشرط الأسرار إمكانية ظهورها! أمسك ورقة وراح يكتب فى المسألة كتابة لاهوتية. حتى إنّه، فى طريقه ثانية إلى المرفأ، والعبارات تتدفق على ذهنه كالشلال، لم يشعر بشيء. أبحر واللغز الذى حمّله إياه صاحب الفندق يؤجّج تساؤلاته. وحده الرب يعلم! سيدخلون البحر المتوسط الذي، منذ أكثر من نصف قرن عبره أبوه صبياً يافعاً مع جده.

يا إله السموات! أنفاسك تتهيّب دخول المكان الذى على ضفافه نبتت

جذورك. تتهيّب هذا المنبسط المائى الذى يصل ما بين القارات وتلهج الكرة الأرضية بعظمته. رذاذ الملوحة، عنوبتها، زرقتها، غير المياه التى عرف. الشكر للّه! وحده قادر على تفصيل العناصر على النحو الأسمى لعبادته! سيركع يصلّي، مشرّعاً وجهه إلى الأزرق اللانهائي، فى خلوة وسعها أطراف السماء. خلوة لن تطول، فبعد بُرهة فقط سيُضطر إلى قطع صلاته.

فى إبحاره مرافقاً الباخرتين، ما كان يخطر للكاهن شكري، أنّ وصوله إلى غايته المنشودة، ستعصف بها المخاطر. وأنّه لن يدفن فى أرض الأجداد كما كتب فى وصيّته. وأنّ الحمولات، التى من شأنها إشباع آلاف الجياع، لن تبلغ المرسى. ولن يبلّ منازعو الموت ريقهم بقطرة دواء، وأنّه، سيُضطرّ إلى قطع صلواته لحظة الارتقاء. فالضربات على باب الكابين أقوى من أن تتركه يفعل بسلام!

قام وفتح.

معاون القبطان! ما له لهذا الحدّ مذعوراً؟!

"سفن غريبة تلوح بعيداً فى الماء. تقترب ولا تستجيب للإشارات. مجهولة الهوية لا ترفع علماً ينبئ بالجهة التى تنتمى إليها. الوضع حرج والقبطان يدعوهم لتدارس الموقف فى أسرع وقت".

- لكن أين نحن الآن؟ وأيّ المياه نعبر؟

- نحن فى منتصف الدرب حيث القراصنة يعيثون فساداً.

- دعونى أعالج الموقف، قال الكاهن.

نعم، سيشرح لرجال تلك السفن الغاية السامية التى تقف وراء هذا الإبحار. لقد فعل. ومن ناحيتهم أصغوا إليه وهم يهزّون رؤوسهم. بدوا موافقين على كلامه، ورغم هذا راحوا يسألونه عن أشياء أخرى: لمَ أكياس الأغذية هائلة الحجم؟ ما كميات الأسلحة المخبأة فى بطون السفن؟ وسؤال آخر: أيّ الدول تقف وراء هذا كلّه؟!

لا أسلحة، لا دول، ولا جهات، أجاب الكاهن شكرى مبتسماً. ليس سوى

فاعلى خير. إنْ كانوا يريدون أن يتحققوا فالقبطان يسمح لهم بالتفتيش، وينتهز هو الفرصة ويحدثهم عن الرب. وعلى ما يبدو نجح. فالرجال المتشككون، بعد اعتذارات وتحيّات، عادوا من حيث أتوا.

لم تمضِ ساعات على توارى هؤلاء حتى هبّت من باطن البحر زوارق فائقة السرعة، هبوب العفاريت. ضربت حول الباخرتين طوقاً من الصخب والرذاذ. رجالها يلوّحون بأيديهم، يتفحصّون بالمناظير، يصيحون بكلام غير مفهوم، قبل أن يبدأو بإطلاق النار. ثم وبخفة الشياطين شرعوا بالاقتراب. وبالخفة ذاتها غادروا زوارقهم وراحوا يتسلّقون السفينتين، ليطلبوا من أفرادها التجمّع فى المقدّمة. بعد قليل سيجد الكاهن نفسه سجيناً مع القبطان فى غرفة ذاك. سيمكثون فى سجنهم ما يكفى من الوقت لينهب الغزاة حمولة السفينتين عن بكرة أبيهما!

★★★

انتشرت أنباء الباخرتين المنكوبتين وطاقمهما المجهولى المصير. الأطراف تتبادل التهم. العثمانيون يتهمون الحلفاء بافتعال الحادث "لتكريه شعوب المنطقة بهم"، والحلفاء يتهمون العثمانيين، بعرقلة وصول مساعداتهم. الأخبار توغر الصدور ضد السلطنة. المعارضون من نصارى ومسلمين يستعجلون الخلاص. إلى أن يحدث ذلك فالجياع يملؤون الطرقات فيما مؤن وفيرة أثناء النهب غرقت فى البحر.

خيّم اليأس على المدينة. قبض على أشد النفوس إيماناً. الأخت إليزبيت ستلوذ أياماً بالفراش، فيما وردة تمسك بيدها. كاميليا لا تجد طاقة للوصول إلى أقرب كنيسة. نور الدين يحاول مواساتها وهى على شفا الانهيار. حتى، وقبل أن تعلم بأن مرافق الباخرتين مجهول المصير، هو نفسه خطيبها السابق شكري.

شكرى آثر أن يترك وصوله مفاجأة، وفى البرقية التى بعث بها إلى مطرانية بيروت، اكتفى بالقول إنّ الجالية فى الأرجنتين ترسل أمانتها مع

كاهن، له في لبنان جنور وأصدقاء.

★★★

الموت في كلّ مكان، يوحّد ما بين سكان يرتعدون بالخوف والبرد. يأوون إلى أقبية الدير، وإلى زوايا الجوامع، حيث ينتظرون الإحسان من الميسورين. كنت تسمع أنّات المتأوهين من الجوع. الناس يهاجرون باتجاه الجنوب إلى فلسطين ومصر ليأتوا بالحبوب. سيعد الحظ من يرجع ويجد عائلته على قيد الحياة. بعضهم يموت بالسل. ويلٌ لمن يصيبه المرض القاتل! ويلٌ لأسرته! عائلات بأجمعها انقرضت أو هاجرت. الجثث تملأ الشوارع.

الجوامع والكنائس، ترسل المتطوّعين لحملها والبحث لها عن مرقد. رائحة العفن تنتشر مع الأمراض. الجرب. الكوليرا. التيفوئيد. حمّيات لا يُعرف لها أسماء. قاعات الجوامع تمتلئ بالمصلّين. أجراس الحزن لا تتوقف. المآذن ترتفع بالدعاء والتكبير. أخبار المعارك تتوالى وهزائم السلطنة أيضاً. المشانق تُعلّق في بيروت والشام، لشبان يغلقون عيونهم على مشاهد الظلم ويهتفون بسقوطه. "اللّنبي يحاصر القدس". نور الدين فيما يقرأ تفاصيل ذلك، يتساءل عمّا سيحلّ بالسلطنة. ووردة تتساءل عما حلّ ببشارة؟ بعد الصداقة التي عقدها مع الجريح، وبعد انكشاف هوية ذاك، صارت تهجس بأن يقتل أحدهما الآخر. مَن سيقتل مَن؟ تسأل إليزابيت. "تلك حكاية أخرى. وقعت المحفظة من جيب الجريح الذي كان يتكئ على كتف الضابط، وهذا فتح الأوراق وعرف الاسم: نظمي عزمي إسماعيل! وهل هناك مئة شاب يُدعون كذلك؟".

الجراد يتابع زحفه. أمواجه ترتفع وتهبط لتنقضّ على الحقول والبساتين. جراد أحمر، جراد أبيض، جراد أسود أو أخضر، يحطّ على المزروعات، وفي أرضها يتوالد. الحكومة منشغلة بإطعام جنودها. يلتقطون المحاصيل والمعونات قبل وصولها. أعداد الأيتام تتزايد. الأمهات يتركن فلذات أكبادهن على عتبات وجهاء المسلمين والأديرة. بعضهم يوزّع على العائلات. المفتي

يعاونه كثيرون، ومن بينهم نور الدين، أنشأ "دار الأيتام الإسلامية". المراهقون أُخذوا إلى الثكنات تمهيداً لنقلهم إلى جبهات القتال. الأمّهات ألبسن أبناءهن "الدشداشات". أُسقط بيد "القومندان" مسئول ثكنة "عاليه"، وطلب على الفور إعادة المراهقين من حيث أتوا. مسؤولو الثكنات الأخرى لم يعترضوا، فأُرسل حديثو السن إلى جبهات دخلت ومقاتليها فى الطور الأخير.

جمال باشا وحده فى اتون الحرب يكبر. صار عملاقاً يزرع الرّعب فى النفوس. ينصب المشانق للمتهمين القادمين. و"الكونية" هذه نفق مظلم، لا أحد يتكّهن فيها بساعة الخروج.

★★★

دقّ الحارس باب القاضى ليخبره بما وردهم منذ لحظات: باخرة سياحية تُدعى "زيناتا"، ضُربت وغرق جميع ركابها.

- ومَن الجهة التى ضربتها؟

- يُقال، الألمان. إنّما الأطراف كلّها تتهم بعضها بعضاً، والغرقى بالآلاف.

- يا إلهي، من أى الجنسيات؟

- بريطانيون. إنّما من بينهم عدد من الأمريكان. يقال إنّ الأمر أغضب أمريكا وأنها ستدخل الحرب.

"عجباً لهذه الكونية. بدأت بمقتل دوق نمساوى وتتأجج الآن بمقتل مسافرين أمريكان!

- لا عجب قال نور الدين، لابد من ذرائع تبرر فظائعها كلّما دخلتها دولة تجدّد الفتيل".

القاضى عزت باشا، بعد أن أنصف العائلة التى جاء لإنصافها، بدأ يتحضّر لمغادرة بيروت مرتاح البال. وفى وداع نور الدين وجده هذا متفائلاً: نعم حدث ما لم يكن فى الحسبان! الروس يواجهون ثورة فى الداخل. البلاشفة يسيطرون على الحكم. يقال إنّ هؤلاء يمقتون الحروب ولا عجب أن

ينبذوا المعاهدة التى ورطتهم فيها. إذا انسحبت موسكو تنفست اسطنبول. ولا غرابة يا صديقى أن تنتهى هذه الحرب، بعد ملايين القتلى، بالتعادل.

هكذا منتعش الروح اتجه القاضى مع نور الدين إلى المرفأ. فى تلك اللحظة، ونفسه عامرة بالثقة، ونسيم تشرين يلامس خّديه، حبٌ للعالم كلّه تدفق فى قلبه، يمنحه العزاء على فراق المستشار. فى لحظة التفاؤل هذه، لو التقى "السفاح" ذاته كان سيأخذه فى الأحضان. إنما لحظة التفاؤل كانت عينها لحظة المصير. عند أسفل السلّم، هاجمه ملثّم وغرز فى صدره طعنات خنجر. سيموت بين يدى صديقه فى طريقه إلى مستشفى الألمان وهو يتمتم: السفاح!

النبأ الذى خطر للجميع فى بادئ الأمر إخفاءه عن وردة. إنّما، لسماعهم ما هو أفظع منه عادوا وأخبروها به، لتزداد يأساً ولوعة، وتلوذ ثانية بالصمت. بسببها لاقى هذا الرجل النبيل حتفه. حدث هذا فيما النبأ الأفظع بدأ يجرى على الألسن: بشارة، هو أيضاً قُتل على الجبهة مع نسيب ابن أيوب الساعاتي.

يمامة فى الإسكندرية

الخبر الذى لا أحد يجرؤ على أن يبلغها إياه ، صارت وردة تقرأه أينما كان. فى رسالة بشارة الأخيرة التى لا تتجاوز عبارتين : " حبيبتى وردة كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة . وداعاً " وتقرأه فى صمت الأخت إليزابيت . فى تهرب كاميليا وتوارى عبد الله . فى أعداد الغربان التى تنعق فى الجو . فى حركة هذه وهى تحط وتطير حاملة أشلاء القطط والكلاب . تقرأه فى طواف المرأة العجوز فى الطرق . فى تعب تلك وجلوسها على حجر عند ناصية الشارع، وزينة تقول : مرأة مسكينة . ابنها راح إلى الحرب ومات فاختل عقلها .

الكل ، بلا كلام ،ينبئها بأن بشارة انضم إلى قافلة شهداء لا أحد يجرؤ على ندبهم . إليزابيت تقول لها : من الأفضل يا عزيزتى أن تسافرى مع أخيك . وكاميليا تحاذر أن يقع نظرها فى نظرها . فى لقاءاتهما التى غدت نادرة ، تشيح بوجهها إلى الأرض ! أى العبارات تدارى العين خروجها ؟

وفى الزيارة الأخيرة ، قالت لها : نور الدين اتخذ القرار . سنسافر .

-هجرة ؟

-لا . حالياً سفر .

-وإلى أين تسافرون ؟

-إلى أقرب مكان . الاسكندرية . لا تقلقى يا عزيزتى ، نور الدين رتب لك كل شيء . سيصلك مالك والمؤونة

- اشكريه بدلاً منى . وقولى له ...

- ماذا أقول له ؟

- إنى مشتاقة لأبيه نور الدين .

- وهو أيضاً يشتاق إليك .

- صحيح ؟

طبعاً .

– وكادت كاميليا تحدث وردة بشيء آخر : بندم نور الدين . نعم ، لو أن الفكرة التى خطرت للشيخ يوسف خطرت له ، وزوّجها بالرضى من بشارة ! لكن ما جدوى أن تحدثها بهذا بعد فوات الآوان ؟ ووجدت نفسها تقول :

–إذا طالت الحرب ، سنواصل السفر إلى الأرجنتين . عند ذلك سيرجع نور الدين ليأخذك أو يرسل بابا جورجيو لذلك . جميل أن نجتمع ثانية تحت سقف واحد أليس كذلك يا وردة ؟

" إذن سيسافرون بالتأكيد " ،

فكرت وردة . نور الدين ، بعد أن خسر كل شيء صار يفضل الرحيل . والباخرة العملاقة التى كانت ستسافر عليها مع بشارة ستُرجع كاميليا من حيث أتت . الكل إن تيسر له سيرحل . عدد من الراهبات نُقلن إلى بلدان وبلدات أخرى . وبعد أن نُهب الدير وبات على ساكنيه تدبير قوتهم الشخصى ، خفت وطأة القدم على عتبته . " زينة " بعد اليأس من العثور على أمها وأخويها سيرسلونها إلى قريبة لها فى الشمال . هدوء غريب يعم أرجاء المبنى ويرجع صدى الأصوات . وهى أيضا عليها أن ترحل ، لتبحث عنه . يقولون مات . لكن لا . لا يمكنه أن يموت ويتركها وحيدة .

★★★

فى تلك الفترة رأتها إليزابيت تكتب . ما هذه الأوراق يا عزيزتى ؟

– رسائل وداع .

– قلت إنك ستكملين رواية بدأتها ؟

– إذا رجعت بأخبار عن أبطالها سأفعل .

ومضت تكتب أوراقاً صغيرة لمحبيها ، بخط متقن ، تطويها بعناية بالغة وترمى بها من الشبابيك . وتخط رسالة طويلة لمضيفتها . وبالطبع ، ستمر بالعجوز تخبرها بالرحيل.

– إلى أين ؟

– للحبث عنه .

– خذيني معك يا ابنتى . أنا أيضاً أريد أن أبحث عن ابن لى اختفى . خذيني نلف معاً البلدان ونسأل الناس هل رأى أحد منهم وحيدي؟

الرحلة القادمة آخذك يا خالتي. الآن لا مكان لك على الشمسية.

★★★

" المستحيل هو الممكن " .

الدنيا ليل. المتأوهون فى الشوارع غفوا . راهبات الدير خلدن إلى النوم. إنه الوقت المناسب للنهوض: وعلى رؤوس أصابع قدميها اتجهت إلى النافذة . تسلقت الحافة ، فتحت شمسيتها ولفت نفسها على عمودها النحاسى تأهباً للطيران . الفضاء مكتوم . رصاصى . أى الفصول نحن ؟

فصل الظلام .

قفزت عن حافة الشباك ، ولعجبها بدأت الرحلة بيسر . استقرت الشمسية فى الفضاء هنيهة ، ثم بدأت تعلو على مهل . تتمايل إلى هذه الناحية وتلك ، تمايل سرير طفل ينام . ورويداً رويدا تحلّق . فوق البيوت والحدائق . فوق الحقول والبساتين . وتدور عائدة . يا إلهى ، للدوران فى سواد الليل عذوبة ! هذه زيارتها الأولى للمدينة بعد دخولها الدير . من فوق ترى أشياء لم تكن تراها من الأرض . الظلمة تلفها بحجاب كثيف ، تَرى منه ولا تُرى. ستمضى حتى النهاية . ستمضى إلى أن تصل . وقبل ذلك لابد أن تمر ، يا إلهى ... الصوت يصلها من دهاليز السنوات البعيدة ، صوت سنية ! ستمر لوداعها . اقتربت من مسكنها فى دار إسماعيل، وفى حجابها الأثيرى دارت على النوافذ . وتوقفت قبالة غرفة النوم ورأتها ممددة على السرير ، كاشفة الرأس وشعرها الأسود مسدل من ناحيةٍ واحدة على كتفها وصدرها ، تزينه زهرة من القرنفل البنفسجى . نور الدين يجلس بجانبها ممسكا بيدها منكس الرأس ، يبكى . وخطر لها أن تدخل ثم عدلت . لا . لن تزعجها فى لقائها حبيباً أنكرها طويلاً ثم عاد إليها . لكن سنية هى التى بادرت . من خلف درابزين الشباك لوحت لها بكفها تسألها : إلى أين

تذهبين يا وردة ؟

إلى البحث عن بشارة .

" عفارم " انتظريه كما انتظرت أنا نور الدين . ها هو قد عاد سنعيش بالثبات والنبات ...

وتابعت طيرانها ، فيما سنية تكمل جملتها ، كانت هى تتجه لوداع أختها ملك . نعم، لا يطاوعها قلبها على الرحيل دون أن ترى عزباء آل إسماعيل المتفانية. لكن ، يا للمفاجأة ! ها هى ملك تحمل على ذراعها طفلاً وخالد بن رضوان يحمل آخر نسخة عنه !

توأمان !

– نعم يا أختى . صبيان . عزمى ورضوان .

– يا إلهى ! وكيف تميزين أحدهما من الآخر ؟

– أحياناً آخذ هذا على أنه ذاك . لكن تصورى ، زوجى خالد ... تذكرينه طبعاً ، مغمض العينين ، يميّز بين الأخ وأخيه . ويحلو لى أن أمتحنه ، فيشير دون أن يرى : هذا رضوان وذاك عزمى ، وما من مرة أخطأ ، تصورى !؟

– وكيف ذلك يا ملك ؟

– دليله إليهما همس الأنفاس . لا تزعلى يا وردة كل شيء فى الدنيا نصيب .

يا إلهى ، إن كان من شأن تلك الحادثة أن تخرج أختها عن عزوبتها المستعصية ، فقد كانت تستحق العذاب . عانقتها وهى تقول : مبروك يا ملك. خالد شاب ممتاز . إنما بالنسبة لى تعرفين السبب . مبروك يا حبيبتى . كل المصاغ الذى تركته بوران سيصبح لك . لكم كانت تحبك بوران .

وقبل أن تسمع جواب أختها انطلقت . عادت ترتفع وأطراف شمسيتها تتسع وترفرف . عبرت بيوت رأس بيروت وتعبر الآن المقبرة ، ومن فوق تسلّم على الراقدين فيها . تتذكر أختها ليلى التى لا تعرفها ، كما ، لأول

مرة تدرك جهلها بمكان عزمى وبوران . كيف لم تذهب ولا مرة واحدة ، كما غيرها صباح الأعياد لزيارتهما ؟ لا بأس ، أول ما ستقوم به عند عودتها ، هو تلك الزيارة . رمت أقحوانة على قبر سنية الذى لم ينبت عليه العشب بعد ، ومضت. وإذ تجاوزت مدينة الموتى ، بات عليها أن تختار بين الدرب البحرى والدرب البرى ، فوقع خيارها على الأول . نعم ، لتشهد شروقاً يتمنى كل كائن حيّ أن يشهده !

لوحت للمنارة وتابعت طيرانها باتجاه الشاطىء . وحين دهمها النعاس . كان آخر ضوء فى بيوت المدينة قد تلاشى ، فيما مظلتها البيضاء تمعن فى التحليق فوق بحر الليل البنفسجى . حسناً أن العم جورجيو أرسل لها البوصلة ، فمعالم الأثير غير معالم الأرض . هكذا غفت مطمئنة إلى أن سفينتها تمضى باتجاه الشمال .

لا تدرى كم من الوقت نامت . وحين أفاقت كان الثلج يغطى كل مكان ، وكانت هى ترتعش من شدة الصقيع . لفت نفسها بغطاء الصوف الأزرق وتكومت حول عمود الشمسية تتامل المدى اللانهائى الأبيض ، وتشعر رغم الفراغ بأنها تقترب أكثر فأكثر من بشارة . يا إلهى أنت الأكرم ! ها هو طيفه يتراءى من بعيد جالساً أمام خيمته ، مضمد الجراح يقرأ . أسرعت إليه . وهو ، من ناحيته ، أحس باقترابها فرفع بصره قائلاً : باسم الرب ! ماذا تفعلين هنا يا وردة ؟

– أبحث عنك .

– أنت شابة صغيرة وما كان يجدر بك أن تأتى إلى هذا المكان .

– لكنى كبرت . نسيت ؟ سنوات مرّت ...

– صحيح . إنما لا تقلقى على ، فأنا رغم المخاطر بخير

– إذن . لابد أن ترجعى معى .

– أرجع معك ؟!

– نعم ، أمك فى انتظارك .

- صحيح ؟
- كانت ستأتى معى لولا ...
- وماذا عن أبى ... ؟
- لا أدرى .
- مهما يكن يا وردة ، تعرفين أنه بعد التحاقى بالجيش الفرنسى ، بات من غير الممكن ...
- ولم يا حبيبى فعلت ؟ ألا تعرف أن الشقاق بينك وبين نور الدين سيزداد ؟ إن كان ، بعد نصيحة الشيخ يوسف ، سيغفر اختلاف الدين ، فمن الصعب عليه أن يغفر انضمامك إلى الأعداء .
- الفرنسيون ، يا حبيبتى ، ليسوا أعداء . سأشرح لك حين نلتقى .
- فى الدنيا أم فى الآخرة ؟
- كما يشاء الله .

★★★

لا تدرى كم من الوقت مضت تحلق فى مخيلها. إنما كان عليها أن تعود لتصل إلى المدينة وتقترب من الدير . حطت على حافة النافذة ، أغلقت مظلتها ، دفعت الدرفة ونزلت إلى غرفتها . تغريها الرغبة فى أن تغتسل لتنزع ما علق بشعرها وما التصق بجلدها من لزوجة وعفن . لكن الانهاك لن يسمح لها بذلك . بين الصحو والإغفاءة اتجهت إلى سريرها ، وبمرورها بمحاذاة الطاولة لمحت رسالة مفتوحة قرأت منها العبارة الأولى . ارتمت على السرير وغمرت نفسها بالغطاء وغطت فى نوم عميق ، فيما هى تستعيد ما قرأت " حبيبتى وردة "

مشكلتها ، حين أفاقت ، أن الأخت إليزابيت تبدو لها لا مبالية. تسألها عن الرسالة التى لمحتها على الطاولة قبل أن تنام ، والتى حين أفاقت لم تعثر عليها . وهذه تلوذ بالصمت . أو تقول : لا علم لى يا حبيبتى بتلك الرسالة . متى وصلت ؟ وتضيف: من الأفضل لك يا عزيزتى أن تسافرى مع نور الدين

. خلاصك ، يا عزيزتى فى الابتعاد .

الابتعاد عن أى شيء ؟ سألت وردة فى سرها ، وإليزابيت أضافت :

الطبيب نفسه ينصح بذلك . لا تفوتى على نفسك الفرصة .

★★★

يوما بعد يوم يتأكد لها النبأ الذى لا يجرؤ أحد على إعلانه ، والذى غدا مشتهى لدى محبوبها نفسه بعد أن جرى ما جرى! كل يرى الأشياء من زاويته ، والحادث الذى جعله يشتهى الموت يراه رفاق الكتيبة سبباً للتتويج! حملوه على الأكتاف، هاتفين للبطل المرسيلى الذى جمع المجد من طرفيه : العلم فى هندسة الاتصالات والبطولة فى ساحة الوغى . كان فى وده أن يفتح فمه ويقول شيئاً ، إنما وجد نفسه عاجزاً عن قول أى شيء .

من ناحيتهم لم يكونوا فى حاجة لأن يستمعوا إليه بعد أن رأوا المهندس يستل البندقية من يد عدوه الألمانى ويطلق عليه الرصاص ، فيما كان هذا ورفاقه يقتربون من المحطة لسرقتها . الألمان تركوا الجريح وتراجعوا ، ثم فروا فرار العصافير ، والبطل يبادلهم النار بالنار . نعم ، بمفرده وفى الموقع الأكثر جاذبية للدم والذى صارت تتحدث به الأمم ! سيتحدث رفاقه طويلاً بتلك اللحظة التى استشعر فيها البطل خطى عدوه فاستدار بحدس شاعر ورشاقة لاعب كاراتيه .

محمولا على الأكتاف يهتفون له ، فيما خياله المنهك يستعيد الواقعة التى تورط بها : الرصاص الذى تدفق من البندقية الآلية، وكان أسرع من توقعاته، هو الذى أردى اليافع قتيلاً أو شبه قتيل . وبعد فرار الآخرين، لاح على وجه الجريح ذاك التعبير المعذب الذى يستعطفه فيه ان ينقذه وإن كان هو قاتله .

عجباً لم البطل الشهم لم يفعل ؟!

لم ، هو بشارة شكر الله ، لم يستجب لاستغاثة جريح يرفض أن يموت ؟

رفاقه مستمرون فى الهتاف ، واسم البطل يخرج من حناجرهم فرنسياً يدعى " برنارد " لكن لا . اسمه بشارة شكر الله وهو ليس بطلاً . إنه قاتل ، قتل غريماً غدا أخاً له فى الإنسانية منذ الطلقة الأولى التى أوقعته جريحاً أعزل .

"عاش البطل".

"نعم ، الذى رفض إنقاذ أخيه الجريح".

"عاش المهندس الفذ ، رفيقنا ومواطننا المرسيلى برنارد."

لا القاتل ، ليس مرسيلياً. هو بشارة شكر الله ، حفيد نمر شكر لله ، حفيد توفيق حفيد عيسى وموسى وإبراهيم وكنعا ن ، هكذا بالتسلسل وصولاً إلى سيدنا آدم. آدم لم يقتل . أبناؤه هم الذين فعلوا . استسلموا لغواية التنافس فقضى أحدهما على الآخر وتركه فى العراء ..وهو الحفيد بعد ملايين السنين يكرر الفعل ذاته .

يا للخزى !

الجريح سينزف حتى الموت ، وأمه ستطوف فى الشوارع غماً على ابنها الذى قاتله لا يعرف اسمه . كان فى وسعه أن يسأل ، لكنه استعجل الهرب.

يهتفون بالنصر ، ولم يشعروا به يتململ ، ويطالبهم بوضعه على حمالة ، فقد ارتمى على أكتافهم مطأطئ الرأس ، مثل فارس أصابه سهم " أخيل " فاستسلم إلى ظهر جواده ليعيده إلى مكانه الأصلى .

لكن إلى أين يعيده هؤلاء ؟

إلى المستوصف : عارض صحى أصاب البطل . هكذا حملوه على الأكف وهرولوا به .

ولما استعادت الحرب مجراها أفاق هو من صدمة بطولته صامتاً ممتنعاً عن الكلام والطعام ، ممتنعاً عن توصيل خطوط الهاتف ، وممنوعاً من الاتصال بالحمام الزاجل ! وهو نفسه لا يدرى إن كان ، سيظل بقية حياته أخرس مشلولاً أو شبه أخرس ، شبه مشلول ، شبه عاطل عن العمل .

وبالنظر إلى خداع البندقية قد يكون شبه قاتل .

لا بل قاتلاً !

★★★

الطبيب المكلف بعلاجه ، عجز عن تشخيص مرضه بغير الأزمة التى تعصف بنفس البطل ، والتى هى على الأرجح بطولته ذاتها . لذا قرر أن يحيله على الطبيب الكولونيل ، الذى يقوم بزيارات استثنائية للمعسكر لمعاينة الحالات المستعصية فيه . جلس هذا مع المريض ، واطلع على الرسوم والكتابات الكثيرة التى يحتفظ بها فى ملف خاص ، واطلع على الرسالة التى كتبها إلى عائلة القتيل الألمانى والتى لم يتمكن من إرسالها بعد لجهله الاسم والعنوان . كما قرأ القصيدة التى تنطق بلسان هذا الأخير ، وفيها يقول :

" يكفى أن تضل الدرب
أن تكون وحيداً
أن تكون وحيداً وتائها لتَقتل .
تائهاً وحيداً لتُقتل ".

وفى لقائه الخاص مع القوامندان قال الكولونيل :

يخشى أن تكون المسألة أكثر من أزمة نفسية وأقل من جنون. على أى حال ، بات لا يؤمن جانب هذا الكابتن . قاتل يبكى القتيل !

– والحل ؟

التخلص منه . أو تقديمه للمحاكمة وهناك يقررون مصيره .

– مستحيل قال القومندان .

اسمع يا صديقى ، أجاب الكولونيل بما يشبه الهمس . بلغنى أن قدرات هذا المخبول فى تسيير الحمام الزاجل تفوق قدرات ساحر وأن كفاءته فى الاتصالات السلكية توازى عبقرية مخترع .

– صحيح ، وهذا سر حرصنا عليه .

لكن ماذا لو انقلب السحر الأبيض إلى أسود ومال العبقرى اللبنانى إلى ريح ألمانيا ؟ هل تعلم بماذا يطالب ؟

– لا .

– يطالب بإعادة الحمام الزاجل إليه ، ليحمله رسائل لمحبوبة يرفض الإفصاح عن اسمها .

– صحيح . لكنه يهلوس . فهو بعد الحادثة ...

– لذا لا بد من التخلص منه . مجنوناً كان أم عاقلاً ، بات مصدر خطر. من يدرى لعل الفتاة تلك ...

المحاجة التى تحول فيها الكولونيل والقوامندان إلى مرافعين بليغين ، كادت تؤدى إلى صدام دون أن تسفر عن شيء . إنما من قلب المأساة يتراءى الخلاص! ففى تلك الليلة ، لم يغمض جفن لأحد فى المعسكر . فالجبهة التى التهبت منذ سنتين لحسم ملكية أرض تطالب بها كل من فرنسا وألمانيا ، وألهبت حماس الجماهير هنا وهناك ، عادت تشتعل من جديد ، لتودى بحياة المئات من المقاتلين فى الخنادق . وبمئاب غيرهم من حاملى الإمدادات . القذائف تنهمر عليهم كالصواعق والطائرات فى غاراتها تصم الآذان . الهاربون من الموت يدوسون الجثث ، دماؤهم تصبغ التراب ، ومن بين الهاربين أولئك ، الكولونيل نفسه . جريحاً يزحف بين المتاريس ، برفقة القومندان والكابتن المشكوك فى ولائه ، يساعدانه على سد منبع النزيف .

بعد تلك المعركة ، واطمئنان الكولونيل إلى أن الأطباء عدلوا عن بتر يده، انتهى إلى الحل المقبول :

– نضع المشتبه تحت الاختبار ، ريثما نقرر مصيره . إنما بشرط .

– وما هو الشرط ؟ سأل القومندان .

– تشديد الحراسة عليه .

هكذا وفى تلك الفترة صار للكابتن المتهم ظل .

معاون عنيد يحضر ويراقب كل ما يقوم به ، ويدوّن بالدقة كل التفاصيل

ويطلب إليه أن يوقع . ليس الطلب ما يسبب له الحيرة ، بل الود الذى يظهره الظل ، فضلاً عن الإعجاب !

أفردوا له غرفة أقفل بابها عليه . صاروا يأتونه بالطعام ويؤذن له بالذهاب إلى الحمام مرتين فى اليوم لقضاء حاجته ، ولماما للاستحمام . ظله يرافقه والقومندان يزوره . لا تخف ، يقول له ، فأنا إلى جانبك . عجباً ! إذا ما كان إلى جانبه وحريصاً لهذا الحد على صداقته فلم سجنه ؟ يسأله بالإشارة عن السبب فيحدثه هذا بالمرض . وذات يوم اعترف له بالحقيقة : يخافون أن تهرب . إن فعلت فمن يتولى من بعدك أمر الشبكات ؟ " إياك أن تهرب " . يقول له .

عجباً لهذا كيف يقرأ أفكاره ؟!

– إياك . إن حاولت قتلوك .

لن يهرب ولا يخرج من زنزانته إلا برفقة الظل والقومندان لمعاينة الشبكات . فيبدل ملابس بملابس ومقيداً يضعانه على الحمالة ويسرعان فى نقله إلى المواقع . أو يركبانه السيارة العسكرية التى تنثر التراب وروائح البترول . ولا يفكان قيده إلا ساعة العمل . القومندان يفعل هذا معتذراً ، يا صديقى ... وذات مرة قال له : لا تعلم يا صديقى ، مكانتك فى نفسى . أنت بمنزلة أخى الأصغر وكم يؤلمنى أن ترجع إلى بلادك بساق التوت . قال هذا ودمعت عيناه . أنت يا صديقى من طينة نادرة . إذا منحنى الله فرصة النجاة فلن أتخلى عنك .

وذات يوم خطر للأسير أن يحدث ظله .

– ما اسمك أيها الظل ؟ سأله .

لسماع السؤال ، أشرق وجه الشاب . إنها المرة الأولى التى يفتح فيها المهندس فمه ويحكى .

– اسمى ؟ سأل مبتسماً .

– نعم اسمك ؟

– جان كلود بونوا . باشاويش .

لكن الظل لم يكتف بالإجابة ، بل انتهز الفرصة ليواصل الكلام ويمتدح رسومه .

" طريقة مكشوفة ومبتذلة للتودد ! "

– رائعة هى رسومك يا رفيق . رائعة . أنا ، يا رفيق ، لى فى الفن تجربة وفى الكتابة أيضاً .

– حقاً ؟

– نعم . لا ريب أنك سمعت بمونمارت ؟

– كنيسة مونمارت ؟

– لا بل هضبة مونمارت نفسها ، بما فى ذلك الكنيسة . يا لتلك الهضبة كم صارت تجذب مثقفى العالم ! ما لم تذهب إلى مونمارت فإنك لم تدخل عصرك بعد . يتوافدون إليها من أطراف الدنيا . من الصين واليابان ومن الأمريكتين . يحجون إليها كما المسيحيون إلى روما والمسلمون إلى مكة .

– وما أدراك أنت بالمسلمين ؟ سأل الأسير ظله؟

– أنا يا رفيق درست فى كلية الفنون سنتين ثم وقعت الحرب . لا بد لكل دارس للفن أن يطلع على الحضارات والأديان التى تركت أثراً فى العالم .

– حسناً .

وخطر له أن يضيف : " أنا أيضاً مسلم أو على وشك أن أغدو كذلك " ، لكنه سكت . ما شأن الدخيل بهذا ؟ لكن والحق يقال ، إنه بدأ يأنس لهذا الظل . ظله هذا خفيف الظل يخشى لو كشفت الأوراق أن ينقلوه بعيداً كما نقلوا نظمى إسماعيل . فإن كان لابد من أن يرافقه أحد ليل نهار ، ويكتب عن كل شاردة يقوم بها وواردة ، فليكن هذا الفكاهى الطيب . عندما يحمى وطيس المعارك ، ويعلو صراخ المقاتلين فى الخنادق ، وأنين المنازعين ، ويلبسه الذعر ، الحق يقال إن هذا الودود لا يقصر . يمسك بكفه كأنما ليشد أزره .

وحين أخذته النوبة التى تشبه الصرع ، والتى صارت تلم به بين يوم وآخر ، ضمه إليه كما تضم أم ولدها ، سقاه الماء وفرك يديه بالكحول ، ولم يكتب شيئاً من هذا فى التقرير . بل كان يعبر عن المسألة ويحدثه ثانية بالرسوم وبمعرض يقام له فى مونمارت . إن كنت يا صديقى مبدعاً فى الشعر كما فى الرسم ، أصحبك إلى أفضل دور النشر فى فرنسا .

نعم ، دخل الحرب جندياً متطوعاً ، وسيخرج منها رساماً مبدعاً بالفحم والرصاص . وكاتب خواطر وشاعرا ! الرسوم والكتابات التى وقعت فى نفس الظل "بنوا " موقع السحر ، وجعلته يتعاطف معه ويرسل رسالته لوردة بواسطة الجندى الذى بترت ساقاه. الرسوم والكتابات ، التى يعتبرها الشاويش من تجليات فن جدير بأن يعرض فى مونمارت ، ويُنشر فى باريس ، فيما هو ، بشارة شكر الله ، يرى فيها أفظع عقاب . نعم أى الأحزان رافقت تلك الخربشات ، وأيها ترافقه كلما نظر إليها ؟ لا بد أن يفعل بها شيئاً ليرتاح . ماذا يفعل ؟

يحتفظ بها لنفسه . يضعها فى صندوق من حديد ويقفله بقفل من فولاذ ، ويكون شرطه الأول والأخير على وردة إسماعيل ، إن تزوجها ، أن لا تفتح الصندوق فى حياتها أبداً . إن فتحته ، وبرغم حبه لها ، بل وبسبب حبه لها ، فسيتركها إلى غير رجعة! ثم خطرت له فكرة أخرى حررته من مسألة الصندوق ومن عذاب الاحتمالات : سيجمع كل ما رسم ، كل ما خربش وكتب ، ويجعله كومة يشعل فيه النار . كما سيحرق البذلة العسكرية ليبدأ مسيرته بعد ذلك حراً خفيفاً . الفكرة لمعت فى خياله كما النبوءة . وسمع محدثه يقول :

-الحرب على ما يبدو توشك على نهايتها ، ما الذى ستفعله بحياتك بعد ذلك يا رفيق ؟

- لا أظن أن الحرب ستنتهى .

- يا صديقى ، ما من حرب إلا عرفت نهاية .

- لتبدأ أخرى!

- لا تكن متشائماً . الحرب ستنتهى إلى الأبد . هل سمعت بالبلاشفة ؟

- لا . من هم هؤلاء ؟

- ثوار روس انقلبوا على القيصر . يؤمنون بالعدل والمساواة وإلغاء الحروب.

- عظيم ، يا صديقى بونوا . وأنت ماذا ستفعل إذا ما انتهت الحرب ؟ ستنضم إلى البلاشفة هؤلاء .

- لم لا . وقد أعيش فى مونمارت وأعود إلى الدراسة بلشفياً . وأنت ؟

- أنا ؟

- نعم ، أنت . هل تعلم لم أسألك ؟

- لتكتب الجواب فى التقرير ؟

- لا . لأنى أعرف أين ستذهب . هذه المرة يا صديقى سأقول لك السر الذى سمعتهم يتحدثون به .

- الكولونيل يصر على محاكمتى ؟

- بالنسبة للكولونيل لا أعلم . لكن القومندان يفكر فى أن يصطحبك إلى مصر

- يا إلهى ، وهل فتحوا معركة هناك ؟

- لا . كلف الفرنسيون بإنشاء شبكة هاتف ، والقومندان رشح المرسيلى الفذ لمساعدته على تنفيذها .

- رائع ! قال لظله .

نعم ، رائع أن يذهب إلى مصر ويأخذ معه وردة . يقابلان الشاعر " شوكدرا " ويسمعانه القصيدة التى فى محنتهما تبادلاها . هكذا إذا ما انتهت الحرب ، تبدأ من هناك دعوته . يا حضرة الشاويش ، الكابتن هذا الذى أمامك ، لديه دعوة . رسالة . لا الشعر ، ولا الرسوم ولا الكتابات ستمنعه من القيام بها . بشارة ، هذا ، بعد عثوره على المفقود ، سيبادر

ويبشر الآخرين به . الناس ، كل الناس أينما وجدوا معنيون بالانسجام الكونى . وهو ، منذ أن فعل ما فعل ، واكتشف ما اكتشف ، بات أكثر من غيره معنيا به . والرحلة التى ستستغرق العمر كله ، سيبدأها من البدء . و تحقيقا للوعد الذى وعد ، سيطمئن إلى سلامة أبيه ، ويوقف أمه عن طوافها فى الطرقات ، ويقابل وردة ، يؤكد لها حبه ويحدثها بمسألة الانسجام . فإن كانت لا تزال على حبها له وتبادله الرأى ، وعلى استعداد لمرافقته ، فهو حاضر لأن يتزوجها . وإلا فمصيره العزوبة ليس إلا . يختارها كراهب متجول . يحمل اليافطة التى ستغدو مظلته، يحث بواسطتها الناس على تحريم القتل . قاتلك هو هو . قاتلك هو أنت . نعم ، فالحياة هى الجوهر ، الانسجام هو الناموس والقتل هو الهلاك . بلى ، والشاويش يلح عليه ليخرج عن صمته ويعطيه الجواب :

– يا صديقى ، بونوا لم أقرر بعد . لكن ما رأيك أن ترافقنى فى رحلتى

– إلى مصر ؟

– لا بل ...

– إلى مونمارت ؟ سأل الظل وهو يصفق من الغبطة . عظيم ! معارفى بين الفنانين كثر هناك . ودور النشر أكثر . وهى ، بعد الحرب تتلهف على من ينطق لسانه بويلاتها . ستغدو يا صديقى أشهر من نار على علم ، وأنا رفيقك ... يا إلهى لو كان فى استطاعتى أن أفك قيدك الآن لفعلت .

مسكين هذا الشاويش . مازال ماضياً فى البحث عن مجد عابر . مسكين ، برغم الحرب وويلاتها ، لم يختبر نعمة التخلى . التخلى الذى دفعه، هو، بشارة لاتخاذ قراره . إن كان لم ينفذه بعد ، فلأنهم استولوا على الملف . حجزوه فى درج مكتب ووعدوه بأن يسلموه إياه فى الوقت المناسب . إذاك ، يشعل النار فى الأوراق ويرتاح .

لن يشعلها الشاويش " بونوا " قبل غيره سيتأكد من أن الشاعر لن يفعل. فالقومندان أذعن لمطالب الكولونيل . وبعد المعارك الأخيرة ، جمعا

كامل نتاج المشتبه فيه ، وجعلاه كومة أشعلا فيها النار . الفصل الأخير الذى حضره بونوا منتحباً ، وتراءى لمخيلة الشاعر دون أن يشهد من تنفيذه شيئاً.

★★★

انتصر الحلفاء . تنفس الأحياء الصعداء وفى بيروت بدأت الاحتفالات . الجنود الإنجليز والفرنسيون يدورون فى الأحياء ، يوزعون البسكوت والخبز. لأول مرة فى حياتهم يرى الناس الخبز الأبيض . أكلوه بشراهة . وكثيرون بكوا الأيام التى عاشوها على خبز الذرة والخبز الأسود . خالة زينة، تكفكف دموعها وتحكى للراهبات كيف رأت بعينيها الرغيف الافرنجى! «يا إلهى حمداً لك على أنك خلصتنا من جور الأتراك . حمداً لنعمتك علينا بمجئ فرنسا».

زينة ، مع الصبيان والبنات تركض فى الشوارع . يلحقون بالجنود لينالوا نصيبهم من الإكراميات . رجعت إلى وردة تصيح : أخت بهية أخت بهية ، سكر أبيض يا أخت بهية . تناولت وردة قطعة من السكر فيما ارتمت الصغيرة على الأرض تبكى وتندب : " أمى ماتت قبل أن تذوق السكر الأبيض " .

كان مارون أخو زينة قد رجع بمفرده . فى ذلك النهار الذى أضاع فيه أمه وأخاه فى الحازمية ، ضبطوا معه كمية من الحبوب واقتادوه للتحقيق . وبعد أن أطلقوا سراحه مشى كثيراً ليصل ، وتوالت عليه أحداث يلزمه وقت طويل ليخبرهم بها .

زلفى تشعر بأن الأخت بهية ليست على ما يرام . صحيح أنها لا تتأخر كثيراً فى النوم كما فى السابق ، غير أنها تمضى غالبية وقتها مع كتب تقرأها وأوراق تكتبها وهموم ظاهرة على وجهها . يقال إن هذه الفتاة التى "ختمت" العلم ستباشر الكتابة . ستزودها إذن بأخبار تسمعها من هنا وهناك . خبر اليوم يتعلق بمدينة القدس . يقال إن قائداً مهما ، نَسِيت اسمه

سيجلب اليهود إلى فلسطين ليكونوا قريبين من المدينة التى يقدسونها . كل اليهود يا أخت بهية!

– وكم يبلغ عدد هؤلاء ؟

– العلم عند الله . أكيد أكثر من ألف . أو أكثر من سكان بيروت . بل أكثر من سكان بيروت والجبل . يقال إن الانجليز غير الأتراك ، فلكل شيء عندهم نظام . وهم سينظمون البلاد فيبقى كل واحد فى مكان عبادته .

الكلام الذى أرادت زلفى أن تسلى به الأخت بهية ، أخرج هذه عن طورها، فرمت الكتاب من يدها وصاحت فى وجهها :

– وأنت يا بلهاء إلى أين تذهبين ؟ وجارتك راحيل ؟...

– أنا وراحيل سنبقى فى بيروت .

– إذن لا تتركى الأقاويل تلعب بعقلك ، فلا أحد يسكن فى غير مكانه . نعم ، أخيراً انتهت الحرب !

نور الدين من على شرفة بيته فى الإسكندرية يطالع الأخبار فى الصحف : المدينة تلو الأخرى تسقط تحت الحصار وتسلّم مفاتيحها لقادة الحلفاء . " قادمون يا صلاح الدين " قال اللنبى . متصرف القدس كتب إلى القائد الإنجليزى رسالة لا يخطها إلا مُذعن لمنتصر :" نظراً إلى شدة الحصار على هذا البلد الآمن وما يلقاه الناس من ويلات بسبب مدافعكم الثقيلة وخوفاً من أن تفتك هذه بالأماكن المقدسة ، نضطر مرغمين إلى تسليمكم القدس آملين أن تحافظوا عليها كما حافظنا عليها نحن قرابة خمسمائة سنة " .

قائد الجيش العثمانى ، أبلغ وجهاء دمشق ورئيس بلديتها انسحاب الخلافة . جيشاً وحكومة من بلاد الشام . ثم امتطى سيارته وراح باتجاه الشمال ، فكان آخر قائد تركى يغادر تلك البلاد . بعض الغوغائيين صاروا يتعقبون الجنود الهاربين ، ينكلون بهم ، فيتدخل المسؤولون وأصحاب الشهامة لحماية هؤلاء المساكين . أهالى بعض الشهداء ، من ضحايا جمال

باشا ، بدأوا يشهّرون بالعائلات المحسوبة على العثمانيين .

أُنزلت الأعلام التركية عن الدوائر الرسمية . سلِّمت سجلات الطابو والويركو والنفوس إلى البريطانيين فى فلسطين وإلى الفرنسيين فى لبنان ودمشق . رُفع العلم العربى فى سوريا . وفى بيروت أيضاً . رفعته شابة جريئة ، هى أنيسة المحمصانى ، شقيقة الشهدين محمد ومحمود . بعد أيام سيقرأ نورد الدين التتمة : أُنزل العلم العربى عن الدوائر الرسمية فى بيروت وبعبدا ورُفع العلم الفرنسى مكانه . نور الدين يهز رأسه : ستنقضى حقب أخرى من التاريخ . ليكتشف الناس أنهم من جديد يبدأون من الصفر . اتفاقيات الحاضر تزرع فى بنودها بذور الحروب الثقادمة . كاميليا تلقى عليه السؤال الذى لا يفتأ يلقيه هو على نفسه : هل قرر الهجرة أم البقاء ؟ كيف يسافر قبل أن يعرف ما حل بأخويه نظمى وشوكت ؟ هذا انقطعت أخباره عن الجبهة ، وذاك راح إلى أمريكا ولم يصل ! " طلبت المستقر بكل أرض فلم أرَ لى بأرضٍ مستقراً " .

الظروف لا الأمنيات ستأخذ عنه القرار . فالصحف بدأت تنبش حكايات الماضى : الأفندى العثمانى متورط بإعدام شبان بيروت والشام . وبحجة توزيع المساعدات ، كان يجتمع بجمال باشا . ومقالات المعارضة ؟

إنما كان يكتبها للتمويه .

★★★

نسى الناس وردة شاه ، لكن هذه ، لم تنس بشارة ، كما لم تنس عائلتها. مشاهد وأحداث ، عاشت بعضها فى الواقع وبعضها الآخر فى المتخيل، تعبر ذهنها المشتت ، لتؤكد لها أنها غدت فى هذه الدنيا وحيدة . وحيدة وغريبة ، دخلت الدير مريضة ، مسلمة ومن أصل تركى اسمها وردة شاه، لتغدو بعد سنوات أجنبية من أصل أسبانى حمّلوها اسم بهية . محبوبها قتل فى معركة الخنادق ، وأهله أعلنوا الحداد عليه . أقفلوا منزلهم فى بيروت وراحوا إلى الجبل . نور الدين سافر . أختها ملك توقفت عن

زيارتها . خلت أماكن المحبين . حل اليأس فى نفسها وباتت تجد فى حياتها فى الدير راحة وحكمة . تتمنى لو كان الترهب فى الإسلام ممكناً لتلبس الثوب وترتاح من وطأة العالم الخارجى وتتفرغ للعمل الخيرى .

ما تطلبه هو عين المستحيل ، قالت إليزابيت . هى أكبر خيانة لنور الدين . والعمل الخيرى يمكن لأى مؤمن أن يقوم به بلا ترهب .

كيف ستمضى إذن ما تبقى لها من أيام فى الدنيا ؟

– ستسافرين مع نور الدين وكاميليا . تتزوجين وتنجبين أبناء وبنات . آن لك يا وردة أن تنسى من مضى على غيابه سنوات !

" ولكن .... إن نسيته فكيف تنسى نفسها ؟

ستعود إلى أوراقها ، وستغدو هذه ملاذها الوحيد وإن رحلت تحملها معها .

فى تلك الآونة ستسألها الأخت إليزابيت ، إن كانت مستعدة للاهتمام بأجنبيات سيأتين من بلدان عدة ، لمساعدة المطرانية على إنشاء مدرسة التمريض التى حالت الحرب دون إنشائها . ومساعدة أهل البلاد على الخروج من محنتهم . سيصلن عما قريب .

لم لا ؟ قالت وردة فى نفسها .

أقترح أن تقومى بأعمال الترجمة . قالت إليزابيت .

★★★

الناس ، بعد انتهاء الحرب ، يبحثون عن أحبائهم . بعض المسافرين رجع وبعضهم الآخر لم يُعرف عنه شيء . شاب أسمر بملابس بحار بهى الطلعة طويل القامة ، سيضرب باب آل إسماعيل ويطلب مقابلة الأفندى نور الدين ، فى هذا المنزل الذى خلا من الرجال .

يا لتلك الأيام !

– أين الأفندى نور الدين ؟ سأل البحار الحارس .

– مسافر .

– ومتى يعود ؟
– الله اعلم . يقال بعد أسابيع أو ربما بعد شهور .
– والعم سليمان ؟
– العم سليمان ؟! البقية فى حياتك .
– رحمة الله على روحه . والعم رضوان ، وخالد ؟
– خالد أفندى أخذ عائلته إلى الشام .

وخطر للبحار أن يلقى على الحارس أسئلة أخرى . أو أن يتوقف ليتأمل بعين رجل منازل وحدائق غادرها منذ سنين . لكنه أدار ظهره ومشى .

بعد عام على ذلك ، وفى باخرة قادمة من الإسكندرية إلى بيروت ، سيتقدم البحار الأنيق من كهل ذى عينين خضراوين ، وينحنى أمامه بإجلال . وبالإجلال ذاته سيمسك بكفه ويلثمها ، قبل أن يتمكن المسافر من تفادى حرج الموقف سمع الشاب يقول: كيف حالك يا حضرة الأفندى ؟ كيف حالك يا أبيه ويا سيدى نور الدين ؟

★★★

أفاق أهل الدير على جلبة سوف يقضون عمرهم يسترجعون تفاصيلها . جلبة تختلف عن صخب المعارك التى شهدوها فى الحرب ، وعن هتافات الترحيب بجنود الاحتلال ، وعن التى أيقظتهم ليلة سرق الدير . جلبة خاصة قوامها كلام تتبادله الخادمات والراهبات والحارس والسائس مهنا والجيناتى صابر وزلفى . وبين الكلمة والأخرى يتردد اسم بهية ؟

ركضت إليزابيت إلى هؤلاء تستفسر فأخبرتها زلفى بما حدث : بعد أن يئست من الطرق على باب بهية لتعطيها الدواء والشاى ، فتحته فلم تجدها . بحثت عنها فى الحمامات وفى غرف الطابق العلوى وفى كل زاوية . ثم نزلت تبحث عنها فى الطابق السفلى ، وللآن لما تعثر عليها . لعلها ذهبت مع قريبها العجوز الذى جاء منذ فترة وتكلم معها بالاسبانية. فهو حين ودعها قال لها بالعربية ، " إذن سأرجع لآخذك "

ما الذى يبغيه عجوز من شابه سوى أى يفر بها ؟

هرعت إليزابيت إلى غرفة ضيفتها تبحث عن دلالات هرب ، فاستوقفها القفص خالياً من اليمامة ! القفص الذى أحضرته وردة منذ فترة وعلّقته على درابزين النافذة . لطالما حدثتها وردة بلغة الرمز والصورة الشعرية أو بكلام فلسفى ، ولعل إطلاق اليمامة استعارة لفرار فضلت ضيفتها عدم التصريح به .

ستتابع إلزابيت بحثها . ستفتح الخزائن وتروح إلى الحمام وتطل من النوافذ وتدور فى الحدائق وتفعل ما سبق وقام به منذ أربع سنوات ، آل إسماعيل ، لتسمع جواباً واحداً : آخر مرة رأيتها ، البارحة . لكن كيف لم يتنبه أحد إلى فرارها ؟ كيف لم يتناه إلى مسامعهم قرقعة عربة أو حمحمة خيل ؟

سيضعون اللوم على الحارس ، وهذا على الجنيناتى وذاك سيغمز إلى موقف الأخت الفرنسية التى دأبت على الجلوس مع الهاربة يومياً للعمل ، أو لتبادل أحاديث لا تنتهى ، أو التنزه معها فى حوش الدير .

بم كانتا تتوشوشان باللغات الأجنبية ؟

الأخت " مارى نزاريت" التى لم تفهم من الكلام الملغز ضدها شيئاً ، تبذل جهداً كى لا تبكى فراق صديقتها . تسمح دموعها وتتحدث بذاك الاحتمال : أن تكون بهية قد ذهبت منذ الصباح الباكر إلى المستشفى . فآلام معدتها فى الأيام الأخيرة باتت لا تحتمل .

كانت بهية قد ذكرت على مسمعها إمكانية أن تفعل ذلك . من الجلى أن هذه الشابة التى تتقن عدداً من اللغات ، هى من منبت رفيع وروحية نادرة، قصدت الاستشفاء بمفردها كى لا تزعج أحداً . وإن كانت من ناحيتها، قد شعرت عند منتصف الليل ، بما كانت تشعر به فى الليالى الأخرى : حفيف خفيف ينبئ بنزول أحد من الطابق العلوى على عتبات السلالم ! وضوء خافت أشبه ببرق بعيد يلمع تحت ثم ينطفئ . نعم . لكن ، بما أنها غريبة ،

ظنت أن تلك الإشارات جزء من المكان الذى وفدت حديثاً إليه . ليت فى استطاعتها أن تفعل الآن شيئاً للبحث عن الأخت بهية !

الحارس ، لا يسعه القول ، إنه لشدة التعب ، بعد تنظيف الأماكن فى الخارج ورى الحدائق ، يغط كل ليلة فى نوم عميق ، فلا توقظه الخيل إن صهلت ، فكيف كان سيصحو على وطء أقدام خفيفة ، تنزل السلالم فى ظلمة الليل وتدخل إلى المكتب، كما سيقال ، لتقرأ على ضوء الشمعة ، أسراراً دفعتها إلى الهرب ؟ والجيناتي، هو الآخر، ما كان سيتنبه لشيء ، وخطوات الهاربة أكثر خفة من خطو النمل على الرمل .

أما السائس مهناً ، الذى لا شيء يُخفى عليه شيء فلديه كلام كثير ، يبرّئ الراهبة الفرنسية . فقبل مجئ تلك كان قد لاحظ أشياء وأشياء تدل على أن بهية ستفرّ مع الشاب الذى أوقفها ذات مرة فى الطريق ، وكلمها بالفرنسية وسلمها رسالة . الشابة الغريبة هذه ، التى لا هى بمسلمة ولا بمسيحية ، لا هى براهبة رُسمت ولا بعازبة تنتظر نصيبها ، هذه التى تتغنج فى مشيتها بحجة أن فى فخذها رصاصة ، بعد تسلمها الرسالة تغيرت بصورة مدهشة ! صارت كثيرة المرور فى ذاك الحى ، وكثيرة الإلحاح عليه بأن يتركها بمفردها تتدبر أمر الرجوع . تفعل هذا غير آبهة لسلطة الريسة عليها ! وبعيد تسلمها الرسالة اشترت قفصاً فاقع الألوان من دكان المعلم صابر ، وضعت فيه يمامة ترفض ذكر مصدرها ، بحجة أن كائنات مثل الطير لم تولد لمقاصد التجارة ، ولا لأى غرض آخر ظاهر للعين . الكائنات هذه ، إن كانت تؤنس وحشة الانسان ، فإنما تفعل ذلك لا مبالية وبلا هدف . كلام مخبولين تجيبه به تلك الفتاه الغامضة. ولا تجد حرجاً فى أن تتبادل مثيله مع اليمامة . تتحادث وإياها كأنما تحادث روحها !

نعم ، يخطر لمهنّا أن يبوح بكل هذا للأخت إليزابيت ، ويكشف لها عن التصورات التى تتراءى له كما وقائع: ليلة الهرب ، والظلمة على أشدها ، ركن صاحب الرسالة الملعون عربته فى الشارع الخلفى ، وانسل بلا نأمة

إلى حوش الدير للقاء بهية . تناول حقائبها وأسرع معها فى الهرب . من يدرى لعله خبأ الهاربة فى بيته أو سافر وإياها فى إحدى البواخر الكثيرة التى صارت تمر ببيروت ؟

لكن، ما توسوس به النفس لن تلبث أن تكذبه العين ! ما هى سوى أيام حتى سيفاجأ بالمتهم واقفاً فى باب الفرن يبتاع الخبز ! لذهوله، أوقف عربته وراح يتفحص الشاب ! وخطر له أن يسأل الحلاق زيون عن هوية هذا الملعون لكنه عدل . فى هذه الظروف المتقلبة لا يجدر بأحد أن يتحرّى أحداً . لذا وقبل أن يلاحظ الشاب وجوده ، همز جنب الخيل ومضى .

أما الأخت إليزابيت، فلولا اختفاء حقائب الهاربة ، لأخذت بكلام ضيفتها الفرنسية . أمّا وقد مضت ساعات، والسائس يلف الشوارع وأهل الدير لم يتركوا زاوية من محيطة إلا فتشوها ... وأمّا أن اختفاء الضيفة قد تلازم مع اختفاء كل ما يخصها ، وأن الشمس بدأت تميل للمغيب ، فقد بات من شبه المؤكد أن وردة اختارت ثانية ما سبق واختارته منذ اربعة اعوام ، وأنه لا بد من ابلاغ الأفندى نور الدين .

لكن كيف ؟

تستعرض إليزابيت الاحتمالات ، وتكتب فى ذهنها للأفندى الرسالة تلو الأخرى ، فيما الراهبة الفرنسية ، تتحسر على خسارة الصداقة الثمينة التى نشأت بينها وبين الأخت بهية . تتحسر على الأحاديث النادرة التى كانتا تتبادلانها . حوارات ، على ندرتها، ازداد فى الأيام الأخيرة توهجاً ! تتحسر ... هى التى جاءت إلى مكان ظنته نائياً عن الحضارات لتكتشف فيه من ينطق لسانها بكنوز الحضارات ! من تقرأ لها مختارات من أمهات الشعر والفلسفة . كانت ستدرّسها العربية ، وحتى الإسبانية . كانت ستقرأ لها فصولاً من رواية تكتبها . رواية قد تكشف لها اللغز... لغز حياة هذه الشابة وإقامتها فى مكان تنتمى إليه ولا تنتمى .

- وبمَ تتحدث روايتك يا أخت بهية ؟
- لا يسعنى قول ما تكتبه الريشة بدم القلب .
- ومتى تنتهين من كتابتها ؟
- لا أدرى ، فمصير أبطالها مازال مجهولاً .

★★★

زلفى ، تغبط الأخت مارى نزاريت على فصاحتها فى التعبير ، وإن كانت تخالفها الرأى . ففى غمار بحثها عن الهاربة يتراءى لها كواقع ، ذاك المشهد السحرى الذى حُملت فيه الشابة ، ذات الطابع الوحشي، على بساط الريح إلى مكان لا يعلم به غير الله ، ومعها صندوق كتبها وحقيبتها الهافان التى تضع فيها ثياباً بديعة لم تكن ترى النور. والحقيبة الأخرى السوداء المقفلة بأقفال غليظة . الحقيبة التى ، لم تفتحها ولا مرة واحدة على مرأى من الأخريات .

ماذا تخبّئ الحقيبة المقفلة يا ترى؟

لا ريب أن ما كانت تتجنبه فى النهار كانت تقوم به فى الليل : بعد أن تطمئن إلى أن الجميع قد غط فى النوم ، تقفل باب غرفتها بالمفتاح وتُخرج من الحقيبة أشياءها السرية! أشياء يتناهى حفيفها إلى مسمع زلفى ، مثل حفيف قماش رهيف !

لا بد أن الفتاة الغريبة هذه تخفى حكاية ! ستتلصص هى من ثقب الباب لترى المشهد الذى سيدوّخ عقلها ! المشهد الذى سبق لكاميليا أن ساهمت فى صنعه ، واسترجعته وخدها إلى كفها يوم الحمام ، صار يتراءى لزلفى من الثقب ، كما تطالعها ابتسامة غريبة تشع على وجه بهية وهى تقف أمام المرأة بالطرحة وبفستان عرس يخلب اللب ! مثل ابتسامة المجنونات! بلى ، يتضح لها الآن مغزى الهرب . بهية لحقت بعريس لها فرّقتها عنه ويلات الزمان .

★★★

بعد مضى أسابيع على اختفاء وردة سيقف فى الباب شاب متلهف على لقاء رئيسة الدير ، ويسلمها رسالة من الواضح أنه يعرف مضمونها.

ستتسلح إليزابيت بالشجاعة وتستعجل فض المغلف وتقرأ :

" حضرة الأم الفاضلة ريسة الدير المحترمة.

أثناء رحلتنا من بيروت إلى الإسكندرية ، حدث ما ينبغى إعلام ديركم الموقر به . كانت إحدى الراهبات . كما يؤكد أفراد الطاقم ، قد صعدت إلى الباخرة مع غيرها من الركاب . إنما عند المغادرة لم يرها أحد بين هؤلاء .طاقم السفينة ، ومعاونه ، لم يتنبها إلى المسألة إلا بعد خروج المسافرين . عندئذ ، قاموا مع العمال بالتفتيش اللازم ، وحين فقدوا الأمل أبلغوا إدارة الشركة . وتلك طلبت من المراكب البحث عن المفقودة . ما يثير الدهشة ، أن الطقس ، ذاك النهار ، كان جيداً والبحر شديد الهدوء ، حتى لا يمكن لغير جاهل تماما فى السباحة ، أو راغب فى الموت أن يغرق . والمدهش أيضاً أن الباحثين عن المفقودة عثروا فقط على ثوبها طافياً على وجه الماء . من العلامات الأخرى التى تميز هذه ، أنها طويلة القامة زرقاء العينين .

وتؤكد إدارة الشركة استعدادها لمعاودة البحث ، إن كنتم ترغبون فى ذلك . وفى حال النفى تستأذنكم إقفال الملف . ولتتفضل الأم الريسة بقبول فائق الاحترام

كانت الأخت إليزابيت ، ستعيد قراءة الرسالة مرات ومرات ، لولا تنبهها إلى أن حاملها كان يراقب انفعالاتها مراقبة من فى نفسه شك ما ! استمهلته ودخلت إلى مكتبها وبدأت تسطر إلى قائد السفينة بعض الكلمات:

"أشكر اهتمامكم بأرواح الناس لا سيما روح من وهبت نفسها لخدمة الرب وعباده . ولا يسعنى سوى أن أؤكد لكم ولإدارة شركتكم الموقرة أن الدير لم يفقد أيا من راهباته التسع . لعل أحداً ما ، سيدة أو رجل تسلل إلى السفينة بزى راهبة وخرج منه بزى آخر، و..." .

وما كادت إليزابيت تخط العبارة الأخيرة حتى مزقت الورقة وعادت تكتب غيرها وهى تتمتم : ما أسهل إطلاق الإشاعات فى معرض نفيها .

★★★

كان البحار الشاب أكثر تلهفاً على قراءة الرد الذى سيعود من ريسة الدير . الرد الذى سيحسم التشوّش ويضع الحد فى خياله، بين هلوسة يخشى أن تكون قد ضربت رأسه وحدث عاشه .

لا، إنه غير واهم!

ذاك النهار البالغ الإشراق ، وبعد أن اطمأن القبطان إلى سير السفينة، أرسل معاونه ليجرى التفتيش الروتينى خارج قمرة القيادة. أنهى البحار عمله وصعد إلى السطح . مستمتعاً بالابحار فى مستهل الربيع ، وقف عند الدرابزين يتأمل السفينة ، تشق مجرى الماء وتبتعد عن الضفة الشرقية من البحر المتوسط . الضفة التى غادرها منذ سنوات عازماً على الرجوع إليها للقاء محبّيه . وحين تيسر له أن يفعل ، لم يعثر على أحد منهم . لكن من المؤكد أنه قريباً سيرجع . نعم ، ويلتقى أختاً له أضاع أثرها . حكى حكايته للقبطان ، وجعله يرى الصور . القبطان ، فى المرة الأولى ، قلب شفتيه ورفع حاجبيه ، لكن المعاون قطع على رئيسه طريق الخطأ ، وقبل أن تفلت من هذا كلمة فى غير مكانها ، جلا الالتباس : تلك عائلة لأخت له فى الحليب أعطاها وعداً بأن يرجع إليها ولم يرجع، والحرب هى السبب .

أبوه رجب عاد وهو لا .

نعم ، خرج محمود ، صبيحة ذاك النهار المشرق ، إلى سطح السفينة. وقف يودع المعالم التى بدأت تتوارى ويراقب المنبسط الفضى الذى يبرق تحت أشعة الشمس بريقاً يغرى بقدر ما يغشى البصر . استدار ليرجع، فلمح المسافرة التى نفذت نظراتها إلى أعماق روحه :

راهبة !

رؤية كنور الشمس كانت رؤيته الراهبة تلك، ذاك النهار المشرق على سطح السفينة. نعم . ورغم ملابسها الغريبة عليه ، والحجاب الذى يقمط رأسها ، ما كانت تلك طيفاً ، بل امرأة من لحم وروح رآها بأم عينه تتبادل مع مسافرات أخريات التحية ثم تبتعد لتجلس على مقعد وتفتح كتاباً وتقرأ .

نعم ، فعلت هذا! و لحظة مروره بقربها ، حانت منه التفاته إليها ، وما إن وقع النظر على النظر حتى دارت به الأرض وأعادته سنين إلى الوراء .

سبع سنين ؟

لا بل أكثر بكثير . أعادته بلمح البصر إلى ذاك الحد الذى يشبه فيه الحلم الواقع والذكريات الأحداث . الحد الذى يسترجع فيه مشاهد أولى ونقية تسكن روحه ، كما تسكنها العينان اللتان لمح تواً شبيهتهما !

ليت رضية كانت معه لتشهد!

تابع سيره مأخوذاً بما رأى ، ثم استدار ثانية ومر أمام الراهبة ليتأكد : هناك صورة وأصل . وقبل أن يخطر له أن الأصل قد يكون لأخته وردة ، تعثر وكاد يقع . راح إلى المطبخ ، تناول شربة ماء وتهالك على كيس القمح . العمال يروحون ويجيئون وهو مأخوذ بما رأى . يا إلهى ، الدمع يترقرق فى عينيه ! ولولا أن اسحق دخل يعيطه الشاى ، وأخبره بأن القبطان يسأل عنه لبكى . حين رجع إلى كابين القيادة ، سأله رئيسه عما به فأجاب : دوار بسيط .

– إذن ، كيف ستغدو ذات يوم قبطاناً ؟

سمع رئيسه يقول هذا فيما هو يفكر فى حجة ليخرج من جديد . يبحث عن الشبيهة . سيفعل هذا بالتأكيد ، وسيقف عند سلم الباخرة أثناء مغادرة المسافرين ليراها .

لكنه لم يرها .

عجباً . طيف تراءى وتبخر !

متلهفاً ، قرأ الرد الصارم الذى ارسلته ريسة الدير. الرد الذى سيخيب كل توقعاته! " من ناحية أخرى ، تذكر ريسة الدير فى رسالتها ، لا علم لى بثوب ضائع من عندنا . والملابس ، فى نهاية الأمر ، لا تعنى أن لها صاحباً يلبسها . لذا ، أرجو منكم اعتبار إقفال الملف ، وتفضلوا ، بقبول فائق الشكر والاحترام ."

غير مصدق يعيد القراءة. تلازمه مشاعر قلما لازمت بحث فاقد عن مفقود . باحث، رغبته فى العثور على الضائع توازى رهابه من العثور عليه. لا ريب أنه، فى غمار اللهفة والقلق ، كان يتمنى حدوث ما تراءى لوردة فى هذيانها منذ سنوات خلت ، والذى يؤثره على أى احتمال : أن ينتشل بنفسه الغريقة من الهلاك . أن يهرع إليها يطمئنها بالقول لا تخافى يا توأم روحى، لن يلحق بوردة أذى وأخوها محمود على قيد الحياة .

★★★

فى خروجه من الظلمات ، كان بشارة يحلم ويخطط . لم يحزنه إحراق أوراقه ، فتلك كانت الخربشات التى تمهد لما سوف يُقال . الأصوات التى يتفوه بها الأطفال قبل أن يبدأو الكلام . الحالة السابقة على الحالة. التجارب التى لا بد منها للقاء وردة شاه مكتملا ، نقيا . سيعترف لها بالإثم الذى ارتكب ويطلب منها أن تغفر له قبل أن يقولا " نعم " للرباط المقدس الأبدى . سيخبرها بحكاية الزنزانة والسلاسل والمحاكمة التى كانت ستحرمه من لقائها لولا مقتل الكولونيل فى المعركة الأخيرة .

" سنخرجك من الزنزانة " ، قال له القومندان . وعليك أن تخرج نفسك من ظلمه النفق . نعم ، سيفعل ، ويفرح قلب أبيه المقعد. يدخل عليه بزيّ الكابتن الذى سيلبسه للمرة الأخيرة ، وبكل النياشين والميداليات التى أُعطيها ، وبنصيب من المال ، وبهدايا اشترها له ولأمه . أما هداياه لوردة، فسيخبئها حتى عن نصرة نفسها . إن كان سيبعث لخطيبته بالقلادة ، مع الساعى الأمين ، إشارة وصول وتواصل ، فسيحتفظ بالأشياء الأخرى ، الخاتم والسوار ، ليعطيها إياها بنفسه . ولا بد من أن يصارحها : إن كان، إرضاءً، للأفندى ولروح بوران، سيراعى مسألة الدين ، فهو سيحتفظ بأحقية الاسم . إذا ما رزقهما الله صبيا سيكون اسمه شكر الله .

بلى ، سيخرج ليبدأ مشواره الجديد مع من بلغ يأسها ذروته وتخلى عنها أهلها واستسلمت هى لسجنها فى الدير تقرأ وتكتب . ويحاول أن

يتخيل وصوله إلى بيروت ، والمراحل اللاحقة التى سيبقيها طيّ الكتمان ، لدى صديقه و أمين أسراره ، جاره الوفى عبد الله . طى الكتمان ، حتى عن وردة نفسها ، إلى أن يأتى الوقت الملائم لكشفها .

لا يعلم أن الملابسات ستتدخل لتتجاوز ترتيباته ، وأن السر سينكشف لمحبوبته قبل أن يطأ هو أرض المرفأ .

★★★

الأسابيع السابقة على هرب وردة ، بدت لسكان الدير شبه عادية. كان الكل منهمكا بوصول الوافدات الأجنبيات من راهبات ومدنيات وبوصول المعونات من الحلفاء التى بدأت تعيد الحركة إلى الدير . الكل منشغل بإقبال الناس عليه لطلب المؤن أو لإدخال الفتيات إلى فصول التدريس . وبدا أن فصل الشتاء ، على قسوته ، يسهم فى لملمة ذيول الحرب وتبديد مناخ الموت الذى خيم طويلاً على البلاد.

أمور كثيرة شغلت أهل الدير فى تلك الآونة ، لا ترى إليزابيت لأى منها علاقة بفرار وردة . فرار لم يخطر لها قط . كيف كان سيخطر ووردة نسيت نفسها منكبة على العمل الذى كلفتها به انكباب راهب حبيس على قراءة نصوص مقدسة ؟ كيف ... وهذه تطالبها بالترهب أو بما يشبهه ؟

وردة أيضاً لم تخطر لها فكرة الهرب ، وإن كانت لا تتخيل نفسها مسافرة مع العم جرجى لتلحق بكاميليا ونور الدين . كانت حياتها فى انتظار المجهول قد تحولت إلى نهار ثقيل وليل كئيب لا ينجلى إلا ليأتى بغد أكثر منه كآبة، تلوذ منها بفصول روايتها فى الليل ، وبالعمل الذى اقترحته عليها إليزابيت فى النهار. كل شيء كان سيجرى حسب الروتين المعروف لولا أن الراهبة الفرنسية مارى نزاريت ، التى فتنت بمواهب "الأخت بهية "، طلبت إليها أن تغدو يدها اليمنى، تساعدها فى أعمال تتعلق ببيانات وأسماء . هناك فى الدنيا ملايين البيانات ، لكن ، أن تتعلق واحدة منها بالعائدين من الحرب مع الجيش الفرنسى ، فلهذا وقع مختلف !

منذ أن فتحت مارى نزاريت ، الدفتر الكبير ، على صفحتين متقابلتين ، دوّنت فيهما هنا وهناك عنوانين متشابهين برغم اختلافهما الرهيب ، وفتحت دفتراً آخر صغيراً فيه أسماء ، أشير إلى بعضها بالأخضر ، وإلى بعضها الآخر بالأحمر ، أصيبت وردة بذاك الاضطراب الذى سيلازمها أسابيع بعد ذلك . لو سئلت عن ذاك الموقف الذى هز كيانها وجعل الأرض تدور بها ، وغشى بصرها وكاد يفقدها الوعى حتى تمسكت بحافة الكرسى ، فيما خيل للراهبة الفرنسية أن زميلتها تئن من الوجع ... لو سئلت ، لقالت ، إنه على حافة الإغماء ، تراءت لها صفحة ، " الناجون من الحرب " إلى اليمين وصفحة " غير الناجين " ، إلى اليسار . وتمنت فى تلك اللحظة أن تغيب عن الوعى ، ساعات أو أياماً ، فلا تصحو إلا والأخت مارى نزاريت قد انتهت من التسجيل .

وسمعت هذه تسألها عما بها ولم تشد على صدرها هكذا ؟

– ألم رهيب فى معدتى .

– أفهم شعورك يا عزيزتى . لطالما فى البدء حدث لى الشيء ذاته . ولعل العزاء أن للشهداء الجنة ، وأن بعض من اعتُبروا موتى تبين فى ما بعد أنهم أحياء . قومى الآن إلى غرفتك ولاحقا نتابع العمل .

لا ، من المستحيل عليها أن تقطع عملاً تسجل فيه أسماء ، لا بد أن تعثر بينها على اسم بشارة .

لكن فى أى من الصفحتين ؟

أسماء كثيرة ستمليها عليها الأخت نزاريت . أسماء فرنسية وأخرى ذات منشأ عربى : نجيب وتوفيق وحنا وسركيس وأنطوان وفريد وسليمان و ...

واحد فقط من بين هؤلاء ، برتبة كابتن ، اسمه بشارة شكر الله !

الفرنسية تهز رأسها إعجابا ، فيما قلبها هى يكاد يتوقف وتكاد أنفاسها تنقطع ، وهى تسأل هل الاسم الأخير ، اسم الكابتن هو لحيّ أم لميت ؟

الحمد لله يا عزيزتى ، إنه من الناجين .

من الناجين !

ستبتكر المعجزات لتزف البشرى إلى عبد الله . فى ليلة القدر هذه ، ستقوم بما يؤكد للعين ما سمعته الأذن . الليلة ، وفى كل ليلة ، ستتسلل من غرفتها وتنزل إلى المكتب ، تفتح السجل وتقرأ على ضوء الشمعة اسم الكابتن بشارة شكر الله فى صفحة الأحياء !

★★★

ما رأيك أن نبدأ الدروس الأسبوع المقبل ؟

سألت مارى نزاريت الأخت بهية .

وهذه كادت تجيب : الأسبوع المقبل سيفتح القفص وتعود اليمامة من حيث أتت . الأسبوع المقبل ستبدأ وردة رحلتها ، فقد اكتملت الترتيبات . بشارة سينتظرها على رصيف المرفأ فى الاسكندرية .

نعم ستسافر إليه . كأنما على البساط السحرى الذى تراءى لزلفى . قبيل وصول السفينة ستبدل زيا بزى ، وتخرج بالفستان الأصفر ، وقبعة القش التى تزينها وردتان ، وتتجه إلى باب الخروج . ستتمسك بدرابزين السلم وتنزل . وهذا الواقف بين المستقبلين على أرض المرفأ ، كان يبحث بلهفه بين القادمين عن مسافرة فارقها منذ سنوات . هواء عذب ومنعش يلامس وجهه . لن يبذل جهداً كبيراً ليتعرف إليها ، وإن كانت فى نزولها سلم الباخرة ، تتمايل بغنج لا يعهده فى مشيتها . كان فى وده أن يصعد إليها ويساعدها على النزول كى لا تتعثر وتقع . لكنه لزم مكانه متهيباً اللقاء . سيتقدم منها، يرفع قبعته وينحنى ، يتناول كفها ويلثمها . ثم يبدآن السير . لا ريب فى أنها ستتنبه إلى شيء غير عادى طرأ على مشيته . " أهون الخسائر "، ستقول فى سرها ، فيما هو يشبك كفه بكفها ويغادران المرفأ إلى رحاب الإسكندرية.

تعريف بالكاتبة

د. رجاء نعمة

روائيـة من لبنان ، ناقدة في التحليل النفسي للأدب ، خـبـيـرة المنظمـات الدولـيـة وهيـئـات الأمم المتـحـدة في التعليم والتثقيف المجتمعي .

نشرت عددا من الروايات في لبنان ومصر ، من أهمها «كـــانت المدن ملونة» التي صـدرت عن دار الهلال عـام ١٩٩٠، وبـين الأعـــــوام (١٩٨٠ و٢٠٠٨) ، صدر لها في بيـروت : «طرف الخيط» ، «الصـــــورة في الحلم» ، «مـــريم النور» ، «حـــرير صـاخب» ، «فـراس وأحـلام المدينة» و«هل رأيتم وردة؟» .

كـمـا وفي الثـمـانينيـات نشـرت عـددا من قـصص الأطفـال في مـجلة العـربي الصغير الكويتية .

هذه الرواية

فى منعطف تاريخى شديد الثراء ، مفرط فى الحساسيات ، فى فجر القرن العشرين، الذى تعصف به الآمال الكبيرة ورياح التغيير، ولدت ونشأت فى بيروت «وردة شاه» من عائلة «اسماعيل» التركية ذات الولاء العثمانى . أخوها الأكبر وعرابها «نور الدين» مستشار مميز لدى السلطنة، تأثر بالنهضويين العرب، كما بأفكار عصره وبمبادئ الثورة الفرنسية، تأثرا جعله يعقد آمالا كبرى على النهضة بالبلاد وعلى التنوير . كما جعله يأمل لأخته التى لمعت فى المدرسة بمستقبل أدبى هام شأن قدرية حسين فى مصر ، جورج صاند فرنسا وجين أوستن فى انكلترا . «وردة شاه» ، وقدرها أن تحيا عصرها بصورته الأصيلة، ستقع فى حب «بشارة» أستاذ الآداب والفلسفة حبا صوفيا يتغذى بأشعار ابن عربى وتفانى رابعة العدوية ومصير الحلاج . قصة الحب بين الشابين لن تلبث أن تتحول الى فضيحة تهز أركان بيروت وتؤجج حساسياتها الفئوية والطوائفية ، فيما ، وهى المؤهلة للاضطرابات، تتحضر للدخول فى أتون الحرب العالمية الأولى . الحرب التى ستمزق شمل البلدان والسكان وتمزق شخصيات الرواية التى بين ولاء عربى وآخر عثمانى ومستحدث فرنسى .. ستنقسم على ذواتها . سنراها فى رحلاتها بين بلاد الشام ومصر وبين تلك وأوروبا ، تبحث عما يزيدها ثراء وتنورا وتمزقا إنما لتبقى وفية لصيرورتها الدرامية ولنسيجها التاريخى الاجتماعى . ووفية لقدرها الخاص . ستضع الحرب أوزارها لكن وردة وبشارة كما سائر الشخصيات ستواصل مسيرتها . سنرى المحبين . بعضهم يبحر الى الاسكندرية.. فيما البعض الآخر ماض فى البحث عمن فرقتهم ترهات الحرب .